أنيس منصور

هؤلاء العظماء وُلِدوا معًا

دار الشروق

في تلك السنة

هؤلاء العظماء ولدوا معًا

في تلك السنة

هؤلاء العظماء ولدوا معًا

الطبعة الأولى

١٤١٢ـ١٩٩١

© دار الشروق

القاهرة : ١٦ شارع جواد حسني ـ هاتف ٣٩٣٤٥٧٨ ـ ٣٩٣٤٨١٤
برقيا : شروق ـ تلكس 93091 SHROK UN
بيروت : ص.ب : ٨٠٦٤ ـ هاتف ٣١٥٨٥٩ ـ ٨١٧٧٦٥ ـ ٨١٧٢١٣
برقيا : داشروق ـ تلكس SHOROK 20175 LE

أنيس منصور

فى تلك السنة

هؤلاء العظماء وُلِدوا معًا

دار الشروق

يحدث على كثيرين
نرى ونسمع
ونتأمل ..

نحن لا نعرف كيف يظهر انسان عظيم ، ومادام قد ظهر فلابد أن له دوراً في حياتنا . فإذا ظهر إلى جواره عظيم آخر ، فلابد أن لهما رسالة . وهذه الرسالة هي دفع الناس إلى الأمام قليلا .

ولكن ما هي العلاقة بين العظيم وظروفه ؟

وما هي الصلة بين ظهور عدد من العظماء في بلد واحد في زمن واحد ؟

ولماذا ظهروا معا واختفوا معا ؟

ثم ما معنى أن تمضي مئات السنين فلا يظهر أحد عظيم ؟!

ففي القرن الخامس قبل الميلاد ظهرت أسماء لامعة باهرة في الحضارة الاغريقية . ثم لا نجد لهم نظيرا بعد ذلك حتى اليوم . فقد ظهر عندهم الفلاسفة . هرقليطس وانكساغوراى وفيثاغورس وامبذوقليس وبروتاجوراس وأفلاطون وسقراط وأرسطو وهوميروس .

ففي سنة ١٨٨٩ وحدها ولد هؤلاء العظماء معاً وفي بلاد مختلفة :

الشاعر والمفكر العظيم : عباس العقاد ..

وعميد الأدب العربي : طه حسين ..

والمؤرخ الكبير : عبد الرحمن الرافعي ..

والأديب الساخر : ابراهيم المازني

وولد أيضا : الفيلسوف الوجودي الألماني مارتن هيدجر

والفيلسوف النمساوى : فتجنشتين مفكر الوضعية المنطقية .

والفيلسوف الوجودى الفرنسي جابريل مارسل ..

والأديب الفرنسي : كوكتو ..

والزعيم الألماني : هتلر والزعيم الهندي نهرو ..

والمؤرخ الانجليزى :.توينبي..
والزعيم البرتغالى : سالازار ..
والممثل الانجليزى : شارلى شابلن ..
والشاعرة الروسية : اخماتوفا ..
ومخترع الهيلوكوبتر البولندى : سيكورسكى ..
والفلكى الأمريكى : هبل *
والرسام الانجليزى بول ناش .
واكتشف فون ميرنج أن البنكرياس يفرز مادة البنسلين التى تمنع الاصابة بمرض السكر ..
وانتحار ولى عهد النمسا فى كوخ مايرلنج :

★ ★ ★

ومات الشاعر الانجليزى براوننج ..
وفى سنة ١٩٦٤ مثلا توفى :
الأستاذ العقاد .
والأديب الايرلندى بيهان .
وعالمة البيئة الأمريكية راشيل كارسون .
والعالم الرياضى النمساوى مخترع السبرنطيقا : نوربرت فينر .
والعالم الانجليزى فلمنج : مكتشف البنلسين ..

★ ★ ★

وفى سنة ١٩٧٣ توفى.
طه حسين والمؤرخ توينبى .
وكذلك هؤلاء الأدباء بيرل بيرك ونويل كوراد وباتريك هوايت الاسترالى الفائز بجائزة نوبل فى الأدب والشاعر الشيلى نيرودا والشاعر الانجليزى أودن والفنان العظيم بيكاسو والفيلسوف الفرنسى جاك ماريتان ..
وفى سنة ١٩١٨ ولد : الرئيس جمال عبد الناصر والرئيس أنور السادات
والرئيس شاوشيسكووالمستشار هلموت شميت
والأديب الروسى الفائز بنوبل فى الأدب سولجنتسين
وتاناكا رئيس وزراء اليابان ..

وفى سنة ١٩٧٠ توفى جمال عبد الناصر وشارل ديجول وكاتب الرحلات جون جنتر واثنان من الأدباء اليهود اللذان فازا مناصفة بجائزة نوبل هما : اجنون الاسرائيلى ونيللى ساكس السويدية .. والأديب دوس باسوس والرئيس السوفيتى ميكويان .. والروائى الألمانى ريماركه مؤلف « كل شىء هادئ فى الميدان الغربى »

والفيلسوف الانجليزى رسل والفيلسوف الألمانى كارناب .

واحترقت دار الأوبرا المصرية ..

★ ★ ★

واليك المزيد من هذه « الصدف » التاريخية .. فهل لها دلالة ؟ وهل هناك هدف.. خطة .. قرار .. وهل فى الحياة وفى الكون ما يوصف بأنه صدفة ؟!

ففى سنة ١٩٢٩ ولد :

الزعيم الفلسطينى ياسر عرفات وأنشئت الوكالة اليهودية .

والأديب الانجليزى الساخط جون اوسبورن .

وولدت الطفلة الهولندية « أن فرانك » التى روت تعذيب النازى لليهود وتحولت مذكراتها إلى مسرحية وإلى أوبرا ..

ومات الأديب النمساوى هوفمانشتال ..

ومات الزعيم الفرنسى كلمنصو ..

★ ★ ★

وفى سنة ١٩٢٧ :

مات الزعيم سعد زغلول ..

وولد الأديب الألمانى العظيم جنترجراس ..

★ ★ ★

وفى سنة ١٧٦٩ ولد :

الامبراطور نابليون ..

وولنجتون القائد الانجليزى الذى هزم نابليون فى موقعة ووترلو ..

★ ★ ★

وفى سنة ١٨٠٤ ولد :

الأديبة الفرنسية جورج صاند ..

والناقد الفرنسى سانت ـ بيف ..

والزعيم البريطانى درزائيلى ..

والفيلسوف الألماني الأعظم أيمانويل كنت

★ ★ ★

وفي سنة ١٨٠٥ ولد :

العالم الانجليزي العظيم داروين ..

والرئيس الأمريكي لنكولن ..

والأديب الأمريكي ادجاربو ..

والأديب الروسي جوجول ..

★ ★ ★

وفي سنة ١٨١٠ ولد :

الموسيقار شوبان ..

والموسيقار الألماني ليست ..

والشاعر الفرنسي ديميسيه ..

★ ★ ★

وفي سنة ١٨١٢ ولد :

الأديب الانجليزي : ديكنز .

وعملاق الصناعة الألمانية ، كروب .

★ ★ ★

وفي سنة ١٨١٣ :

ولد الفيلسوف الوجودي الدنماركي كيركجور

والموسيقار الألماني العظيم فاجنر

والموسيقار الإيطالي فيردي

★ ★ ★

وفي سنة ١٨١٨ ولد :

الشاعر الفرنسي بودلير ..

والأديب الروسي دستويفسكي ..

والأديب الفرنسي فلوبير ..

★ ★ ★

وفي سنة ١٨٢٨ ولد :

المسرحي النرويجي : إبسن.

والأديب الروسي تولستوي
والموسيقار الإيطالي روسيني ..

★ ★ ★

وفي سنة ١٨٣٢ ولد :
الرسام الفرنسي مانيه
ومحمد علي الكبير ..

★ ★ ★

وفي سنة ١٧٧٠ ولد :
الفيلسوف الألماني هيجل ..
والموسيقار الألماني بيتهوفن ..

★ ★ ★

وفي سنة ١٧٨٨ ولد :
الفيلسوف الألماني شوبنهور ..
والشاعر الانجليزي بايرون ..
والموسيقار الألماني باخ ..

★ ★ ★

وفي سنة ١٧٩٥ ولد :
الشاعر الانجليزي كيتس ..
والمفكر الانجليزي كارليل ..

★ ★ ★

وفي سنة ١٧٩٧ ولد :
الموسيقار الألماني شوبرت ..
والشاعر الفرنسي الفرد دفني ..
والشاعر الانجليزي شيلي ..
والشاعر الألماني هيني ..

★ ★ ★

وفي سنة ١٧٩٨ ولد :
الأديب الإيطالي ليوبردي ..
والرسام الفرنسي دلكروا ..

والفيلسوف الفرنسي أوجيست كونت ..

★ ★ ★

وفى سنة ١٧٩٩ ولد :

الأديب الفرنسي بلزاك ..

وأمير الشعراء الروس بوشكين ..

★ ★ ★

وفى سنة ١٨٠٢ ولد :

الأديبان الفرنسيان : فيكتور هيجو والكسندر ديماس

★ ★ ★

وفى سنة ١٨٠٣ ولد :

الأديب الفرنسي مريميه ..

والموسيقار الفرنسي برليوز ..

والناقد الألمانى هردر ..

والأديب الأمريكى امرسون ..

والمهندس ايفل الذى اقام البرج الشهير فى باريس سنة ١٨٨٩ ..

وتوفى : الشاعر الألمانى جيته

والفيلسوف الانجليزى بنتام .

★ ★ ★

وفى سنة ١٨٣٣ ولد :

الفرد نوبل صاحب الجائزة الشهيرة

والموسيقار الألمانى برامز .

★ ★ ★

وفى سنة ١٨٤٤ ولد :

الفيلسوف الألمانى نيتشه ..

والموسيقار الروسي : رمسكى ـ كورساكوف ..

والأديب الفرنسي اناتول فرانس ..

★ ★ ★

وفى سنة ١٨٤٩ ولد :

الأديب السويدى ستر ندبرج

والاقتصادى السوفيتى ليبرمان
ومات : الموسيقار شوبان
والأديب أدجار بو ..

★ ★ ★

وفى سنة ١٨٦٠ ولد : الأديب الروسى تشيخوف
والموسيقار النمساوى مالر
وتوفى : الفيلسوف شوبنهور .

★ ★ ★

وفى سنة ١٨٧٠ ولد : الزعيم الروسى الكبير لينين .
وتوفى : الأدباء ديكنز ، ومريميه ، وديماس الأب .
وفى سنة ١٨٧٤ ولد : الزعيم الانجليزى تشرشل ..
والزعيم الصهيونى حاييم فايتسمان .
والأديب الانجليزى : سومرست موم
والفيلسوف الألمانى كاسيرر
والموسيقار السويدى شينبرج
والشاعر الأمريكى روبرت فروست
والمخترع الأيطالى ماركونى

★ ★ ★

وفى سنة ١٨٨١ ولد :
الزعيم التركى اتاتورك
والزعيم الانجليزى : بيفن
والرسام العظيم : بيكاسو
وتوفى الأديب كارليل والزعيم دزرائيلى ..

★ ★ ★

وفى سنة ١٨٨٣ ولد :
الزعيم الإيطالى موسولينى ..
والزعيم الفرنسى لافال ..
الفيلسوف الالمانى ياسبرز

ومات : كارل ماركس والروائى الروسى وتورجنيف والموسيقار الألمانى فاجنر..

★ ★ ★

وفى سنة ١٩٣٤ ولد :
أول رائد للفضاء جاجارين
والنجمة الإيطالية صوفيا لورين
والنجمة الفرنسية بريجيت باردو .

★ ★ ★

وفى سنة ١٩١٠ :
مات تولستوى
وولد الأديب الفرنسى الوجودى جينيه
والأديب الفرنسى جان أنوى..

★ ★ ★

وفى سنة ١٩١١ ولد نجيب محفوظ ..
ومات الفيلسوف الألمانى دلتاى
والموسيقار النمساوى مالر .
والزعيم أحمد عرابى .
وحصلت العالمة الفرنسية مارى كورى على جائزة نوبل فى الفيزياء ..

★ ★ ★

وفى سنة ١٦١٦ توفى
الشاعر الانجليزى العظيم شيكسبير ..
وتوفى الروائى الأسبانى العظيم سرفانتس .

★ ★ ★

ويوم توفى الخليفة عمر بن الخطاب ولد الشاعر الرومانسى عمر بن أبى ربيعة.
فقال الناس بعد ذلك : لقد زهق الحق وظهر الباطل !
ويوم توفى نابليون القائد العظيم ولد بودلير الشاعر الرجيم .
ويوم اغتيل الرئيس كنيدى مات الأديب الانجليزى الدوس هكسلى .
ويوم أطلق الرصاص على سعد زغلول توفى الأديب المنفلوطى ..
ويوم مات طه حسين توفى د . حسن عثمان العالم الجغرافى الذى ترجم

«الكوميديا الالهية » للشاعر الإيطالى « دانته » ـ دون أن يدرى به أحد !
والمؤرخ الإيطالى ماركو دولاونته عندما كتب عن الشاعر الإيطالى بتراركه قال : لم تشأ الطبيعة أن تلد عظيما غيره سنة ١٣٠٤ .. ادخرت له هذا العام والأعوام التالية لينفرد بالعظمة .
ولكنه لا يعلم أن رجالا عربيا باهراً قد ولد معه هو ابن بطوطه !
ولكن هذه العبارة تدل على تفسيره للتاريخ : وهو أن القدرة الالهية .. أو الارادة التاريخية هى التى تصنع العظماء .. وتجعلهم واحدا فى سنة أو عشرة فى سنة .. أو عشرة فى قرن أو عشرة قرون ..
انه ـ إذن ـ لا يرى أن « الصدفة » هى التى جمعت هؤلاء العظماء معا .. لأننا لا نعرف كيف « تقرر » أن يظهر : العقاد وطه حسين والحكيم والمازنى وعبد الرحمن شكرى وسيد درويش ومختار وشوقى وحافظ ابراهيم وعزيز اباظة ومحمود حسن اسماعيل وناجى وعلى محمود طه وصالح جودت ورامى ويوسف وهبى ومحمد عبد الوهاب والسنباطى والأخوين رحبانى وأم كلثوم والسنهورى والتابعى ومصطفى أمين وعلى أمين ونجيب محفوظ واحسان عبد القدوس والسباعى وصلاح طاهر .. ثم اننا لا نعرف متى يظهر آخرون .. يملأون الفراغ الثقافى ..؟
وهل من الضرورى ان يظهر آخرون بنفس المقاس .. أو أن ظهورهم مرهون بظروفهم .. فكما أن لكل ظروف رجالا ، فلكل رجال ظروف .
ثم هل هناك « صدفة » فى التاريخ ؟
لا توجد صدفة !
.. وانما الصدفة هى عبارة عن : سلسلتين من الأحداث .. كل واحدة تمشى مستقلة عن الأخرى .. وفى وقت ما تصطدم السلسلتان . فتكون الصدفة ـ هذا رأى الفيلسوف الفرنسى كارنو..
ولكن يجب أن أوضح .. مثلا نفرض أن شخصا ينظر من طائرة هليوكوبتر وقفت فى سماء القاهرة .. ونفرض أنه يرى شخصا خرج من بيته من امبابة .. وهو يعلم مقدما أن هذا الشخص سوف يقطع المسافة من بيته إلى مبنى مجمع التحرير فى ساعة وثلاث دقائق وعشر ثوان .. ونفرض أيضا أن طوبة فوق هذا المبنى يحركها الهواء والمطر مليمترا كل يوم .. وأنه بناء على ذلك سوف تسقط بعد كذا دقيقة ..

وعند سقوطها فى الوقت المحدد لها ، أى فى الوقت الذى يجعلها تفقد توازنها وتسقط « يتصادف » مرور هذا القادم من امبابة .. هو يمشى فى حال سبيله لا يعرف شيئا عن الطوبة .. والطوبة تتحرك بانتظام لا علم لها طبعا بهذا الشخص .. وفى الثانية وفى المكان هبطت الطوبة فوق دماغة تماماً ـــ ومات !

الصدفة ـ إذن ـ لمن يرى حادث الاصطدام ..

ولكنه لا يعرف مسار الشخص ولا مسار الطوبة .. ولكن الذى ينظر من نافذة الطائرة .. أو الله سبحانه وتعالى هو وحده الذى يعرف كل ذلك ..

فهل هى صدفة ؟

الجواب : لا ..

ولكن لماذا تصيب الطوبة هذا الشخص بالذات ؟ لانه مقدر له أن يموت هكذا . فنحن لا نعرف إلا أن الطوبة وقعت فوق دماغه وإلا أنه مات ! .. وإلا أنهم قد ولدوا معا ، تعاونوا ، أو تقاتلوا .. ظهروا فى مسرحية اسمها : لعبة القدر .. أو القدر لعبتنا.. ثم تحدوا القدر أو استسلموا له ..

أو هل « الصدفة » أو « القاعدة » ان يظهر عظيم واحد فى أى وقت .. بل اثنان .. ثلاثة فى نفس العلم أو نفس الفن .. أو فى علوم وفنون مختلفة .. ثم ينحسر المد التاريخى .. ليرتفع بعد ذلك .. بعشرين سنة . بمائة .. بألف .. ويكون العظماء بأشكال وألوان وأحجام وأدوار أخرى سوف نرى !

إن شيئا عجيبا لا نظير له فى التاريخ قد وقع فى كل الدنيا فى ١٨٨٩ ..

لقد ظهر عظماء كثيرون يدفعون الحضارة الإنسانية بقوة العقل والوجدان ..

أو بقوة الدمار القائم على احدث ما اخترع العقل ..

أو بقوة الألم والندم على الذى كان والأمل العظيم الا يكون مرة أخرى ..

حاول معى ان ترى وتسمع وان تجد « خط سير » العظماء ..إلينا ومعنا وأمامنا إلى مالا نعرف من ابداع الحضارة الإنسانية ..

العقاد : بحر بلا انتهاء !

أستاذنا العظيم عباس محمود العقاد ، شغلنا عن العظماء من حولنا .. فلم نكن نرى غيره ، ولا نسمع سواه ، ولا النور إلا فى حضرته ، ولا الحكمة إلا عندما نسترجع ما قال وما يمكن أن يقول .. وشغلنا بالفلسفة عن الأدب ، وبفلسفته هو عن دواوينه وعن شعره نحب شعر شوقى وحافظ ومطران ـ والعقاد لا يحبهم ولا يرى لهم أية موهبة !

ولم يكن العقاد مجاملا فى ذلك .. ففى يوم جاءت شاعرة لبنانية جميلة والقت شعرا لها .. ولم يظهر الارتياح على وجه الأستاذ العقاد .. ثم جاء شاعر من اسوان والقى شعرا وظهرت البهجة على وجه الأستاذ . وكان لابد ان يفسر لنا ذلك فقال مشيرا الى الجميلة : أما أنت فنراك ولا نسمعك .. وأما أنت يا مولانا فنسمعك ولا نراك .. هاها .. هاها .

وكان الأستاذ فى منتهى القسوة ! وعندما كان الشعراء الشبان يبعثون اليه بقصائدهم باعتباره مقررا للجنة الشعر بالمجلس الأعلى للفنون والآداب . فكان يعيدها الى « لجنة النشر » ـ لأن هذا الشعر بلا قافية !

وعندما طلبوا إلى الأستاذ أن يشترك فى ذكرى مرور عشرين عاما على وفاة شوقى أمير الشعراء ، رأينا العقاد يجدد الهجوم على شوقى .. وبأنه شاعر زخرف ، وليس شاعرا له شخصية !

وتساءل الناس : ولكن شوقى قد مات !

وكان رد العقاد : ولكنى أراه ما يزال حيا فى أمثالكم . ولذلك لابد أن أعيد هجومى عليه !

وفى إحدى المرات جاء الشاعر الظريف محمد مصطفى حمام وقال للأستاذ

العقاد : سوف أسمعك شعرا لواحد من شعراء العراق لأعرف رأيك فيه يا أستاذ .

فأشار اليه العقاد أن يقول . فقال : إنها قصيدة في رثاء الموسيقار فردي الذي توفي سنة ١٩٠١ :

فتى العقل والنغمة العالمية ... مضى ومحاسنه باقية
يكاد على الماس يعض النحاس ... إذا ضم الحانة الغالية
وتبلغ موضع أوطارها ... وتفشي سريرتها الخافية
لقد شاب فردي وجاز المشيب ... و« عايدة » شبيبتها زاهية
تمثل مصر لهذا الزمان ... كما هي في الأعصر الخالية
ونبكي على عزنا المنقضي ... وننـدب أيامنا الماضية
فيا آل فردي نعزيكم ... ونبكي مع الأسرة الباكية
فقدنا بمفقودكم شاعرا ... يقل الزمان له راوية !

فأبدى الأستاذ اعجابه ببناء هذه القصيدة ومعانيها « ووحدتها العضوية » أي ترابطها وانسياقها كأنها كائن حي . وهي النظرية التي نادى بها العقاد هو وزميلاه الشاعران عبد الرحمن شكري وابراهيم المازني !

وإذا بالشاعر مصطفى حمام يتفجر ضاحكاً وهو يقول : ولكنها من نظم أمير الشعراء شوقي ! فيغضب العقاد وينهض واقفا وهو يقول : أخرج من هنا يا ابن الـ ... !

ويلقى الاستاذ العقاد من اهتمام النقاد أقل كثيرا جداً مما يستحقه كشاعر عظيم وناقد عظيم .. وهي مشكلة تقع لكل الموسوعيين من المفكرين . فالعقاد مؤرخ وناقد وشاعر ومفكر سياسي .. ولذلك احتواء العقاد صعب .. فليس كاتب قصة وكفى . ولا شاعرا فقط . ولا هو الناقد وحسب .. ولا هو المؤرخ للعبقريات والمحلل النفسي لها .. ولا الداعية الى التفسير السيكلوجي للتاريخ .. ولا عاشق البطولة في الادب والسيرة والتاريخ والفلسفة والشعر .. وانما كل هؤلاء . ولذلك كان من الصعب ان نضع عنوانا واحدا لكل الذي هو عباس العقاد !

غير ان كاتبنا الكبير ابراهيم عبد القادر المازني قد اختار به توصيفا آخر . وهو : البحر بلا انتهاء .

فهذا هو العقاد الشاعر والمفكر والمؤرخ والناقد .

يقول الأستاذ المازنى فى تقديم ديوان العقاد :

بحر بلا انتهاء .. موج فوق موج .. رغوة من ورائها رغوة .. وحركة فى أثر حركة .. ورياح مصطفقة ومد وجزر وضوضاء . كأنما انطلقت شياطين الأرض تعوى ، وكلام يصد العين عن النظر ، وسحب ترق وتكثف وتتفرق وتتجمع وتهضب ثم تقلع ، وامساء حالكة ، واصباح مشرقة ، وصخور نائية ورمال بليلة ، وسفائن ماخرة أو مغرقة ، ورعود مجلجلة ، وأغاريد هافية ، وأشاق تصفو ، وانجم تخنق ، ودر وأصداف وحصى وحجارة وأعشاب ثابتة ، وأحياء متصارعة ، وصور يختفى فيها الزائل فى ثنايا الثابت ، وتجتمع فيها الجنة والنار ، والحاشية الرقيقة ، والجوف الغائر ، والحاضر والماضى والسكون والحركة ، والفناء والخلود ، والبر والبحر ، والشرق والغرب ، والليل والنهار ، والشمس والقمر .. ويقول العقاد نفسه فى وصف ديوانه :

فيه من الحكمة والغباء وفيه من يأس ومن رجاء
وفيه من حب ومن بغضاء صورة محياى لعين الرائى !

ويقول العقاد أيضا :

والشعر ألسنة تقضى الحياة بها إلى الحياة بما يطويه كتمان
لولا القريض لكانت وهى فاتنة خرساء ، ليس لها بالقول تبيان
مادام فى الكون ركن للحياة يرى ففى صحائفه للشعر ديوان

ويقول المازنى :

« .. انى طلعت من شعر العقاد على نواحى كانت محجوبة عن عينى ، وانى وجدت فيه التعبير عما كنت احسه ، ولا أكاد ادرك كنهه .. وانما زدت للحياة فهما وبها شعورا وعلما » .

ويرى الأستاذ المازنى ان الحياة كانت سوف تبقى لغزا غامضا ، إذا لم يقل العقاد ما قال ..

والأستاذ العقاد يرى ان النهضة تبدأ بالشعر .. وبعدها تجىء النهضة العلمية . لأن الشعر هو فهم عميق للحياة ، والذين يفهمون الحياة ويذهبون الى أعماقها ، ثم ينقلون ذلك فى صورة جميلة هم أقدر الناس على تطوير الحياة وأدوات الحياة . ولذلك يرى الأستاذ العقاد أن الشعراء الانجليز هم أعظم الشعراء . لأن الانجليز أقدر الناس على فهم الحياة . ولذلك كانت قدرتهم

الفائقة في السياسة وفي التجارة .. وفي الشعر أيضا !

وهناك نوعان من الشعر :

شعر الشطارة .. شعر الذكاء .. اى البراعة في رسم الصورة الزخرفية .. والقدرة الفائقة على تقليد القدامى . وهذا هو شعر القشور .

وهذا الشعر كما ظهر يختفي . وكما بهرنا ببريقه ، فلن يدهشنا أفوله واختفاؤه .

وهناك الشعر الطبيعي أو الطبعي - أى الشعر الذى ينظمه الشاعر عن طبيعته .. عن أحساسه العميق بنفسه وبالدنيا حوله .

فالشاعر يترجم اعمق خلجاته . فهو الصدق وهو العمق . وهو لحم ودم . وليس مجرد صورة وزخرفة . هذا هو شعر الوجدان . وجدان الشاعر ، أى الشعر الشخصي . ولابد ان يكون الشاعر شخصيا .. أى تظهر ملامحه الشخصية في كل الذى يقول . ويرى العقاد ان أمير الشعراء شوقي هو نموذج للشعر الذى ليس شخصيا فشوقي قد ارتفع بالصناعة الشعرية ، وهبط بالوجدان الشعرى .. أنه شعر الابهة في الصياغة ، ولكنه شعر مجهول الناظم . !

ويلفت العقاد نظرنا حتى لا ننخدع بالشعراء الذين يصفون الطيارة والسيارة ويقول لنا : هؤلاء شعراء قدامى ، وان عاشوا في عصرنا .. لماذا ؟

لأنهم يقلدون الشعراء القدامى .. فالشاعر القديم كان يصف الجمل والحصان والصحراء والخيام ..

والشاعر الحديث يصف السيارة والطيارة والحقول .. فليس هذا شعرا ابداعيا وانما هو شعر تقليد .. أى ان الشاعر المعاصر عاجز عن أن يكون معاصرا ، فيرتد وينتكس ويقلد القديم في كل شيء .

فقط يضع السيارة مكان الناقة ، ويضع الطيارة مكان الفرس .

ولكن لو جاء شاعر من البادية ورأى الطيارة لأول مرة وحاول ان ينقل لنا ما الذى يراه والذى أدهشه والذى أثاره ، والذى اهاج خياله فراح يقارن بينها وبين الحصان ، فهو شاعر معاصر ولا شك .. لأنه اندهش وحاول ان يقول وان يعبر عن الذى يرى .

ولكن الشاعر المعاصر الذى يرى الطيارة ، فلا يرى إلا الحمار والحصان . فهو شاعر مقلد عاجز عن أن يكون معاصرا !

وإذا رأى الشاعر المعاصر ان الحصان أحسن من الطيارة ، وانه اجمل وأروع وان هذا هو رأيه الشخصي .. فهو شاعر مطبوع - أى شاعر صادق فى تعبيره عن طبيعته هو .. فمقياس الشعر الجيد ان يكون الشاعر صادقا فيما يقول : وان يكون الصدق هو مطابقة شعره لواقعه النفسى .. لوجدانه .. ولذلك كان اعجاب العقاد بالمتنبى وابن الرومى لا حدود له .. فهما نموذج رفيع للشعر العظيم .. شعر الوجدان .. للشعر الذى هو « بطاقة شخصية » دقيقة لكل منهما .

والمفكر العقاد هو الذى حولنا عن الشاعر العقاد . فلم يحدث مرة واحدة فى « صالونه » الأدبى الذى يعقد كل يوم جمعة ، أن قرأ أحد شعرا له .. أو حتى ناقشه .. لعلها مرة واحدة ، جاءت سيدة لا نعرفها ، واستأذنت فى ان تغنى للأستاذ العقاد . وغنت . واحمر وجه الأستاذ من البهجة والسعادة .. ولم ندر ما الذى نفعله هل نصفق .. هل نطلب منها ان تعيد وتزيد .. هل صحيح ما قاله بعض الزملاء من انه رأى دموعا فى عينى العقاد .. فلو حدث ذلك لكان اكثر من احتمالنا .. الأستاذ يبكى ؟ ! ! معقول ؟ وهل نطلب الى السيدة ان تغنى مرة أخرى لكى نتأكد من هذه الدموع ؟ وهل نسامح أنفسنا إذا كنا سببا فى بكاء الاستاذ ؟ أن أكثرنا قد تحاشى ان ينظر الى عينى الأستاذ .

وبسذاجة منا ، وحب عميق جدا ، لم نفكر مرة واحدة ان نقرأ للأستاذ شعرا .. أو نسأله عن المعانى الدقيقة والرقيقة لقصائده فى الغزل والعشق والعتاب ..

ولكن شعر العقاد ليس بعيدا عن نثر العقاد .. ففى نثر العقاد كل مزايا وصفات الشعر : العمق والصدق والقوة والجمال والاقناع .

ولكن أروع ما تعلمناه من العقاد هو التعطش الدائم الى الجديد .. هو الشهية المفتوحة على كل فكر وكل أدب .. هو : الانفتاح والتفتح فلا نمل أن نقرأ ولا نتعب أن نفكر ، وأن المفكر هو أعظم مخلوقات الله ..

ولذلك يجب أن نرفع رؤوسنا عالية .. فالله قد خلقها كذلك .. لا المال ولا الحياة ولا السلطة ولا الشهرة تشغلنا عن أن نجلس فى خشوع امام الحقيقة .. والحقيقة ليس لها مكان .. إنها فى كل مكان . وليس « صالون » العقاد .. إلا محطة لتزويدنا بالوقود .. بالزيت والهواء والطاقة والخريطة .. وتركيب عدسات أقوى وأكبر .. وانشغلنا بأنفسنا أيضا عن العقاد فأعظم تحية للعقاد هى ان

ننشغل به عنه .. ان ننشغل بأثره فينا نحن عنه هو صاحب الطريق والطريقة .

وكان شعارنا ما قاله العقاد مرة ، وما قلناه لأنفسنا ألف مرة .

ظمأن ظمأن لاصوب الغمام ولا عذل المدام ولا الانداء ترويني

حيران حيران لانجم السماء ولا معالم الارض فى الغماء تهديني !

ظمأن حيران .. لا شيء يروى ولا شيء يهدى .. فالذى نحتاجه كثير جدا حتى نرتوى .. والذى نحتاجه كثير جدا حتى نهتدى .. ويجب أن نظل هكذا الى الأبد .. فقد اخترنا ذلك . أو اختارنا القدر . أو أننا وجدنا أنفسنا هكذا .. محكوم علينا بالأفكار الشاقة المؤبدة ، مع الشغل والنفاذ !

ولم ينقش أحد على قبر العقاد ، أعظم المفكرين العرب ، هذه الأبيات التى التفت اليها تلامذته ومحبوه .. ولم يشأ الأستاذ العظيم أن يقول لنا : انقشوها .. أذكروها .. اذكرونى .. لعله وجد فى ذلك إهانة له واهانة لنا ، أن ينبهنا الى ما يجب أن نعرف من تلقاء أنفسنا . يقول العقاد :

إذا شيعونى يوم تقضى منيتى
وقالوا : أراح الله ذاك المعذبا
فلا تحملونى صامتين إلى الثرى
فإنى أخاف اللحد أن يتهيبا
وغنوا فإن الموت كأس شهية
ومازال يحلو أن يغنى ويشربا
ما النعش إلا المهد ، مهد بنى الوى
فلا تحزنوا فيه الوليد المغيبا
ولا تذكرونى بالبكاء وإنما
أعيدوا على سمعى القصيد فأطربا !

طه حسين :
في البدء كان الشعر !

كان حزني على الاستاذ العقاد عظيما .. ويبدو انني تحدثت عن ذلك طويلا وكثيرا حتى قال لى طه حسين : أنا لم أكن أعرف أن له تلاميذ مثلك !

فتضايقت وسكت ..

فعاد طه حسين يقول .. أو أن له تلاميذ !

فتضايقت أكثر .. ولكنى لم أعلق بشيء .. وسكت طه حسين .. ثم عاد يقول بصوته الهادىء وسخريته الرقيقة : اذن أنت نجحت ياسيدى .. فقد اختبرت احتمالك على المكاره ، فوجدتك قادراً على ذلك .. !

وكان ذلك نوعاً من الادب والرقة والسخرية وحسن التخلص والذكاء والدهاء وكان طه حسين أرق كثيرا من العقاد .. وكانت فيه ابوة عظيمة .. وفى كل مرة أزور طه حسين ازداد يقينا أن خسارتى فادحة . فأنا لم أعرف طه حسين الا متأخرا . لم أعرفه إلا كنوع من التمرد على الاستاذ العقاد الذى حجب عنا الكثير من الأدباء المعاصرين .. وفى مقدمتهم أديبنا العظيم طه حسين .. فلما عرفت طه حسين ، ولما عدت اقرأ لطه حسين شعرت بالخجل .. كيف لم أعرف ذلك .. كيف لم اكتشف هذا العظيم الاستاذ الثائر الباهر ؟ كيف ؟

وليس صحيحا أن العقاد هو وحده الذى يستطيع أن يمد يده إلى اعماق البحر فيأتى لك باللؤلؤ .. ولا هو وحده القادر أن يجعل نجوم السماء خواتم فى أصابعنا .. إن طه حسين يفعل ذلك .. إنه لا يمد يده إلى البحر .. وإنما هو يتقدم إلى البحر برفق ويلقى شباكه التى صنعها .. وينتظر ، ونحن معه .. ويخرج الشباك باللؤلؤ الذى يريد ..

إن العقاد يقرأ ويبحث ويعانى : ثم يطلع علينا بما اكتشف من المعانى .. وطه حسين يفعل نفس الشيء ولكن أمامنا : إنه يقرأ لنا ويفكر معنا ويطلع بنا

ومعنا وعلينا بالمعنى الذي يريد . ان العقاد مثل فولتير : يسخر منك أولا ثم يملى عليك قراره .

وطه حسين مثل سقراط يبحث معنا ويناقشنا ويسحق أفكارنا القديمة ، ثم تتولد المعانى الجديدة من الحوار معنا ..

قلت لطه حسين : ولكنك ياأستاذنا مختلف عن العقاد جدا فضحك وقال : أنا أقول انني اختلف عنه .. وهذا طبيعي .. وهو يقول : بل يجب أن نختلف .. فأنت ترى انه لا فرق بيننا ؟ ها .. ها

وإذا انت قرأت لطه حسين الآن فسوف يبهرك هذا الرجل العظيم بجمال عباراته .. وسهولة تفكيره ووضوحه .. ويجب ألا تضيق به وهو يدور حول المعانى .. إنه يعرض عليك كيف اهتدى وكيف يهديك فى نفس الوقت .. إن اسلوب طه حسين هو البحث عن المتاعب .. البحث هو الاسلوب .. والمتاعب هى الهدف .. والاصلاح هو الغاية من كل ذلك .. فهو يبحث أمامك وبك ومعك .. وهو الرجل العارف تماما .. ومتاعب طه حسين هى مناهج البحث فى الفكر المصرى كله .. وكانت ثورة طه حسين على مناهج البحث ـ وطبيعى أن يبدأ طه حسين بنقد المنهج ـ فهو ابن الحضارة الفرنسية المخلص .. ولكنه الأديب العربى دائما .. وهو الذى ذهب إلى أوروبا ليوظف أوروبا كلها فى اكتشاف عبقرية الشعر العربى والفكر العربى وإذا أنت تذكرت ما الذى أدى اليه اكتشاف العالم الفرنسي شامبليون ، فطه حسين قريب من ذلك .. شامبليون اكتشف لنا حجر رشيد ، فاكتشف لنا الاهرامات .. فقد كنا نراها ولا نعرف ما هى .. وطه حسين اكتشف لنا الادب العربى شعرا ونثرا . كنا نراه ونمر به ونتوقف عنده ونلعنه ، ولا نعرف جوهره ورسالته وعمقه وعبقريته .. طه حسين اكتشفنا لانفسنا ..

طه حسين يرى التطابق التام بين الحضارة العربية والحضارة الاغريقية .. ففى البدء كانت البداوة ، كانت الجاهلية .. وفى الجاهلية كان الشعر .. فى البدء كانت القصيدة .. وفى القصيدة كانت الفلسفة والدين والعادات وكانت المخاوف والآمال .. فالشعر هو أول مظهر من مظاهر الحياة الاجتماعية القوية عند هذين الشعبين .. ولولا الشعر والشعراء عند الاغريق ما ظهر فلاسفة من مثل سقراط وارسطو وادباء مثل اسكلوس وسوفوكليس .. لولا شعر هوميروس ما كان هؤلاء الفلاسفة ففى شعر هوميروس كل المعانى والرموز .. وكل الآمال والطموحات

فقد كان هوميروس هو الكنز العظيم الذى أقبل عليه الفلاسفة يلتقطونه ويقرءونه ويحللونه ويرون فى هذه الاشياء الصغيرة صورة للكون العظيم .. لولا امرؤ القيس والنابغة والأعشى وزهير ما عرفنا بعد ذلك مبادىء الحياة والاخلاق واصول العلاقات الاجتماعية ..

والفرق بين الاغريق والعرب هو أن حضارة العرب كانت للعرب .. ولم تذهب إلى أبعد من ذلك .. وحضارة الاغريق أثرت فى الاغريق والرومان والعالم كله وأثرت ايضا فى الحضارة العربية .

ولكن عندنا مشكلة .. هذه المشكلة عالجها طه حسين فى سبعين عاما : كيف نقرأ أدبنا ؟ كيف نفهمه ؟ كيف نتذوقه ؟ ومن هؤلاء الذين افسدوا علينا تاريخنا ويعملون جاهدين على أن نتعاون فى دفنها ووأدنا أيضا ..

يرى طه حسين أن هناك مدارس فى النظر إلى الادب العربى : مدرسة الأزهر التى تنظر إلى الشعر كما كان ينظر علماء النحو والصرف فى البصرة والكوفة .. مع نقد عنيف لكل ما قال الشعراء ـ لابد من النقد .. وإلا كان استاذ الادب لم يأت بجديد .. فالجديد هو أن يهدم وأن يدمى ويتعلم الطلبة على يديه براعة الهدم والتجريح .. فالأدب كله ضحية .. ذبيحة يتبارى الاساتذة جميعا فى الاجهاز عليها ..

ومدرسة المستشرقين بزعامة الاستاذ الايطالى كارلو نلليثو .. وهم يدرسون الادب وتاريخ الأدب كما يفعلون فى بلادهم .. يدرسون الأدب والاجتماع والسياسة والعادات والتقاليد معا ، ويوزعون الاضواء فى كل مكان ..

ثم مدرسة شريرة فاسدة هى مدرسة دار العلوم .. واساتذة دار العلوم هم الذين يؤلفون كتب المدارس الثانوية أيضا .. فهم يخطفون معلومات عن حياة الشاعر من هنا وهناك ، ثم يختارون بعض الأبيات .. وأسوأ من ذلك ينشرون شيئا يخجلون أن يقولوا أنه كتب .. فهم يلخصون الكتب ويوزعونها على التلاميذ .. ويسمونه .. التلخيص أو التهذيب .. ويفرضون على التلاميذ أن يحفظوا ذلك .. المهم أن يرددوه .. فلا قرأوا ولا فهموا .. ولا تذوقوا .. وانما هم حريصون على ان ينقلوا هذه الصورة المشوهة للشعر والادب .. ومن الغريب أنهم يسمون هذا المنهج ـ ان كان منهجا ـ ادب اللغة العربية .. أو تاريخ أدب اللغة العربية ..

فما العلاج ؟ لقد وجد طه حسين العلاج منذ اكثر من ثمانين عاما .. فكل

الذى نقوله اليوم من علاج الكتب المدرسية ، لا يخرج عن الذى قاله طه حسين .. فقد كان اسبقنا إلى معرفة المرض ومن أين جاء والدواء وكيف نتناوله واين يذهب فى جسم اللغة والأدب والنقد ..

قال طه حسين : العلاج هو أن نحبب إلى طلاب المدارس قراءة النصوص العربية وفهمها .. ثم نقرب إليهم هذه النصوص ونحسن اختيارهم .. وليس صحيحا ان الأدب العربى جاف عسير الهضم إنه على عكس ذلك : سهل يسير لذيذ ..

والعلاج أيضا إعداد المعلمين الذين يعلمون اللغة العربية .. فليس فى مصر أساتذة لهذه اللغة ، لا من حيث أنها أداة للتعبير ووسيلة من وسائل البيان . أو مظهر من مظاهر التاريخ ..

أما الخيط الذهبى فى كل ما كتبه طه حسين فهو : حرية النقد .. وحرية الرأى .. وضرورة الاصلاح .. وأن الاصلاح قد آن أوانه .. ولذلك يجب أن نبدأ فورا .. وقد بدأ طه حسين .

وعندما كنا نقارن بين العقاد وطه حسين والحكيم نقول : المفكر العقاد والاديب طه حسين والفنان الحكيم .

ولم يكن ذلك تعريفا دقيقا .. فالعقاد كان أديبا أيضا .. وطه حسين مفكر دائما ، والحكيم اديب مفكر ..

وكان العقاد : أقوى وأعنف « وطه حسين أرق وألطف » والحكيم اخف وأظرف ..

وبسرعة تكونت علاقتى القوية بطه حسين وقد شجعنى طه حسين على أن احدثه فى التليفون وأن ازوره ما وجدت الى ذلك سبيلا ــ وهذا تعبيره ايضا .. وكان يعنى ما يقول .. وفى كل مرة أعتذر عن طول الزيارة . كان يردنى قائلا : كانت متعتى اعظم ياسيدى ..

منتهى التواضع والابوة ..

وكان من السهل أن نحب طه حسين ، كما كان من السهل أن نكره العقاد وطه حسين لم يقصد أن نحبه ولكنك لا تملك إلا أن تحبه والعقاد لا يريدك أن تكرهه ، ولكنه لا يستطيع أن يمنعك من ذلك ..

وفى يوم سألنى طه حسين .. وماذا تريد لحياتك ياسيدى ؟

قلت : أن أتفرغ لدراسة الفلسفة ..

قال : أنت مهيأ لذلك ياسيدى ولكن يجب أن تفرغ بسرعة من التأثر بأساتذتك ، وأن يكون لك رأى وموقف .. حتى ترى بعينيك أنت ، وتلمس بيديك أنت .. وأن تختلف بسرعة معهم ..

قلت : نعم ياسيدى .. لأنك مختلف .. وبداية الاختلاف ليس الخلاف معهم .. وانما أن نقف بعيدا عنهم وأن ترى من بعيد .. أين انت وأين هم .. وأين زمانهم وما زمانك .. وأن تتحلل بسرعة من الاعجاب الزائد الى الاعجاب فقط . ثم الاعجاب مع التحفظ .. ثم تفرغ من التحفظ لتقول .. كما قال سقراط : تكلم حتى أراك .. يجب أن تتكلم بلسانك انت وبوجدانك أنت حتى نراك .. نلتفت اليك .. وإلا فأنت مدرس أضيف إلى عشرات المدرسين .. وإلا فأنت درويش ذاب فى لجة الدراويش .. !

وقلت : ياأستاذ إننى لم أسمع مثل هذا الكلام من استاذنا العقاد .. وكيف وصلت الى هذا اليقين وانا لم اتحدث اليك طويلا ..

أجاب ـ وكانت هذه العبارة نقطة تحول فى حياتى كلها : لسبب بسيط جدا ياسيدى .. إننى اسمعك ولكنك تسمع العقاد .. إننى اراك ولكن العقاد لا يراك .. إن رسالتى فى التربية لم تنته .. والعقاد ليست له رسالة فى التربية .. فهو الاستاذ الذى لم يتخرج على يديه الا تلميذ هو العقاد .. اما أنا فأرى من الضرورى أن يظهر تلامذة يكملون دورنا النقدى فى الأدب المصرى الحديث ..

ثم قال ياسيدى إنك لم تتكلم .. لقد تكلمت منذ يومين عن الفلسفات الوجودية الالمانية والفرنسية والايطالية والاسبانية والروسية .. وأعجبتنى قدرتك على التفرقة الدقيقة بين هذه المدارس .. فلما جاءنى استاذك وتلميذى عبد الرحمن بدوى نقلت اليه ما سمعت منك .. فأيدنى فى انك انت التلميذ الذى يستطيع أن يقف الى جوار اساتذته ثم يتقدم عليهم .. أنت مؤهل لذلك ياسيدى .. !

ما الذى قلته ياأستاذ الاساتذة ؟ ما الذى دخل اذنى واستقر فى قلبى وعقلى ؟ ما هذه الدماء الجديدة .. ادخلتها فى عروقى .. ما هذه الضياء الباهرة اشعتها فى كل شىء .. لو عرفت ياأستاذ الاساتذة ما الذى فعلته كلماتك .. ما الذى أحدثه صدقك .. ما الذى خلقته أبوتك ؟ ! أنت لا تعرف ياسيدى .. فقد اعتدت بعظمتك وتواضعك واستاذيتك على ذلك .. ولكنى ما سمعت قبلك ولا رأيت مثلك .. ياقامة عارى : ففى كل مرة اتذكر طه حسين اشعر بخجل لا حد له .. كيف لم اره أوضح .. كيف لم اسمعه اعمق .. كيف لم اتحول إليه

نهائياً .. كيف تأخرت هكذا في المثول بين يديه .. انه العمى والصمم الذى اصابنا فاحتجت صوتا وصورة ودفئا .. يأمن كل كلماته احضان ، يأمن كل لمساته أمان .. يأمن كل جلساته عناية مركزة .. ولما طال صمتي واحس طه حسين انني لا اتابعه قال في غاية الادب : لقد ارهقتك اليوم ياسيدى .. موعدنا غدا ..وموعدك مع ابناء جيلك بعد غد .. !

وعندما كتب طه حسين « قادة الفكر » كان لابد أن يتقدم للقراء بمنهج في الدراسة .. لابد من المنهج .. يرى طه حسين أن هناك منهاجين لدراسة المفكرين : منهج يرى أن المفكر هو كل شيء .. هو جبل متربع على هضبة هي الناس .. هو البارز القوى هو الضوء .. هو الجهات الاصلية .. هو الشمس والقمر والظلام والعواصف .. هو القادر على كل شيء .. وغيره لا شيء .. وغيره هو المجتمع .. !

ومنهج يرى أن المجتمع هو التربة التي يخرج منها .. المجتمع هو الأرض والماء والهواء والشمس .. وكما يكون « الجو » يكون هذا النبات .. فالقطن نبات المناطق الحارة .. والبلوط نبات المناطق الباردة .. فالمفكر لا ينفصل ، ويستحيل أن ينفصل عن المجتمع .. والمجتمع هو صانع الافراد .. يصنعها على صورته ، وعلى هواه ووفقا لضرورته ..

ويقول طه حسين كلا المنهجين مسرف وخاطيء ..

ولكن دراسة الفرد ودراسة المجتمع الذى أظهر الفرد أو ظهر فيه الفرد ، ضرورى أيضا ولابد من الاعتدال بين الطرفين .

ولذلك كان طه حسين يعيب على أستاذنا العقاد دراسته للشخصيات وخصوصا سلسلة « العبقريات » محمد صلى الله عليه وسلم وعمر وابو بكر وعلى رضى الله عنهم . وكان نقد طه حسين للعقاد عنيفا عندما ظهر كتاب العقاد عن « أبي نواس » .. فالعقاد يعتمد عادة على الدراسة التحليلية لنفسية الشاعر أو البطل .. ولذلك استخدم العقاد في دراسته لابي نواس كل مصطلحات علم التحليل النفسي عند فرويد ويونج وادلر .. كل ذلك لكي يفهم أبا نواس ويجعلنا نشاركه هذا الفهم ايضا ..

ولكن طه حسين يرى أن العقاد قد أسرف على نفسه وعلينا أيضا .. وكان العدل يقتضيه أن ينظر الى ابي نواس مرة ، والى مجتمعه مرة أخرى ويوازن بين الشاعر وبيئته ، بين أسلوبه ولغة عصره .. وكان من رأى طه حسين أنه

يمكن للقارىء أن يضع إسما اخر لابى نواس .. أي اسم .. لان العقاد قد انشغل بمرض ابى نواس وحشد له الدنيا كلها ليؤكد أنه مريض .. مع أن الشاعر لم يكن فى حاجة الى هذا الكونصلتو من الاطباء بزعامة العقاد .. فالشاعر معترف .. وليس وحيد زمانه فى ذلك .. فطه حسين يرى ان البداية هى شعر الشاعر .. لان الشعر قد بدأ من أعماق الشاعر .. واتجه به الشاعر الى الناس فى زمانه . !

وغضب العقاد من نقد طه حسين .. واذكر انه طلب مني ان انقل الى طه حسين : ان العقاد من رأيه انه لم يخلع العمامة عن رأسه .

يقصد ان طه حسين قد سافر الى فرنسا وتعلم ونقل الينا الذى تعلمه ، ثم عاد يرتدى عمامته بعد أن نسى الذى تعلمه .. ثم لايريد أحدا أن يتعلم أو يقول غير الذى قال والذى رأى ـ منتهى القسوة من العقاد ـ فليس شىء أبعد عن طه حسين من مثل هذه العبارة الجارحه . !

وبعد وفاة العقاد استأنف طه حسين الهجوم عليه فى برنامج أعددته له فى التليفزيون .. وذهب الى أبعد من ذلك فقال ان حفيده لم يفهم كتاب « عبقرية عمر » المقرر على طلبة الثانوية العامة .. وانه يرصد مكافأة مالية لمن يفهم هذا الكتاب ـ أى يفهم اسلوب العقاد فى التفسير النفسى للتاريخ .. او التفسير البطولى للفكر الانسانى كله . !

ولم أكن من راى طه حسين واعترضت بعنف فى مقالات نشرتها فى « أخبار اليوم » ثم ذهبنا الى طه حسين خمسة من دارسى الفلسفة والادب والنحت والموسيقى وسألنا طه حسين عن اسمائنا اكثر من مرة .. وعن تخصصاتنا وأسعده ذلك .. وقال لنا أنه كان يقرأ الرسام العظيم دافنشى .. وهو أديب وشاعر ورسام وموسيقار ومخترع وعظيم ايضا ..

وتمنى لو كانت لديه كل ما لدينا من معلومات متخصصة ليتذوقه اكثر وأعمق .. وهى تحية بليغة لرجل عظيم التواضع ..

وكان طه حسين يستأنف ما دار بينى وبينه فقال : إننى لم أطلب اليك أن تتجرد تماما من ملابسك القديمة .. يجب أن تستبقى بعضها .. لتعرف كيف كانت البداية .. لقد كان استاذك العظيم الفيلسوف الالمانى كنت يحب النظر الى الخرائب لكى يفكر فى بنائها او يتخيل ذلك .. وقد اقام صرحا فلسفيا لم يبلغه أحد من قبله .. أو من بعده .. هناك ياسيدى ما يمكن أن تتخلص منه بسرعة ..

الكثير من الاسماء والنظريات .. إنها جميعا إنتقالية .. إنها تشبه التربزين الذى نستند اليه صغارا ونحن نصعد السلالم .. ولكن يجب ان تبقى السلالم والابواب والنوافذ .. وبراعتك هى فى إعادة تأثيث البيت الفلسفى والادبى .. هذه هى البداية .. وسوف يبقى .. لونه .. رائحته .. الحنين اليه .. والشاعر القديم قد وجد عذرا لمحبوبته التى لم تزره فى الليل : جبينها الذى يضىء فى الليل .. والحلى الذهبية التى لها صوت يسمعه الناس ، ثم عطرها .. ثم عاد الشاعر القديم يقول : نفرض أنها استطاعت أن تغطى جبينها المضىء بجانب من ثوبها ، ثم إنها نزعت ما فى يديها من حلى حتى لا يسمعها أحد .. فكيف تمنع النسيم أن ينقل رائحة عرقها .. قال الشاعر القديم واظنه إذا لم تخنى ذاكرتى انه ابو المطاع بن ناصر الدولة

ثلاثة منعتها من زيارتنا
وقد دجا الليل ، خوف الكاشح الحنق :
ضوء الجبين ووسواس الحلى
وما يفوح من عرق كالعنبر العبق
هب الجبين بفضل الكم تستره
والحلى تنزعه ما الشأن فى العرق ؟ !

والعرق هنا ياسيدى هو الجهد العظيم الذى بذلته فى الدرس والمقارنه والتمرد على الذى لم يعد يقنعك .. هذه المعاناة سوف تبقى معك وسوف تبقى بك .. وتتبعك ياسيدى .. فتوكل على الله !

يرحمك الله ياسيدى !

المازني
أول أديب وجودي !

الفرق بين الاربعة ، عباس العقاد وطه حسين وتوفيق الحكيم وابراهيم المازني

العقاد : يحاضرك ..
طه حسين : يحدثك ..
توفيق الحكيم : يداعبك ..
ابراهيم المازني : يسخر منك ومن نفسه ..

فكان المازني أسوأهم حظا واقلهم اهتماما من النقاد والمؤرخين . مع أن المازني كان أرقهم واعمقهم وأسبق من زمانه .. فإذا كان في أدبنا الحديث كله واحد يمكن أن يوصف بأنه الاديب الوجودي فالمازني هو الشخص الوجودي والاديب الوجودي دون أن ينازعه أحد في ذلك ..

كما أن الشاعرة جليلة رضا هي الشاعرة الوجودية الوحيدة في الشعر العربي في كل العصور ..

ولا أذكر أنني رأيت الأستاذ المازني في « صالون العقاد » ولكن كثيرا مايرد اسمه فيضحك الأستاذ العقاد ويقول :

أنه شيطان .. واذا جاء اسم الحكيم ضحك وقال : انه تاجر شاطر ..
ويضحك الأستاذ وأصدقاؤه الاكبر منا سنا .

ويوم قدم الأستاذ العقاد صديق عمره الأستاذ المازني ليكون عضوا في المجمع اللغوي القى بحثا عظيما وصف فيه المازني بالعبقرية نثرا وشعرا . فذهبت أبحث عن المازني لكى أحصل منه على صورة نضعها مع مقال الأستاذ وأيامها كنت أعمل محررا أدبيا في جريدة « الاساس » وقال لي الأستاذ المازني : نلتقى على سلم جريدة الأساس .

وأنتظرته على السلم وجاء قصيرا يعرج بوضوح . وأخرج الصورة من جيبه وانصرف . وفي صالون العقاد قلت : شيء غريب ياأستاذ .. لقد أعطاني المازني صورة له .. ووجدت على ظهر الصورة هذه العبارة : هذه الصورة بناء على طلب الاستاذ أنيس منصور !

وكأنني ألقيت قنبلة مسيلة للدموع فضحك العقاد وزكي نجيب محمود وصلاح طاهر وعلى أدهم وعبد الرحمن صدقي وفؤاد الاهواني . ومع الضحكات غمز ولمز . ولم أفهم . ولم يشأ أحد أن يقول ما الذى أضحكهم على المازنى بهذه الصورة العصبية !

ويرى الأستاذ العقاد أن المازنى شاعر عظيم . وأنه عرض ودار وحلل الكثير من المعانى الفلسفية فى شعره .. وأنه أضاف السخرية إلى كل ذلك .. فكأنه لم يكتف بالجديد وأنما أضاف إلى هذا الجديد لمعانا من النكتة والسخرية . لاتدل على السعادة وإنما على اليأس من هذه الحياة والاحياء .. ومن نفسه أيضا ..

ولم يكن المازنى غزير الانتاج مثل الأستاذ العقاد . ولكن القليل الذى كتبه المازنى نثرا يستحق عظيم الاهتمام والتقدير .. فالألوان التي استخدمها هى الأسود والأزرق الغامق والفاتح .. هى اليأس والحزن والرومانسية . فما الذى أحزن المازنى على نفسه وعلى الناس ؟ ما الذى أيأسه من الدنيا وأن يكون له دور فيها ؟ وما جدوى أن يقول وأن يقال ..

الأستاذ المازنى تركيبة نفسية دقيقة . وهو مثل كل الاجهزة الدقيقة : معقد التكوين ومثل نسيج الحرير ، دقيق العقد .. حتى ليخيل إليك أن الحرير بغير عقد .. فهو منذ سن مبكرة أحس أنه ضئيل الحجم بينما أخوة له وأقارب أطول وأعرض وأجمل شكلا .. حتى أن والده كان يخاف على أخ له من الحسد .. أما المازنى فلا خوف عليه ولا خوف منه .. كأنه لاشىء .. أو كأنه أسوأ شىء .. ثم أن المازنى سقط فانكسرت ساقه .. فهو القزم الاعرج .. وكان حجمه الضئيل يجعله مثل الصفر اذا سار إلى جوار رقم : ١ الذى هو العقاد .. وكان الناس يسمونهما معا : العشرة !

فإنه يقبل أن يكون صفرا على يمين العقاد صديقه وحبيبه ومثله الأعلى ، ولكن يرفض أن يكون كذلك إذا ماقورن بأى انسان آخر ..

وأصبح العائق الأول فى حياته أنه ضئيل الحجم والعائق الثانى أنه أعرج .. أما العائق الثالث والرابع ففى أعماقه هو : فهو فى حالة من الفزع الدائم .. خائف على نفسه من الناس .. خائف من الزحام .. خائف من الظلام .. خائف إذا انفرد بنفسه أن يموت .. خائف اذا زاحم الناس أن يسحقوه . فهو خائف عام ..

يحكى لنا المازنى عن تلك الحارة التى كانت تنتهى إلى بيته .. مظلمة ضيقة

رطبه .. يدخلها الناس بصعوبة .. لايمكن أن يدخلها اثنان فى وقت واحد .. ويحكى المازنى أنه أحس فى أحدى المرات وهو يتسلل خائفا من هذه الحارة أنه ارتطم بجسم امرأة وأنه أحس صدرها ، وانها احتضنته حتى وصل إلى باب بيته ولم يجدها بعد ذلك .. كان يحس أن هذه الحارة ليست إلا مصارين حيوان مخيف .. حيوان خرافى . ولكن الخوف حقيقى . والفزع عضوى . وأن الطريق خارج البيت كالطريق إلى البيت : طريق العذاب .. اذا سار فيه ، واذا فكر !

ويقول المازنى أيضا أن طريقه كان على المقابر ليلا فسقط فى مقبرة فوق عدد من الجثث .. وأحس باللحم والعفونة .. وكان خوفه عظيما .. حتى ليقال أنه مات من الخوف .. أو لقد تحول الموت الى خوف حى .. أو تحول الخوف الى موت يسترده قطعة قطعة .. عصبا عصبا ، حتى أنتهى — !

وكان المازنى أكثر صراحة من الفيلسوف الوجودى كير كجار الذى كان أحدب الظهر .. ولم يشعر هذا الفيلسوف بهذا العيب الخلقى إلا عندما تقدم لخطبة الفتاة رجينا .. هنا أحس انه بعقله أعظم الناس ، وبجسمه أحقرهم .. وان المرأة تريده جسما بلا عقل ، وان عشيقته التى هى الحقيقة تريده عقلا بلا جسم . فرفضته رجينا ، وارتضته الحقيقة .. ولكنه لعن الاثنين معا !

اما المازنى فكان أسبق الناس إلى السخرية من حقيقته هو .. وإلى وصف حريته وعذابه وهوانه .. فهو يصف نفسه كيف انتصر وطال انتظاره ووقف وتكلم وسوى ملابسه ومسح جزمته فى بنطلونه حتى خيل إليه : ولماذا لاأرى وجهى فيها .. ولكنه خاف أن تراه المحبوبة فتضربه بالجزمة !

ونضحك مع المازنى عندما يحدثنا عن رجل بقال عنده حمار . وهو يعلم الحمار كيف ينهق . ولا يعجبه نهيق الحمار فيصرخ فيه : هكذا يابهيم ـ ثم ينهق أحسن من الحمار !

والاستاذ ابراهيم عبد القادر المازنى كان أسبق أهل زمانه فى الاحساس بعبثية الحياة .. وجاء شعوره هذا بعد الحرب العالمية الثانية .. وهذا العبث هو الذى جعله يشعر بمنتهى العمق بأنه لا وسيلة للقضاء على القرف وسوء الظن إلا بالحوار .. بالكلام .. بإقامة الجسور .. بأن يكون هناك تعبير وعبور .. ولا سبيل للقضاء على الشعور بالغربة ، الا بخلق قرابة وقربى بين الناس ..

وكان المازنى واحد من الحواة .. فهو لابد أن يلفت الناس لكى يلتفوا حوله . فإذا فعلوا ، وراح يحدثهم عن نفسه وعن أنفسهم .. فالسخرية عند المازنى هى

نوع من اعداد الناس لكي يشعروا ولو لحظة واحدة أنهم أسمى وأعلى من الكاتب .. فالكاتب قد أنحنى لهم لكي يبدو أطول وأعرض وأعقل .. وبعد ذلك يقول ويقول .. ومما يقوله لهم : أنهم أيضا يستحقون السخرية .. وأنه وأنهم أطراف هذه المهزلة التي هي حياتنا . والتى لافرق فيها عند اليأس والبؤس والموت بين الانسان والحيوان .

يقول شوقى : إذا ما نفقت ومات الحمار ابينك فرق وبين الحمار ؟ !

ويقول المازنى أن اسماعيل عليه السلام الذى « فديناه بذبح عظيم » قد مات تماما كالكبش الذى ذبحه أبوه ابراهيم فداء له . ويرى العقاد أن هذه الأبيات هى أروع وأرق وأجمل وأعمق مانظم المازنى :

ياأم لاتجزعى بما يحيق .
من الخطوب ، ولا تأسى لما فاتا .
تمضى المقادير فينا الحكم عادلة .
ويقسم الله أرزاقا وأقواتا .
وكل ضائقة تعرو الى فرج .
وأن لليسر مثل العسر أوقاتا .
ضل الذى يرتجى تأخير قسمته .
قد مات كالكبش اسماعيل قد ماتا !

ولا أظن أحدا فى الادب المصرى الحديث قد تناول مشكلة « الصلة » و « الاتصال » و « العبور » إلى الناس ، كما فعل المازنى بصدق وعمق .. وهى مشكلته هو فى المقام الأول .. ولا أظن أحدا أنتهى إلى ما أنتهى إليه المازنى ، وما أنتهى إليه أدباء العبث فى فرنسا فى الخمسينات والوجوديون فى الستينات والمسرح المصرى ابتداء من السبعينات حتى اليوم .

ويرى المازنى أن « الجوامد » الأدبية هى واحدة من العوائق بين الناس .. وهذه الجوامد .. هى القوالب الجامدة والتعبيرات البالية التى أكتسبت مذاق القداسة عند الأدباء الذين لم تتسع أفاقهم ، فلم يقرأوا ولم يتذوقوا الآداب العالمية الأخرى .. وهذه « الجوامد » هى طوب يقف فى حلق المتحدثين ، وجنادل تعترض أنسياب الشعر الحديث .. شعر الوجدان .. وشعر « الديوان » ـ أى شعر مدرسة عبد الرحمن شكرى والعقاد والمازنى . ولذلك كان المازنى أسبق الجميع إلى التخلص من هذه المعوقات . فكانت لغته أسهل .

وأقرب إلى العامية ، وإن لم تكن كذلك .. وكان هدف المازنى أن يصل إلى مشاعره دون وساطة .. دون تدخل من اللغة بتراكيبها المختلفة .. فهو لاينتظر الالفاظ حتى ترتدى زيها الرسمى العباسى أو الجاهلى وتقف صفا واحدا لتمشى فوقها أو تئن تحتها المعانى والمشاعر الانسانية الشخصية .. ولكن المازنى كان يذهب الى المعانى بملابسه العادية .. لا حواجز ولا فواصل دون أن يستأذن من السادة : الخوف والرعب والقلق والموت ، فيقول : تسمح لى اشعر بك .. هل تأذن لى أن أتحسسك .. أرجو أن أتجرعك ـ أبدا لاشىء من ذلك .. فالمازنى قد ذاق وتجرع كل هذه المعانى ، وليس أسهل عليه من أن ينقلها وأن ينقل نفسه إلينا .. وينقل أدق وأرق المعانى فى أسلوب جميل فريد فى كتبه « ابراهيم الكاتب » « وإبراهيم المازنى » و « عود على بدء » و « حصاد الهشيم » و «قبض الريح » و « خيوط العنكبوت » و « فى الطريق » ـ ومن عناوين هذه الكتب ترى اليأس فى الطريق . . أو بحثا عن طريق إلى نفسه وإلى نفسك !

وقد عاش المازنى ومات وهو يمسك الريح وينسج عش العنكبوت أو هو فى سبيل ذلك .. أى أنه لم يصل إلى شىء .. ففى كل مرة يؤكد لنفسه أنه أستطاع ، ليكشف أنه توهم ذلك ..

فالذى يكسبه يخسره ، والذى يراه صديقا يكتشف أنه عدو .. يقول المازنى :

أكلما عشت يوما
أحسست أننى مته
وكلما شمت خلا .
وجدت أنى فقدته :

والمازنى يرى أن الكاتب أو الفنان يجب أن يكون على يقين من أنه ناقص وسوف يبقى كذلك .. وعلى الكاتب أن ينصرف أهتمامه بالكمال .. فالكمال لله .. ويرى المازنى أن الخوف واليأس والاعجاب هى كيمياء مشاعر الانسان اذا رأى البحر والجبال والسماء .. فكلها صور من الجلال : أى الجمال والخوف واليأس ولذلك فمشاعر الفنان كلها خليط من البطولة والتعاسة .. هو يصارع ويقاوم ويضحى . فهو البطل .. ولكن الذى يحاوله صعب والذى يبلغه قليل . والعمر قصير . والناس لايشعرون به ـ فهذه هى التعاسة !

ورد فعل ذلك عند المازنى هو السخرية . فالسخرية ليست إلا نوعا من الحزن

الخفى .. حزن على نفسه وعلى الناس الذين لايدركون ذلك .. وإذا أدركوه لم يفهموه . وإذا فهموه يكون الكاتب قد مات !

ولذلك لم يكن المازنى رقيقا عندما هاجم الأديبة مى زيادة .. وكانت عبارته الشهيرة القاسية جدا : أن الآنسة تكتب وكأنها تخاف أن يفوتها شىء ! .

مع أنه سوف يفوتها ويفوتنا الكثير . وهذا طبيعى .. فالذى يفوتنا هذه المرة تعود اليه بعد ذلك ..

فنحن نطارد الحقيقة .. ونراها عن قرب وعن بعد .. وقوفا ونياما .. وخائفين وقلقين ، ويائسين وفرحين .. ولكن الذى ندركه قليل دائما . والذى نفهمه أقل القليل . فكيف لايفوتنا الكثير ..

ولذلك فالآنسة مى زيادة يجب أن تهون على نفسها كثيرا ، فلا ترهق نفسها والقارىء ، بالنظر الى كل ملابسها وكل حليها التى وضعتها مرة واحدة .. كأنها لن تكتب بعد ذلك .. وكأن أحدا لن يقرأ لها أبداً !

وقد اغضبها . ولكن الحق مع المازنى ولأسباب تتعلق بفلسفة المازنى فى النظر إلى الأسلوب واللغة والاتصال والعبور الى القارىء .. وتلك قضايا كانت تشغل المازنى شخصيا وأدبيا وفلسفيا . ولم تفهم مى زيادة أعماق المازنى . ولا الناس فى زمانه ..

ولذلك غابت عنهم حكمته وبعد نظره .. وأنه كان متقدما على زمانه عشرات السنين .. ولو كانت أعمال المازنى ، وما أسهلها ، قد ترجمت إلى اللغة الفرنسية لكانت دستور الوجوديين جميعا .

ولكن المازنى ظل الصفر أمام الواحد .. ولم يتقدم الصفوف فى أجتماعات الاحزاب السياسية .. ولا تعرض للمعارك ولا دخلها .. وانما جلس الى الوراء بعيدا .. يتفرج يائسا ، ويكتب حزينا ، ويتمنى أن يصاب الناس بما أصيب به .. وأن يتعذب الناس عذابه .. فتصاب بالأمراض كل محبوبة .. وكل الناس .

يقول المازنى :

وأوصيت للمحبوب بالسهد والضنى
وبالدمع لايرقا ، ولا هو عامر
وبالجدرى فى وجهه ليزينه
وبالعرج المزدوج والله قادر !

وأنشغل النقد الأدبى بالأستاذ العقاد عن الشاعر الكبير عبد الرحمن

شكرى أول من قدم رموز مدرسة « الديوان » فى الشعر والنقد الأدبى .

وكان عبد الرحمن شكرى أكثر عذابا من المازنى وأكثر انطواء حتى لقد عاش بعيدا عن الناس حتى خيل للناس أنه مات .

لولا عثرت عليه فى الاسكندرية . فنشرت أنه مايزال حيا ونقلت ذلك للأستاذ العقاد فأملانى رثاءه والدموع فى عينيه .. وبعدها مات عبد الرحمن شكرى .. فكأننى ساعدته على أن يموت علنا !

وكذلك أنشغل التاريخ الأدبى بالشاعر العقاد ، والناقد العقاد ، والمؤرخ العقاد ، والفيلسوف العقاد عن المازنى الاديب الشاعر الناقد الفيلسوف .. مع أن المازنى كان أسرع الى فهم النفس المعذبة بعد الحرب العالمية الأولى والثانية .

ولم يكن يقصد الأستاذ المازنى أحدا بالذات عندما نظم أبياتا للشاعر الألمانى هينه وطلب أن ينقشوها على قبره ، ان وجدوا حجرا أو وجدوا لاحد أصابع يكتب بها .. يقول المازنى :

أيها الزائر قبرى
أتل ماخط أمامك
هاهنا ، فاعلم : عظامى
ليتها كانت عظامك !

أطبق عينيه ليرى !

إذا سماؤك يوما تحجبت بالغيوم
أغمض جفونك تبصر خلف الغيوم نجوم !
والأرض حولك اما توشحت بالثلوج
اغمض جفونك تبصر تحت الثلوج مروج !
وإن بليت بداء وقيل داء عيساء
أغمض جفونك تبصر في الداء كل الدواء !
وعندما الموت يدنو واللحد يغفر فاه
اغمض جفونك تبصر في اللحد مهد الحياة !

وقد نظم قصيدة « النهر المتجمد » باللغة الروسية وهي من اروع ما ابدع ، ثم ترجمها الى العربية . يقول :

يا نهر هل نضبت مياهك فانقطعت عن الخرير ؟
ام قد هرمت وخار عزمك فانثنيت عن المسير ؟
بالامس كنت تسير لا تخشى الموانع في الطريق
واليوم قد هبطت عليك سكين اللحد العميق

* * *

ما هذه الأكفان ؟ أم هذي قيود من جليد ؟
قد كلبتك وذللتك بها يد البرد الشديد ؟

* * *

لكن سينصرف الشتا وتعود ايام الربيع فتفك جسمك من عقال مكنته يد الصقيع

* * *

قد كان لى يا نهر قلب ضاحك مثل المروج
حر كقلبك ، فيه اهواء وامال تموج

* * *

قد كان يضحى غير ما يمسى ولا يشكو الملل
واليوم قد جمدت كوجهك فيه امواج الامل

* * *

فتساوت الايام فيه : صباحها ومساؤها
وتوازنت فيه الحياة : نعيمها وشقاؤها

* * *

وغدا غريبا بين قوم كان قبلا منهم
وغدوت بين الناس لغزا فيه لغز مبهم

* * *

يا نهر ذا قلبى ، اراه ، كما اراك مكبلا
والفرق انك سوف تنشط من عقالك ، وهو .. لا

* * *

ويقف ميخائيل نعيمة عند قمة الدنيا فى جبال لبنان وينظر الى ما حوله وتحت قدميه وفوقه ينشد لحظة السكون المقدس .. حين لا يريد شيئا من شىء أو من أحد .

يقول ميخائيل نعيمة :

نتمنى ، وفى التمنى شقاء
وننادى ياليت كانوا وكنا
ونصلى فى سرنا للأمانى
والاماتى فى الجهر يضحكن منا

* * *

غير انى كرهت التمنى
اتمنى لو كنت لا اتمنى

* * *

نتمنى وما التمني سوى مهماز
دهر ، يحثنا للمسير
فصغيرا قد كنت أطلب لو كنت
كبيرا ، ولى صفات الكبير
وكبيرا ، لو عدت طفلا صغيرا
واستردت نفسى نعيم الصغير

* * *

اتمنى مازلت اجهل نفسى
وانادى ياليتنى ولو انى
واصلى فى داخلى للاماتى
الأمانى فى داخلى للامانى
والامانى فى الجهر يضحكن منى
غير انى لابد ابلغ يوما
فيه امسى حرا عديم التمنى !

ميخائيل نعيمة اديب لبنان وشاعر التصوف كان اخر الاحياء من عظماء سنة ١٨٨٩ .. توفى فى العام الماضى عن ٩٩ عاما ـ هتلر كان اصغرهم فقد انتحر عن ٥٦ عاما ..

ميخائيل نعيمة عاش ومات يتيما .. او كأنه يتيم الابوين او يتيم الناس جميعا .. فقد ولد فى قرية « بسكنتا » فى جبال لبنان .. سافر ابوه الى امريكا وتركه لوالدته التى تعلمه كيف يصلى كل يوم لوالده ولاسرته .. وهو لا يفهم معنى ما يقول .. كتب ميخائيل نعيمة فى الجزء الاول من قصة حياته التى سجلها عندما بلغ السبعين من عمره ماذا كان يردد وراء امه :

« قل معى يا ابنى : ابانا الذى فى السماوات .. ليتقدس اسمك . ليأت ملكوتك . لتكن مشيئتك كما فى السماء كذلك على الأرض .

ثم تقول له : قل معى يا ابنى : يارب وفق أبى فى أمريكا . اذا امسك التراب فلينقلب فى يده ذهبا .. يارب رده الينا سالما .. يارب خل لى اخوتى . يارب خل لى خالى ابراهيم وخالى سليمان ووفقهما وارزقهما اولادا . يارب ..

يقول ميخائيل نعيمة فى سذاجة وسخرية ايضا : واطبق عينى على صور غريبة رسمتها كلمات امى فى مخيلتى . صورة اب قالت لى امى انه ليس له لحم

ودم ، وانه يسكن السماء ـ ذلك الفضاء الازرق حيث الشمس فى النهار والقمر والنجوم فى الليل . فما ادرى كيف اتخيله أو اتخيل مقره .. وهل بيته هناك يشبه بيتنا هنا ؟ بل هو أكبر وأجمل . انه من القرميد لاشك .. وصورة اب من لحم ودم فى بلاد يدعونها امريكا .. فاتخيله عملاقا بشاربين اضخم بكثير من اى شاربين وقعت عليهما عيناى . واتخيل امريكا بلادا وراء الافق . يمسك فيها الناس التراب فيتحول ذهبا . اما الذهب الذى ما كنت بعد قد ابصرت له وجها ، فقد تخيلته شيئا ثمينا جدا . الا اننى كنت اعجب لابى كيف سافر الى امريكا ليأتى بالذهب مادام فى استطاعة امى ، بدعاء بسيط الى ابى فى السماوات ان يجعل التراب فى يديه ذهبا . فها هى ارض بيتنا من التراب وسقفه كذلك . وها هو التراب حوالينا فى كل مكان . وبكميات لا نفاد لها . ايكون تراب امريكا غير ترابنا ؟ اجل . هكذا يجب ان يكون .. » .

وقصة حياة ميخائيل نعيمة كما يرويها سهلة رقيقة جميلة فيها الصفاء والسذاجة وفيها التساؤل والشك واليقين والعمق والضياء والبهاء وفيها يشعر ميخائيل نعيمة انه الصغير جدا ، ولكنه فى نفس الوقت هو الكون العظيم ايضا .. فهو الجزء من الكل . وهو الكل الذى فيه كل الاجزاء .

كانت دراسته فى المدارس الروسية فى بلدته وفى مدينة الناصرة .. ثم سافر الى روسيا يكمل تعليمه . وادرك روسيا اثناء تحولاتها الكبرى الى الاشتراكية وانبهر بتولستوى المسيحى الذى لم يترك الكنيسة الا لكى يرى كنيسته أعظم واعمق واجمل هى الكون كله .. وامن ميخائيل ان الكنيسة ليست هى المكان الذى يعبد فيه الانسان ربه . فهى أضيق من ذلك كثيرا جدا . وهو يضيق بالضيق لانه ابن الجبل .. ابن القمم الصافية .. ويندهش كيف كانت تطالعه فى الكنيسة صورة للسيد المسيح هكذا حزينة وليست فيها رحمة يقول : صورة قاتمة الالوان تمثل رجلا بلحية كثيفة ووجه منقبض الأسارير وعينين عابستين لا رحمة فيهما ولا شفقة كيف ؟ والمسيح هو الرحمة والحب والفرح ؟

وفى روسيا رأى الدنيا أوسع والناس أكثر . وعندهم كلام جديد .. ونظريات وعندهم عباقرة باهرون : تولستوى وجوركى والشاعر الحزين مثله لرمنتوف .

ومن روسيا سافر إلى أمريكا .. لعله هو الآخر أن يعود بالذهب .. أو لعل الذهب يستطيع أن يحول بيت التراب الى بيت من القرميد .. ولعله ان يجد للبيت بابا كبيرا يدقه الناس قبل الدخول .. فاذا سمع هو الدق على الباب راح

يفكر فيمن الطارق .. وهل يفتح له أو لا يفتح .. ويا ترى ما الذى أتى به مبكرا صباحا ، أو متاخرا ليلا .. ولكن بيته كان بلا أبواب .. فالمسافة بين الشارع والسرير خطوة .. والناس ليسوا فى حاجة أن يقولوا لماذا جاءوا .. فأنت لا تستأذن من تجده جالسا على الرصيف ان كنت تقترب أو تجلس اليه ..

وفى أمريكا درس اللغة الانجليزية وتخرج فى كليتين معا : الآداب والحقوق ونظم شعرا بالانجليزية أيضا . ولم يشأ أن يترجمه الى العربية ..

وعند منتصف عمره توقف عن نظم الشعر . لقد أحس انه مثل بدلة انيقة جميلة معطرة ولكنها ضيقة . يقول ميخائيل نعيمة :

« الشعر لا أجد فيه سوى متانة لغوية وزركشة بيانية ، ومقدرة عروضية . فهو فى نظرى كغرفة طولها ذراعان وعرضها ذراعان وعلوها ذراعان .. جدرانها موشاة بالرسوم وسقفها مموه بالذهب . وأرضيتها مرصوفة بالفضة . يبهرنى لأول وهلة منظرها. ولكننى لا أمكث فيها بضع دقائق حتى أشعر بحاجتى الى الهواء النقى . والى فضاء الله الواسع . فأهرب شاكرا لله على النجاة وغير ملتفت الى مثل هذه الغرفة مع الكثير من الشعراء الذين رفعهم هذا الجيل والأجيال التى قبله الى قمة الأوليمب » ..

وكان الأستاذ العقاد يأخذ على ميخائيل نعيمة وكل الشعراء فى المهجر انهم لا يهتمون بقواعد اللغة والصرف والنحو . وانهم يقولون كلاما جميلا دون معرفة بخبر كان واسم ان ولا تحركهم حروف الجر .

وكان رد ميخائيل نعيمة ان الأستاذ على حق .. ولكن ميخائيل نعيمة مشغول بوظيفة اللغة أكثر من انشغاله بانضباط حركتها .. ثم انه لا يجد قاموسا باللغة العربية يحدثه عن هذه القواعد .

ثم أهدى الأستاذ العقاد كتابه « الفصول » الى ميخائيل نعيمة .. ثم كتاب « الديوان » من تأليف العقاد والمازنى . وهنا كانت سعادة ميخائيل نعيمة لا توصف . فقد أحسن أن الذى يقوم به العقاد فى مصر هو بالضبط ما يقوم به فى أمريكا ..

يقول ميخائيل نعيمة :

« الا بارك الله فى مصر . فما كل ما تنثره ثرثرة . ولا كل ما تنظمه بهرجة . وقد كنت أحسبها وثنية تعبد زخرف الكلام ، وتؤله رصف القوافى ، فكم زمرت لبهلوان ، وطبلت لمشعوذ ، وطيبت لسكران . غير انى عرفت اليوم بالحس ما

كنت أعرفه أمس بالأمل . عرفت أن مصر مصران : مصر ترى البعوضة جملا ، وترى الحجرة جبلا .. ومصر ترى البعوضة بعوضة والحجرة حجرة » ..

أما الصفات التي تبهر القارىء في شاعر لبنان الصوفي ، وأديبها الفيلسوف فهو صفاء العقل وإحساسه بالدنيا كلها شيء واحد .. وإيمانه بأن الانسان يعرف بالقلب ما يعجز عنه العقل .. وأن الأديب ليس أديبا اذا لم يكن لسان حال أهله والدنيا . ولا يكون شاعرا الا اذا غنى الجبال والوديان والأنهار والنجوم والسماء وعظمة الضمير الانساني ثم هذا الايمان العميق الذي يفيض عليه ولا يدري كيف .. والموسيقى التي تتعانق أصداؤها في جوانبه ، ولا يعرف لماذا ..

وهو زاهد في الدنيا .. امتلأ بها ليرفضها .. وعايشها لينبذها .. واستغرقته لينجو منها ..

لقد صفى حسابه نهائيا مع الدنيا .. فتجرد من شهواته الخمس : السلطة والمال والمرأة والشهرة والخلود ..

ولكن لم ينته شعوره بالدهشة لكل الذي حوله .. فهو يحذرنا من أن « نألف » الدنيا .. فلا نفكر ولا ندهش ولا نبحث عن المعنى وراء كل شيء ..

يقول ميخائيل نعيمة :

« يا ابن آدم حذار من الألفة .. كأن تألف الاشياء فلا تدهش لشيء .. كل ما في الأرض وفوقها مدهش وعجيب .. فحري بك أن تعيش في دهشة دائمة .. وحري بدهشتك أن تفتح لك الباب الى قلب الحياة الفسيح .. أما متى فارقتك الدهشة فقد فارقك الأمل بدخول قلب الحياة . تلك هي البداية ..

وكان الأديب الفرنسي اندريه جيد ينصح الذين يدرسون التاريخ والفلسفة أن يبعدوا عن كل الذي يشبههم ـ أي الذي يجدونه شبيها بهم .. وانما أن يبحثوا عن الشيء المختلف .. فكل شيء خلقه الله في اختلاف هائل بعضه عن بعضه .. وفي وحدة وانسجام لا حدود له .

وقد اعتزل ميخائيل نعيمة هذه الدنيا كلها عندما عاد الى قريته واختار له كهفا أطلق عليه اسم « الفلك » ـ بضم الفاء ـ اي سفينة نوح .. ولم يكن في هذا الفلك أحد سواه .. كأنه هو وحده الذي في حاجة إلى أن ينقذ نفسه من الطوفان .. فاذا نجا ، أصبح قادرا على انقاذ ..الآخرين .. وما الطوفان الا هذه الدنيا المتضاربة الشهوات والالوان والعناصر والاديان .. الخائفة من الموت ..

مع انه لا موت .. فكل شيء يموت ليولد من جديد .. الحيوان يتوالد منه الحيوان .. والبذور تلد البذور .. لا شيء يفنى .. والانسان يموت ليعيش في حياة اخرى .. وكل حياة جديدة تقوم بتطويره وتعديله .. ولكنه لا يموت .. فكل شيء يذهب ليعود ، يعيش ليموت ليعيش ليموت ليعيش .. الى آخر أشكال التصوف الهندي ..

مثل هذه المعاني هي التي جعلت ميخائيل نعيمة على قدر كبير من اليقين . انها قواعد فكرية متينة اهتدى اليها .. فلم يعد يخاف . تماما كما ان بيته الجديد قد أصبح من الحجارة بدلا من التراب .

يقول :

سقف بيتي حديد
ركن بيتي حجر
فاعصفي يا رياح
وانتحب ياشجر
واسبحي يا غيوم
واهطلي بالمطر
واقصفي يا رعود
لست أخشى خطر
سقف بيتي حديد
ركن بيتي حجر
من سراجي الضئيل
أستمد البصر
كلما الليل طال
والظلام انتشر
وأذا الفجر مات
والنهار انتحر
فاختفي يا نجوم
وانطفي ياقمر
من سراجي الضئيل
استمد البصر

باب قلبي حصين
من صنوف الكدر
فاهجمي يا هموم
فى المسا والسحر
وازحفى يا نحوس
بالشقا والضجر
وانزلى بالألوف
يا خطوب البشر
باب قلبى حصين
من صنوف الكدر
وحليفى القضاء
ورفيقى القدر
فاقدحي يا شرور
حول قلبى الشرر
واحفرى يا منون
حول بيتى الحفر
لست أخشى العذاب
لست أخشى الضرر
وحليفى القضاء
ورفيقى القدر

ولكن ميخائيل نعيمة ، لم يصل الى هذا اليقين الا بعد شك طويل فى كل الذى يجرى حوله وفى نفسه وفى دينه وفى ربه وفى الملائكة والشياطين ..

ويوم كان فى شك من كل ذلك قال :

دخل الشيطان قلبى فرأى فيه ملاك
وبلمح الطرف ما بينهما اشتد العراك
ذا يقول : البيت بيتى بيعيد القول ذاك
وانا اشهد ما يجرى ولا أبدى حراك
سائلا ربى : أفى الاكوان رب سواك ؟
جبلت قلبى من البدء يداه ويداك ؟

والى اليوم أرانى فى شكوك وارتباك
لست ادرى أرجيم فى فؤادى ام ملاك ؟

وأخر ما بلغه ميخائيل نعيمة فى فهم هذه الدنيا ومعرفة الطريق الذى ليس بعده ولا غيره طريق الا هذا الذى قاله فى هذه الابيات :

ان شئت خير دليل
فسر بغير دليل
او شئت اصفى خليل
فعش بغير خليل !
اتيت البحر فى مده
وجئت البحر فى جزره
فلا بالمد ادنانى
ولا بالجزر اقصانى
فقلت وراقة قولى
انا والبحر سيان !

★ ★ ★

ويوم اقاموا له حفلة فى المدرسة الروسية التى تعلم فيها ، وجد الناس كثيرين . وتلفت حوله فى فزع ، كأنهم جاءوا يحاكمونه . وشعر بالرعب كأنه قال كلاما لم يفهموه او اتهم احد فجاء يدافع عن نفسه .. فبدأ كلمته بالتوبة عن اى خطأ . والاستغفار من كل ذنب . ثم نبه الناس الى انه فى ايامه الاخيرة . وانه لم يعد مدينا لاحد . وانه قد اعطى وما أخذ .. أو انه قد توهم انه قد اعطى ، فليحاسبه الله والناس على حسن النية .. ثم اشار الى احد الشبان ان يلقى قصيدة له كان قد نظمها من ستين عاما قال ميخائيل نعيمة :

غداً ارد هبات الناس للناس
وعن غناهم استغنى بإفلاسى
واسترد رهونا لى بذمتهم
فقد رهنت لهم فكرى واحساسى
ورحت اتجر فى اسواق كسبهم
فما كسبت سوى هم ووسواسى
وكم فتحت لهم قلبى فما لبثوا

ان نصبوا كلبهم فى قدس اقداسى
غدا اعيد بقايا الطين للطين
واطلق الروح من سجن التخامين
واترك الموت للموتى ومن ولدوا
والخير والشر للدنيا وللدين
والبس العرى درعا لاتحطمه
ايدى الملائك او ايدى الشياطين
فلا تراعى نار الجحيم ولا
مجالس الحور فى الفردوس تغرينى
غدا اجوز حدود السمع والبصر
فادرك المبتدا الكنون فى خبرى
فلا كواكب الا كان لى سبل
فيها ، ولا تربة الا بها اثرى
لى فى القضاء قضاء والمنون منى
وفى ملاحقة الأقدار لى قدرى
غدا ؟ ولا امس لى حتى اقول غدا
فلمنحها « الان » من نطقى ومن فكرى !

* * *

شىء عجيب جدا ان ينشر ميخائيل نعيمة كل فلسفته وهو دون الاربعين .. يقولها شعرا رائعا .. ثم يتوقف .. ويظل الخمسين عاما التالية يوضح كل ذلك نثرا جميلا متماسكا قويا .

وفلسفة ميخائيل نعيمة كلها تدعو : الى ان يتحرر الانسان من كل قيد ليكون وجها لوجه مع الله . ووجها لوجه مع الكون الذى هو احدى صور الله اللانهائية .. ووجها لوجه مع نفسه . فليس الصوت فى أعماقه إلا صوت الله ، وليس الجمال فى عينه ، والجلال فى قلبه الا ظلالا لبهاء الله .. وانه الدودة والبذرة والورقة والموجة من عجائب مخلوقات الله - تبارك الله !

عبد الرحمن الرافعي :
ناظر مدرسة التاريخ
تهذيب وإصلاح !

سألت المؤرخ الكبير عبد الرحمن الرافعي : ما رأيك فى الحب ؟ فقال : كلام فارغ !

ثم كرر هذه الاجابة بأشكال أخرى .. فالحب يلخبط العقل . فاذا تلخبط العقل لم يصبح الانسان قادرا على الفهم والحركة على الاشياء . وهكذا وبسرعة ألقى الاستاذ الرافعي بنصف الأدب وربع الفن فى الزبالة ـ وبالمرأة قبل ذلك !

مع أن المرض والتعب والفقر والغيرة والحقد كلها مما يلخبط العقل ، فهل هى جميعا كلام فارغ ؟!

ولكن الأستاذ الرافعي قال إنها كلام فارغ . إذن هى كذلك !

ولما سألت الأستاذ الرافعي عن رأيه فى الحب والزواج .. وهل هو تزوج عن حب . فاستنكر السؤال تماما . وقال ـ يقصد زوجته ـ وإنما تزوجتها عن اقتناع باخلاقها ووطنيتها .. وبعد ذلك يجىء الحب أو لا يجىء ..

فالأخلاق والوطنية هما الشرطان الأساسيان لأن يوصف الرجل أو المرأة بالفضيلة . ويومها ازداد وجهه احمرارا .. ولم يكن هذا الاحمرار الشديد الا مظاهرات التأييد التام من كل الكريات الحمراء في دمه . انتهى . فهذا هو مقياس الشر والخير عند المؤرخ الكبير عبد الرحمن الرافعي .

فهو ـ إذن ـ يرى أن التاريخ هو درس من دروس الأخلاق . صحيح أن المؤرخ يصور الواقع ولايصححه . ولكن العبرة والموعظة الحسنة هى الهدف .. فالانسان يجب ان يعرف ما حدث وأن يتعلم من الذى حدث . فيقلع عن الشر ويتمسك بالخير . مع أن التاريخ قد علمنا ان أحدا لا يتعلم ولا يتعظ . فكلنا نقرأ عن الشرور ونكررها ، كأننا لا قرأنا ولا سمعنا . وإننا فى حياتنا العادية نعيد ونزيد فى أخطائنا .. وكذلك الشعوب !

فعبد الرحمن الرافعي رجل طيب .. وعلى خلق كريم . ولأنه طيب فهو يصدق ما يقرأ وما يقال . ولايبدأ بالشك . مع أن الشك هو بداية اليقين . ولكن الأستاذ الرافعي قد مر على كثير من الأحداث التى تحتاج إلى مراجعة وإلى رفض .. ولكن اكتفى بأن استوقف الأحداث وطلب إليها أن تقسم على قول الحق . فأقسمت كاذبة .. فصدقها ..

يكفى أن ينقل الأستاذ الرافعي عن الصحف ، دون تردد .. مع أن الانسان يجب أن يتردد كثيرا جدا فى الذى تنشره الصحف . فهى تخطف المعلومات خطفا . وهى تهتز كثيرا وهى تعرض وتحكم وتحلل .. ثم أن الصحف تخضع لاهواء كثيرة .. هوى الرقيب الذى يمثل الحكومات الحزبية .. ولكن الاستاذ الرافعي لم يتحفظ فى الذى نقله عن الصحف ..

ثم إن الاستاذ الرافعي يحتكم إلى الاخلاق فى السياسة . مع أن السياسة والأخلاق لا يلتقيان والسياسة هى فن من فنون السفالة الأنيقة ، والكذب الرشيق .

وغلطة ثالثة تعيب منهج الأستاذ الرافعي هى « حزبيته » ـ أى إنحيازه التام لوجهة نظره الحزبية .. فالذى يوافق أفكار الحزب الوطنى هى الأفكار والتى تعارضها هى الجريمة .. ويكفى خطا فاحشا أن يؤمن بأن مصطفى كامل عبقرى السياسة لا يأتيه الباطل لا من بين يديه ولا من خلفه بينما أحمد عرابى يأتيه الباطل من بين يديه ومن خلفه فهو خائن لمصر ـ تصور ـ هذا حكم فظيع لمصطفى كامل وحكم شنيع على عرابى . ولكن الاستاذ الرافعي هو ذلك الرجل الرقيق الخجول الطيب لا تتحرك فيه شعرة واحدة وهو يقدس مصطفى كامل ، وفى نفس الوقت يلقى أحمد عرابى فى النار ويحرمه من دخول تاريخ مصر من أوسع الأبواب ـ ولكن هذا هو رأى الحزب الوطنى !

ورأى الرافعي فى المرأة ، هو رأى رجل محافظ تقليدى يؤمن بأن السفور كارثة تحيق بالمرأة ولذلك يجب أن نتحفظ فى ذلك تماما .. وأن نؤجل ما أستطعنا كشف وجهها وذراعيها وساقيها وصدرها ..

وسوف أختار ثلاثة أمثلة تكشف عن أسلوب المؤرخ الكبير عبد الرحمن الرافعي فى تناول القضايا التى يتعرض لها ، أو التى يعرضها علينا . بعد أن يكون قد فرغ من تحليلها واصدار حكمه عليها .. ولا يخطر على باله أننا سوف نستأنف الحكم فيها جميعا ..

القضية الأولى : وهي شخصية نفسية فيها قدر كبير من اليأس والقرف من الناس والزمان . يقول الأستاذ الرافعي : حرمت طيلة حياتي من معاونة الغير لى . لم أجد معاونة فى أعمالى ومشروعاتي ومنهجى فى الحياة ، لا من المجتمع ولا من الحكومات ولا من الهيئات ولا من الأفراد . كل كفاحي أو معظمه كان يسير بلا سند الا من معونة الله ، لم أنل من المجتمع ولا من الحكومات أى علامة تقدير لأعمالى . لا أقول طعنا فى المجتمع ، بل تقريرا للواقع . وتحدثا بنعمة الله ، نعمة الصبر . ويلزمنى أن أعترف بأننى ، إلى جانب حرمانى من التقدير ، واجهت عقبات وتنكرا وجحودا من هنا ومن هناك .. وعلام كل هذا ؟ لا أدرى إذا كنت على حق يتنكر له الناس ، أم على باطل يتولى الناس تقويمه . على كل حال أن اعتقادى اننى على حق وإننى كنت مغبونا فى قومى قد أكون مخطئا فى اعتقادى ، ولكنهم يقولون : لكل مجتهد نصيب . إذا أخطأ فله أجر وإذا أصاب فله أجران .

والاستاذ الرافعي كما ترى لم يحسن عرض قضيته . فهو شديد الاضطراب . ثم انه فاجأنا بالحكم ، دون أن نعرف حيثيات هذا الحكم ولا ملف القضية .. بل أنه لم ينطق فيها بحكم . فالذى قاله سحبه فى النهاية . وجعل حياته كلها قد خضعت لأحد الكليشيهات السلوكية وهى : لكل مجتهد نصيب .. وتندهش أنت كيف لا يترافع الرافعي فى قضيته هو ، وحياته وقصة سلوكه كانسان وكمؤرخ ورأيه فى الناس فى زمانه وكل زمانه ، ثم يطمئن بعد ذلك لاحكامه . ومن المؤكد انه خسر قضيته ، كما خسر كل الناس .. وموقف الاستاذ الرافعي من قضيته هو كموقفه من كل القضايا الأخرى . هو يرى أنه على حق ثم يرى أن الناس جميعا ليسوا على حق ؟!

وهذه فرصة نادرة قد أضاعها الاستاذ الرافعي . وكان فى استطاعته أن يتخذها مدخلا لتناوله للتاريخ وللأحداث وللأشخاص .. فتعرف كيف يرسم الشخصية وكيف يضع مفاتيح الأحداث ومسارها .. وهل هو يعتمد على العوامل النفسية والاجتماعية أو الأخلاقية أو السياسية ؟ .. ان هذا الذى حكاه عن نفسه كان مدخلا فريدا لكل أحداث التاريخ . ولكنه ضاق بالناس وبنفسه .. ولم يعتمد كثيرا على التفسير النفسى أو الاجتماعى أو الاخلاقى للتاريخ .. وإنما أراد أن يقول أنه رغم التعب والجحود وسوء التقدير أو اللامبالاة الرسمية والشعبية له ، فانه سوف يمضى فى عمله . وسلاحه هو الصبر . والصبر نعمة من عند الله ..

وعندما كنت اتحدث إلى الأستاذ الرافعي كان يخيل إلى أنه يخطب في اجتماع سياسي .. ولم يكن غريبا أن التفت حولي ، لأرى إن كان هناك احد غيري .. ولكنه كان يخاطب التاريخ أو الأجيال القادمة بمناسبة جلوسي معه .. وهو يكتب كما يتكلم .. خطيبا واعظا ..

والقضية الثانية : هي اغتيال سليمان الحلبي للقائد الفرنسي كليبر . وقد نقل الحدث كله عن الشيخ عبد الرحمن الجبرتي المؤرخ المصري الحبشي الأصل .

قال الجبرتي : واجتمع رؤساء العساكر في الحصون والقلاع . وظنوا أن الجريمة من فعل أهل مصر . فأحاطوا بالبلد وعمروا المدافع وحرروا القنابر .. وقالوا لابد من قتل أهل مصر عن آخرهم .. ووقعت هوجة عظيمة وكرشة » ..

ويقول الرافعي : وذكر الجبرتي اجراءات التحقيق مما لا يخرج عن المراجع الفرنسية ونقل محاضر التحقيق ومحاضر جلسات المحاكمة كما دونها الفرنسيون في ذلك الحين فقد نشروها بالفرنسية وترجموها إلى التركية والعربية بلغة ركيكة مفككة مملوءة بالاغلاط . فضربنا صفحاً عن الترجمة الواردة في الجبرتي ورجعنا إلى المصادر الفرنسية !

ولم ينتبه الاستاذ الرافعي إلى الميزة العظيمة للجبرتي الذي استعان بالمحاضر الفرنسية ونقلها دون تغيير .. لأنه احترم الفرنسيين الذين لا دين لهم ـ كما يقول ـ ولكنهم لا يحكمون الا بالعدل .. الا بالعقل لا بالتعصب .. فقد كان في استطاعتهم أن يقتلوا من يشاءون دون محاكمة .. ولكنهم سألوا وأعادوا الاسئلة وطلبوا من المتهمين أن يختاروا من يدافع عنهم . ولما لم يختاروا انتدبت لهم المحكمة من يدافع عنهم . وعلى الرغم من اعتراف القاتل وعلى الرغم من وجود أداة القتل ملطخة بالدم ، فانهم لم يكتفوا بذلك .. بل سألوا وسألوا ـ منتهى العدل ! .

ولكن المؤرخ العظيم توينبي هو الذي خلع قبعته تحية لعبد الرحمن الجبرتي . ووصفه بأنه أعظم المؤرخين في كل العصور .

أولا : لأنه كان موضوعيا في كل الذي نقل .

ثانيا : لأن العلوم التي نقلها الفرنسيون إلى مصر لم تبهره ولم تغير شعوره بكراهية الاحتلال الفرنسي والفرنسيين .

ثالثا : ورغم كراهية الجبرتي للاحتلال وللفرنسيين الكفرة ، فانه عندما رأى العدل والامانة قد أبدى إعجابه الشديد بهم ..

ولذلك رأى المؤرخ العظيم أرنولد توينبى أن الجبرتي يستحق عن حق بأن يوصف بأعظم المؤرخين على الاطلاق !

ولم يتوقف الاستاذ الرافعي طويلا عند هذا المؤرخ الموضوعى ، وإنما اهتم فقط بأن سجل على الجبرتي أنه نقل نصوصا مترجمة ركيكة . ولذلك انصرف عنها إلى الأصل الفرنسي . ولم ينتبه إلى أن الجبرتي قد نقل هذه النصوص لأنه عظيم الاحترام للصدق والعدل والامانة عند المحكمة الفرنسية .. ودهشة الجبرتي لم تنته : كيف يظلم الاتراك المسلمون ويقتلون بلا محاكمة ، بينما الفرنسيون الذين لا دين لهم يحكمون بالعدل ؟!

والقضية الثالثة : هى قضية على باشا مبارك .. وهو ابو التعليم والاصلاح التعليمى . وهو أيضا رجل طيب . فلاح صبور . وقد اثار حقد الكثيرين وأهين كثيرا . وصفعوه على خديه الايسر والايمن وعلى قفاه .. ودفعوه إلى أن يعمل بالنجارة وبالفلاحة ..

والاستاذ الرافعي تعرض لسرد حياة على مبارك الذى كان كلما ذهب إلى معلم عامله بقسوة فهرب .. انه دائم الهرب . اما والده فيريده أن يتعلم وأن يذهب إلى الأزهر . ولكن الطفل يريد أن يتعلم ولكن بغير قسوة ، ويريد أن يتعلم الا فى الأزهر .. وضاق به ابوه فهرب الطفل .. وهرب الشاب .. ولكنه كان متفوقا وسافر إلى فرنسا . وعاد ليكون مديرا ووزيرا ومستشارا ومفصولا وعاطلا ومهددا فى حياته وفى بيته .. وبعد ذلك يرفعه الخديو إلى السماء .. ثم يجىء خديو آخر ويضعه فى باطن الأرض والفقر والخوف ..

أما تعليق الاستاذ الرافعى على حياة على مبارك فهو أنه رجل عنده أخلاق وشرف . وليس غريبا ، فأبوه كذلك .. وهو أبوه وأسرته نموذج للأسرة المصرية التى تريد أن تتعلم مهما تعبت .. والتعليم فى ذلك الوقت يقوم به الجهلاء الذين لا رحمة فى قلوبهم .. واضطراب حياة على مبارك نموذج لاضطراب الحياة فى مصر فى ظل الاتراك أصحاب النزوات والذين يعتمدون على الدسائس والفتن . يعنى : على باشا مبارك رجل عظيم على خلق كريم . وأبوه كان كذلك !

ولكن الأستاذ الرافعي لم يفكر فى أن يبحث فى ملفات على مبارك . فقد اتهمه معاصروه بأنه كان ضعيفا. وكان سلبيا . وأنه كان لا يناقش الخديو . وإنما ينفذ له كل ما يأمره به .. طلب منه أن يخفض ميزانية التعليم ففعل . فاغلقت المدارس وشرد المدرسون والتلاميذ .. ولم نعرف أن كان على مبارك استسلم

حتى ينفذ سياسته العامة فى التعليم .. أو أنه فعل ذلك لانه بتكوينه انسان خائف . وان الذى كان يعمله وهو طفل لم يعد يستطيعه وهو رجل ـ كيف يهرب .. أو أن ينسحب لأن الانسحاب هو خير وسيلة للدفاع عن الكرسى ولقمة العيش والأولاد .. وهل أصبح على مبارك ضحية لعصره .. فقد خاف صغيرا وظل خائفا كبيرا .. وانه ضحية الوشاية والدسائس .. حتى اصبح هو الآخر يستمع للوشاية والدسائس .. فزوجته الثانية كانت غنية وساذجة .. فلم يكد أحد أقاربه يهمس فى أذنه بشيء عنها ، حتى طلقها دون أن يناقشها أو يتحقق من كل الذى قيل عنها فى غيابه وعن الأموال التى ورثتها واستولى عليها أحد اقاربها .. فعلى مبارك ضحية زمانه . وصورة منه أيضا !

ولا أنسى لقاء بين الاستاذ الرافعى والاستاذ العقاد . وقد أدهشنى ما سمعته من الاستاذ الرافعى . وخلاصة رأيه أن المؤرخ « مغرض » ولا يستطيع أن يكون محايدا .. لأن الحياد هى صفة الذين يبحثون فى الفزياء والكيمياء ولكن كيف يكون العاشق محايدا والخائف والجائع .. فان الاستاذ الرافعى يقول للعقاد : كيف تقول للشاعر لا تكن عاطفيا .. وللمطرب لاتهتز وأنت تغنى .. والمؤرخ إذا قال لنفسه : يجب أن أكون صادقا عادلا ، فهذا وعد وعهد .. والا فما قيمة التاريخ ان لم يكن درسا وموعظة . وانا عندما أكتب تاريخ مصر فأنا أكتب قصة حياة أمى وأبى ولابد أن أكون بارا بأمى ، رحيما بأختى .. وكيف أكون محايدا إذا سالت دماء أمى وأختى .. وكيف أكون منزها عن التعصب وعن الانتقام وأعتقد أن كل مؤرخ هو عاشق لشيء ما وهذا العشق الذى يوقظ وجدانه ويشغل فكره كثيرا ما جعله يفقد عقله أيضا !

وقد سجلت ذلك بتفصيل أكثر فى كتابى (فى صالون العقاد كانت لنا أيام) ـ وأصدق ما قاله الاستاذ الرافعى فى فهمه للتاريخ ولدوره فى كتابة التاريخ : أن العاشق يفقد عقله .. وهذا واضح تماما فى كل الذى كتبه الاستاذ الرافعى .. فهو لاينظر الا الى الجوانب الاخلاقية أو المنافية للأخلاق ـ أى اتباع التعاليم الدينية أو التعاليم الحزبية .. فكل من هو على خلق هو وطنى أيضا ـ ولكن مفهوم الوطن عند الاستاذ الرافعى هو مبادىء الحزب الوطنى ، وليس حب الوطن . فحب الوطن يشترك فيه كل الناس من كل لون ومذهب ودين !

والاستاذ الرافعى ناظر مدرسة التفسير الاخلاقى للتاريخ . أو التفسير الحزبى للعمل الوطنى . والتاريخ الذى كتبه الاستاذ الرافعى هو أوفى سجل

لتاريخ مصر الحديثة . وهو عمل شاق . لم يلق ما يستحقه من العناية والرعاية والتقدير الكريم لشخص المؤلف .

وكان الرئيس السادات يشيد كثيرا بما كتبه الاستاذ الرافعي . وهو الذى أمر باعادة طبع كل أعمال الرافعي فى دار المعارف . ونقلت ذلك إلى زوج ابنته المستشار حلمي شاهين . وأسعده وأسرة الرافعي هذا القرار . وتمنوا لو أن مثل هذا التكريم قد صدر قبل ذلك والرجل مايزال حيا . ولذلك فشكوى عبد الرحمن الرافعي من الناس والايام والمجتمع والدولة ، ظلت مؤلمة حتى وفاته ..

وبوفاة الاستاذ الرافعي أغلقت مدرسة التفسير الاخلاقى للتاريخ أبوابها بالضبة والمفتاح . وامتلأت صحف مصر ومكتباتها بالمؤرخين من كل لون . واللون عندهم أهم من التاريخ ومن معناه ومن مساره ومن قواعد الحركة التاريخية .

ولم يعد من السهل أن يعرف القارىء ، أن كان صدقا او كذبا أو خرافة هو الذى يقرأ عن تاريخ مصر الحديثة وعن قادتها وزعمائها .. لقد انطلقت الاقلام وانتهكت حرمات التاريخ واستراح المؤرخون إلى «التنفيس» عن آرائهم ومشاعرهم ..

أما الجيل الجديد أو نصف سكان مصر فهم الضحية : لا يعرفون أين الصدق وأين الكذب .. أين الحق وأين الباطل .. أين المجرم وأين البطل .. أين الوطنى وأين الخائن .. كل الألوان اختلطت واضطربت وارتبكت الأقلام وارتعشت العيون ، وتداخلت القيم وتحطمت الأصنام ، وقامت أصنام أخرى على جثث الشهداء .. ولم يعد أحد يعرف ما هى الشهادة ولا من الشهيد .. ولا الهدف وراء كل ذلك !

أن الذى يعانيه الشباب اليوم هو نوع من « الكفر » السياسى والاجتماعى .. والضياع التاريخى .. وقد اسلمتهم هذه الحالة إلى الهرب .. إلى الهرب إلى أى مخبأ سياسى أو اجتماعى او دينى .. وتعاطى المخدرات نوع آخر من الهرب .. لأنه اقامة للقصور فوق السحاب .. ثم أصابهم الشعور بالغربة والغرابة والشذوذ .. تراهم شواذا ويروننا خونة .. تراهم ضائعين ويروننا السبب ..

حتى يجيء جيل اخر يقرأ كتبا أخرى بأقلام منصفة عليمة .. تمسح الصور وتجلو العدسات وتقول كلمة الحق على نفسها ..

ولكن البداية الكريمة النظيفة والنبيلة والتربوية كانت وسوف تبقى مؤلفات عبد الرحمن الرافعي !

ايليا أبو ماضى :
أروع الحائرين !

كل لبنانى يجب ان يكون تاجرا وشيئا آخر .. حتى اذا كان شاعرا ، فهو تاجر بعد ذلك .. أو يريد ان يكون ..

فالشاعر ايليا أبو ماضى هاجر الى مصر فى العاشرة من عمره .. جاء يبحث عن لقمة العيش . فوجدها فى كشك سجاير .. كان يبيع .. وكان يتنقل وراء الزبائن فى بيوتهم : وكان يغرى الزبائن بان يعطوه عناوينهم ليأتى لهم بما يريدون بعد ان يقفل الكشك . لماذا ؟ كان يعطى لنفسه فرصة ان يمشى فى الشوارع .. ان يتصعلك . فيقفز الشاعر فى اعماقه يقول ويقول .. وكان ايليا ابو ماضى شاعرا موهوبا . فالكلام يخرج من فمه موزونا مقفى .. ولا يعرف كيف . وكان يخطىء فى مبادىء النحو والصرف . فهو لم يتعلم الا سنوات قليلة فى مدرسة .. والباقى أكمله كما فعل استاذنا العقاد .. لم يكن عالما مثقفا متفلسفا دارسا مثل ميخائيل نعيمه .. وانما كان شلالا جبليا فوارا وثرثارا .. يخرج من الصخر وينزل على الصخر ويتدفق فى القنوات المتعرجة فى الوديان .. والعطر فى كل مكان والفراشات .. كلها تخرج منه .. ولا يدرى كيف .. وعندما جاء الى مصر أراد ان يدق أبواب الشعراء والمثقفين وفى الوقت نفسه يسرح بسجائر .. وفى يوم جاءه رجل احمر الوجه متوسط القامة .. انيق ورآه يكتب شعرا على علب السجائر كما كان يفعل امير الشعراء شوقى . وسأله : ان كان هذا من مختاراتك ؟ فأجاب : بل هذا من نظمى .. وعندى كثير ..

فاندهش الرجل الانيق . ونشر له بعض قصائده . وعرف فيما بعد ان هذا هو أنطون باشا الجميل رئيس تحرير الأهرام ..!

وعندما قرأ د . طه حسين شعر ايليا أبو ماضى ، أعجبه الشاعر وبهرته موهبته الفنية .. ولكن لم يستطع طه حسين إلا ان يطلب اليه ان يتعلم مبادىء

النحو وقواعد اللغة .. فالشعر موجود والشعر جميل ، ولكن اللغة لها أصولها !

وعندما قرأ د . هيكل باشا شعر ايليا أبو ماضى وشعر ميخائيل نعيمة خاف تماما على الشعر المصرى .. وقال : ان هؤلاء الشوام قد تقدمونا فى المعانى والصور الجميلة .. ولا عيب فيهم إلا انهم متأمركون .. أى انهم شعراء خواجات .. ومالم نستدرك مافاتنا ، فسوف يكون الشوام هم شعراء الأمة العربية !

ولان ايليا أبو ماضى لم يدرس فقد وقع اسيرا للمتنبى وابى تمام والبحترى . وكان يقف ببابهم دائما .. ان قرأ لهم قصيدة اسرع فنظم واحدة مثلها .. نفس الوزن والقافية .. وحتى هذا الشعر التقليدى كان يدل على ان ايليا أبو ماضى شاعر حقيقى ، كامل الأدوات .. شاعر تقليدى .. ولكن عندما هاجر الى امريكا تفجرت ينابيع الشعر الجديد .. فانتقل من التقليد الى التوليد ، فاذا الأوزان اكثر تنوعا . واذا الصور ابلغ ، واذا المعانى اعمق .. فالشعر قد خلع جلده القديم وانطلق يتفجر مثل نافورة انيقة وسط حديقة .. أما هذه الصور وأما هذه الفراشات فهى ايضا من مختاراته .. انطلق ايليا ابو ماضى الى السماوات الواسعة .. انتهى ، لم يعد شاعرا لبنانيا يريد ان يكون صورة للمتنبى وابى تمام والبحترى .. وانما افسح لنفسه مكانا بينهم .. كان عظيم الاحترام لهم : أساتذة علموه وتقدموه .. ولكنه بعد أن عبر المحيطات راح ينتقل بين بحور الشعر وينتقى أرقها ..

ولكن ايليا أبو ماضى الذى هاجر من لبنان الى مصر ومن مصر الى امريكا ، مايزال مهاجرا .. فالتجارة لن تعطيه الذى اراحه .. والشعر لم يحقق الذى اسعده .. فهو حائر بائر .. محكوم عليه بان يظل شاعرا معذبا ويفرحه ويفرحنا ذلك ..

أما ايامه فى مصر .. وكان دون العشرين من عمره فقد وصفها هكذا ، مع الامتنان لمصر ومع الأسف على تركها وفقدها :

أشقى البرية نفسا صاحب الهمم ... وأتعس الخلق حظا صاحب القلم
لقد صحبت شبابى واليراع معا ... أودى شبابى .. فهل أبقى على قلم ؟
أصبحت انحل من طيف وأحير من ... ضيف ، وأسهر من راع على غنم
ليس الوقوف على الأطياف من خلقى ... ولا البكاء على ما فات من شيمى

لكن مصرا، وما نفسي بناسيه — مليكة الشرق ذات النيل والهرم
صرفت شطر الصبا فيها فما خشيت — نفسي العثار، ولا نفسي من الوصم
في فتية كالنجوم الزهر أوجههم — ما فيهم غير مطبوع على الكرم
الشرق تاج ومصر منه درته — والشرق جيش ومصر حامل العلم
هيهات تطرف فيها عين زائرها — بغير ذي أدب أو غير ذي شمم
أحنى على الحر من أم على ولد — فالحر في مصر كالورقاء في الحرم

وفى امريكا لم يحقق ابو ماضي شيئا مما كان يريد .. فلا هو التاجر الغني ، ولا هو الشاعر المعروف .. ضاع فى أمريكا .. ضاع تاجرا وشاعرا .. وضاع انسانا لا يعرف ما حقيقة هذا الانسان .. وما حقيقة هذا الكون .. وكلما حار بين الذى يرى والذى يفهم والذى يريد والذى يحلم ، لم يجد أمامه الا هذا الشاعر .. الا نفسه .. فقد خلقه الله مختلفا عن كل الناس .. لو كان الله خلقه اقل اختلافا .. اى أبقاه شاعرا وتاجرا .. اى اعطى الشاعر بعض اموال التجار ، واعطى التاجر بعض صعلكة الشعراء .. وقد حاول ابو ماضي ان يكون كاتبا أو ناشرا .. فكان شعوره بالغربة اعمق واوجع .. فما اكثر واجمل قصائده عن الشعر والشعراء فى كل دواوينه .. انها جميعا صورة للموهبة التى يعتز بها ، ويعذابها أيضا .

يقول الشاعر الغريب المغترب ايليا أبو ماضي :

رآني الله ذات يوم — في الأرض أبكي من الشقاء
فرق، والله ذو حنان — على ذوي الضر والعناء
وقال: ليس ترابا دارا — للشعر فارجع إلى السماء!
وشاد فوق السماك بيتي — ومد ملكي على الفضاء
فالتفت الشهب حول عرشي — وسار في طاعتي الضياء
فالأمر بين النجوم أمري — لي الحكم فيها والقضاء
لكنني لم أزل حزينا — مكتئب الروح في العلاء
فاستغرب الله كيف أشقى — في عالم الوحي والسناء
وقال: مازال آدميا — يصبو إلى القيد والطلاء
ومس روحي واستل منها — شوقي إلى الخمر والنساء

واشتد توحي وصار جهرا — وكان من قبل في الخفاء
ياأيها الشاعر المعنى — حيرني دواؤك العياء
هل تشتهي أن تكون طيرا؟ — فقلت: كلا ولا غناء!
هل تشتهي أن تكون نجما؟ — أجبت: كلا ولا بهاء!
هل تبتغي المال؟ قلت: كلا — ما كان من مطلبي الثراء!
ولا قصورا ولا رياضا — ولا جنودا ولا إماء
وليس ما بي، يارب، داء — ولا احتياجي إلى دواء
لكن أمنية بنفسي — يسترها الموت والحياء
فقال: ياشاعرا عجيبا — قل لي إذن ما الذي تشاء؟
فقلت: يارب فصل صيف — في أرض لبنان أو شتاء
فإنني ههنا غريب — وليس في غربة هناء
فاستضحك الله من كلامي — وقال: هذا هو الغباء
لبنان أرض ككل أرض — وناسه والورى سواء
فأي شيء تشتاق فيه؟ — فقلت: ما سرني وساء
فأشرف الله في علاه — يشهد لبنان في المساء
فقال: ما أنت ذو جنون — وإنما أنت ذو وفاء
فإن لبنان ليس طودا — ولا بلادا، لكن سماء!

والشاعر العظيم ايليا أبو ماضي كان نموذجا للحيرة والغربة .. فهو اللبناني الغريب بين اللبنانيين .. وهو العربي الغريب بين الامريكان .. وهو الشاعر الغريب دائما ، يرى مالا يرى الناس ، ويسمع مالا يسمعون .. ويفكر في الحزن وسط البهجة ، وهو المبتهج الحزين .. يرى البداية عند النهاية ، ويتوجع بالنهاية قبل البداية .. من هذا المجنون؟ ليس مجنونا! من هذا العاقل؟ ليس عاقلا! من هذا المأخوذ؟ انه الحاضر دائما في خضم الكون .. من هذا الحاضر؟ انه الغائب في متاهات الجمال والجلال .

يقول ايليا أبو ماضي:

قالت وصفت لنا الرحيق وكوبها — وصريعها ومديرها والعاصرا
والحقل والفلاح فيه سائرا — عند المسا يرعى القطيع السائرا
ووقفت عند البحر يهدر موجه — فرجعت بالالفاظ بحرا هادرا

واريتنا في كل ثغر روضة   واريتنا في كل روض طائرا
لكن اذا سأل امرؤ عنك امرا   أبصرت محتارا يخاطب حائرا
من أنت يا هذا ؟ فقلت لها : أنا   كالكهرباء أرى خفيا ظاهرا
قالت : لعمرك زدت نفسي ضلة   ما كان ضرك لو وصفت الشاعرا
فأجبتها : هو من يسائل نفسه   عن نفسه في صبحه ومسائه
والعين سر سهادها ورقادها   والقلب سر قنوطه ورجائه
قالت : اتعرف من وصفت ؟فقلت : من ؟   قالت : وصفت الفيلسوف الكافرا
يا شاعر الدنيا وفيك حصافة   ما كان ضرك لو صفت الشاعرا ؟
فقلت : هو امرؤ يهوى العقارا   كما يهوى مغازلة العذارى
ملول لا يدوم على ولاء   ولكن لا يدوم على عداء
اخو لب ولكن لا اراده   وذو زهد ولكن بالزهاده
يميل إلى الدعابة والمزاح   ولو بين الاسنة والرماح
فقالت : جئت بالكلم البديع   ولكن ما وصفت سوى الخليع

* * *

وخفت اعتراضها عني فقلت : اذن   هو الذي ابدا يبكي من الزمن
يشكو السقام وما في جسمه مرض   والسهد هو قريب العهد بالوسن
والهجر ، وهو بمرأى من احبته   والاسر ، وهو طليق الروح والبدن
ولا يرى حسنا في الأرض يألفه   أو يشتهيه وكم في الأرض من حسن
ينوح في الروض والأشجار مورقة   كما ينوح في الاطلال والدمن
فقاطعتني وقالت : قد بعت بذا   ما ذي الصفات صفات الشاعر الفطن
قلت : مهلا اذا ضللت وعذرا   ربما اخطأ الحكيم وضلا
هو من ترسم الجمال يداه   فتراه في الطرس اشهى وأحلى
ويرينا ما ليس يبقى سيبقى   ويرينا ما ليس يبلى سيبلى
هو من تراه سائراً فوق الثرى   وكان فوق فؤاده خطواته
ان نام فالأرواح في عبراته   واذا شد فالحب في نغماته
يبكي مع النائي على أوطانه   ويشارك المحزون في عبراته
وتغير الأيام قلب فتاته   ويظل ذا كلف بقلب فتاته
هو من يعيش لغيره ويظنه   من ليس يفهمه يعيش لذاته !

وإذا كان الشاعر العظيم ميخائيل نعيمة هو صاحب اجمل الاجابات في الشعر المهجري ، فان ايليا ابو ماضي هو صاحب اروع الاسئلة . وهو كثير التساؤل يريد ان يعرف . ولكن الذي يريده كثير كثير .. والذي يقدر عليه قليل قليل .. ثم انه لا يعرف بالضبط ماهذه الحقيقة فكل انسان يريد شيئا ويرى أن هذا الذي يريد هو الحق .. ولا شيء الا الحق وكل الحق فاذا تنوعت الحقائق ، فأين الحقيقة الواحدة .

يقول ايليا أبو ماضي :

ذهبت سائلاً عن خير شيء	لأعرف كنه اخلاق البريسة
فقالت لي الكنيسة : خير شيء	هو الزهد الذي يمحو الخطية
وقالت لي الشريعة : خير شيء	شمول العدل أبناء الرعيسة
وقال اخو الحصافة : خير شيء	هو الحق الصراح بلا مريه
وقال أخو الجهالة : خير شيء	سرور النفس في الدنيا الدنيه
وقال لي الفتى : وصل الصبايا	وقالت لي : الهوى البنت الصبية
ولما أن خلوت سألت نفسي	لاعرف رايها في ذي القضية
فقالت لا أرى خيراً وابقى	من الاحسان للنفس الشقية

واشهر قصائد ايليا ابو ماضي قصيدته الشهيرة « الطلاسم » اى رموز والغاز هذا الكون .. والتي تنتهي كل مقطوعة فيها بكلمتي : لست أدري ..

وقد وصفه الشاعر ميخائيل نعيمه بانه شاعر « لا أدري » اى من المدرسة الفلسفية الشهيرة باسم مدرسة « اللاأدرية » ولا أرى أن هذه شتيمة أو سخرية .. فما أكثر الذي نرى ولا نفهم ونحاول ، وما اقل الذي ندريه عن الدنيا حولنا ، والكون من فوقنا وتحتنا ، ثم لا ندري انفسنا .. ولا أمل في ان ندري .. فالعقل صغير والعمر قصير وعلامات الاستفهام جبال فوق جبال ..

يقول ايليا أبو ماضي في اروع غابة « من الاسئلة » :

جئت لا اعلم من اين ولكني اتيت
ولقد ابصرت قدامي طريقا فمشيت
وسأبقى ماشيا ان شئت هذا أم أبيت
كيف جئت ؟ كيف أبصرت طريقي ؟
لست أدري !

وطريقي ما طريقي ؟ أطويل أم قصير ؟
هل انا أصعد أم أهبط فيه وأغور
انا السائر في الدرب أم الدرب يسير
ام كلانا واقف والدهر يجري
لست أدري !

* * *

انت يابحر اسير آه ما اعظم اسرك
انت مثلي ايها الجبار لا تملك امرك
اشبهت حالك حالي وحكى عذري عذرك
فمتى انجو من الأسر وتنجو ؟
لست ادري !

* * *

قد سألت السحب في الافاق هل تذكر رملك ؟
وسألت الشجر المورق هل يعرف فضلك ؟
وسألت الدر في الاعناق هل تذكر اصلك
وكأني خلتها قالت جميعا :
لست أدري !

أمن الدير أم الليل اكتئابي ؟
لست أدري !

* * *

قد دخلت الدير استنطق فيه الناسكينا
فاذا القوم من الحيرة مثلي باهتونا
غلب اليأس عليهم ، فهم مستسلمونا
واذا بالباب مكتوب عليه :
لست ادري !
انني اشهد في نفسي صراعا وعراكا
وأرى ذاتي شيطانا واحيانا ملاكا
هل انا شخصان يأبى هذا مع ذا اشتراكا

أم تراني واهما فيما أراه ؟
لست أدرى !

* * *

رب بستان قد قضيت العمر احمى شجره
ومنعت الناس ان تقطف منه زهره
جاءت الاطيار فى الفجر فناشت ثمره
ألاطيار السما البستان أم لى ؟
لست أدرى !
رب قبح عند (زيد) وهو حسن عند (بكر)
فهما ضدان فيه وهو وهم عند (عمرو)
فمن الصادق فيما يدعيه . ليت شعرى
ولماذا ليس للحسن قياس ؟
لست ادرى !

* * *

قد يصير الشوك اكليلا لملك او لنبى
ويصير الورد فى عروة لص أو بغى
أيغار الشوك فى الحقل من الزهر الجنى
أم ترى يحسبه احقر منه ؟
لست أدرى !

* * *

أنا افصح من عصفورة الوادى وأعذب ؟
ومن الزهرة أشهى ؟ وشذى الزهرة اطيب ؟
ومن الحية ادهى ؟ ومن النحلة أغرب ؟
أم انا اوضع من هذى وأدنى ؟
لست أدرى !

* * *

كلها مثلى تحيا ، كلها مثلى تموت
ولها مثلى شراب ولها مثلى قوت
وانتباه ورقاد وحديث وسكوت

فبما امتاز عنها ليت شعرى ؟
لست أدرى !

* * *

اننى جئت وامضى وانا لا اعلم
انا لغز .. وذهابى كمجيئى طلسم
والذى أوجد هذا اللغز لغز مبهم
لاتجادل ذا الحجا من قال إنى :
لست أدرى !

حاول ايليا ابو ماضى الشاعر التاجر ، ان يجد المال فلم يجد ..ان يجد الاجابة عن سؤال واحد .. فوجد الوف الاسئلة .. وكانت الأسئلة هى الاجابة : كل شيء لغز .. حتى هو لغز .. خصوصا هو لغز .. اراد ان يكون تاجرا ، فكان شاعرا ، اراد ان يكون شاعرا فكان حائرا .. اشهر الحائرين ، أروع الحائرين فى القرن العشرين .

كم فتاة مثل ليلى وفتى كابن الملوح
انفقا الساعات فى الشاطيء تشكو وهو يشرح
كلما حدث اصغت واذا قالت ترنح
أحفيف الموج سر ضيعاه ؟
لست أدرى !
قيل لى فى الدير قوم ادركوا سر الحياة
غير اننى لم اجد غير عقول اسنات
وقلوب بليت واذا المنى فهى رفات
ما انا اعمى فهل غير اعمى ؟
لست ادرى !

* * *

قيل ادرى الناس بالاسرار سكان الصوامع
قلت : ان صح الذى قالوا فان السر شائع
عجبا كيف ترى الشمس عيونا فى البراقع
والتى لم تتبرقع لاتراها ؟

لست ادرى !

ان تك العزلة نسكا وتقى فالذئب راهب
وعرين الليث دير حبه فرض وواجب
ليت شعرى أيميت النسك أم يحيى المواهب
كيف يمحو الشك وهو اثما آثم ؟!
لست أدرى !

انني ابصرت فى الدير ورودا فى سياج
قنعت بعد الندى الطاهر بالماء الاجاج
حولها النور الذى يحيى وترضى بالدياجى
أمن الحكمة قتل القلب صبرا ؟
لست أدرى !

قدخلت الدير عند الفجر كالفجر الطروب
وتركت الدير عند الليل كالليل الغضوب
كان فى نفسى كرب ، صار فى نفسى كروب

الله قال لى : اكتشفنى
فكانت دراستى للتاريخ

ما وجه الشبه بين طفل يولد فى نيويورك وطفل يولد فى واحة سيوه وطفل يولد فى جزيرة قبرص وطفل فى كردفان ؟ .. كلهم اطفال . واسلوبهم فى التعبير عن احتياجاتهم واحد ، ومراحل النمو من الطفولة الى الشباب الى الرجولة الى الشيخوخة الى الموت واحدة .. ولكن كل واحد من هؤلاء يختلف فى كيفية العثور على احتياجاته وكيفية الاستمرار فى حياته بعد ذلك .

أو بعبارة اخرى : كل واحد من هؤلاء تواجهه تحديات البيئة . ولا شىء يدل عليه وعلى قدرته وعلى مستقبله الا مواجهته لهذه التحديات وتغلبه عليها .. بشرط ان تكون التحديات صعبة لا مستحيلة . فالتحديات الصعبة هى التى يمكن ان تبذل جهداً فى التغلب عليها .. وانما محاولة تحدى المستحيل لا يعتبر تحديا .. فنحن لا نتحدى الموت . لان الموت نهاية لا مفر منها ، وانما نحن نتحدى المرض .. ونتحدى الجوع ونتحدى الفقر ..

بهذه النظرية اتجه عميد المؤرخين الانجليز ارنولد توينبى الى دراسة تاريخ البشرية كلها . وهو يدرس التاريخ على شكل حضارات . لا مجتمعات ولا شعوب ولا افراد ولكن كلها معا . فالحضارة تضم شعوبا والشعوب تضم مجتمعات . والمجتمعات تضم عائلات والعائلات تضم افرادا .. والفرد نتاج التاريخ الانسانى كله فى حضارة من الحضارات .

وقد اهتدى المؤرخ الكبير توينبى الى فكرة « الحضارة » او ان هناك حضارات تتشابه رغم اختلاف الظروف ، كتشابه هؤلاء الاطفال رغم اختلاف البيئات عندما كان يدرس الحضارة الاغريقية .. فقد لاحظ ان هناك تشابها بينها وبين حضارات اخرى .. احدى وعشرين حضارة . اولها الحضارة المصرية القديمة قبل الميلاد بأربعة آلاف سنة .. وآخرها الحضارة الغربية قبل القرن السابع الميلادى ..

ولهذه الحضارات كما للانسان والحيوان والنبات : بذور ونمو وازدهار ينضج وذبول وموت .. طفولة وشباب ورجولة وشيخوخة وموت .. ولكن الحضارة لا تموت .. كما أن الانسانية لا تموت .. وانما تتولد فيها عند مرحلة الشيخوخة بذور نمو الكائنات الجديدة وازدهارها .. وتداخل حضارات اخرى وتفاعلها وانفعالها وردود مقاومتها او انهيارها ضحية حضارة اخرى ..

وكل حضارة لها تحدياتها التى تواجهها وتحاول ان تتغلب عليها .. ثم تتغلب عليها بعض الوقت .. وتعجز عن مواجهتها ثم انهيارها .. فتحديات الحضارة المصرية هو التفكك .. وعدم الترابط .. ولذلك استطاعت الحضارة المصرية ان تحقق الوحدة والتكامل والدفاع عنها .. وهناك حضارة كل تحديها الاكبر هو البحر .. وحضارة تتحدى الصحراء وحضارة تتحدى الغابات .. وحضارة تتحدى الجليد الذى ولدت فيه .. فالحضارات التى ولدت على شواطىء البحار ، كان البحر عقبة تريد ان تعرفه وان تتجاوزه وان تعبره .. وحضارة ولدت فى الغابات فكانت الغابات مصدرا للحياة وفى نفس الوقت عائقا وعازلا .. وحضارات ولدت فى الجليد .. وعاشت فى بيوت من الجليد .. ولكنها لم تستطع ان تتغلب على الجليد ولا ان تقهره .

وكل حضارة لكى تتقدم فلابد ان تتولد فيها قواها التى تدفعها الى الامام .. هذه القوة تظهر الى الاقلية الخلاقة .. أو الاقلية المبدعة .. هذه الاقلية هى التى تتسلط وتحكم بما عندها من حلول جديدة للتحديات القديمة .. ومادامت هذه الحلول نافعة للاغلبية ، ظلت هذه الاقلية المبدعة من رجال الدين والمفكرين والعلماء حاكمة للاغلبية السلبية .

وعند انحدار الحضارة تظل الاقلية هى الحاكمة ، ولكن هذه الاقلية تحكم بالقوة السياسية او العسكرية لا بقوة الابداع والخلق . ويتفكك المجتمع وتتباعد الطبقات والأديان والاجناس .. فتجد هذه الاقلية ان وسيلتها الوحيدة فى السيطرة هى ربط المجتمع بالقوة .. ويرى المجتمع انه يجب ان يتضامن مع مجتمعات او شعوب او دول اخرى لعله يجد حلا واحدا لمشاكله ومشاكل هذه الشعوب ـ أى انه بعد ان عجز عن حل مشاكله هو ، فانه يتضامن مع شعوب اخرى لها مشاكل ، لعل الشعوب معقدة ومختلفة . ولكن الشىء الوحيد الذى يجمع بينها هو الضعف والتفكك والانهيار .. وهذه الرغبة فى الوحدة الشاملة ليست دليلا على القوة وانما هى اكبر دليل على الضعف . ونحن هنا امام اكذوبة

شاملة . فكل شعب من شعوب هذه الحضارة المتهارة يعلم انه ضعيف وانه عاجز .. وهذه هي الحقيقة الوحيدة ولكن الوهم هو ان يتصور ان الشعوب الاخرى لديها الحل .. او لا يكون الحل الا بها ومعها .. والاكذوبة الثانية هى ان هذه الشعوب تتصور انها معا اقوى مما هى وحدها .. اى ضعف + ضعف = شعبا قويا .. وهذا الكذب الشامل والخداع العام هو من أهم مظاهر الانحلال .. ثم يجيء الانحلال ..

وكل محاولة لانقاذ حضارة منحلة هى محاولة فاشلة . ويجب ان تفشل لانها يجب أن تموت ولا مفر من الموت .. وابناء هذه الحضارة يعلمون تماما انهم بلغوا الدرك الاسفل من الانحطاط . ولكنهم يغالطون ثم يصدقون انفسهم .. يقول توينبي : انهم كالذين يضعون نبيذا جديدا فى اكواب اثرية .. هذه الاكواب لن تتحمل هذا النبيذ .. سوف ينساب النبيذ على الارض ـ فلا ابقينا النبيذ ولا ابقينا الاكواب الاثرية !

او بعبارة اخرى : كأننا وضعنا موتورا جديدا فى عربة كارو .. ان هذا الموتور قادر على ان يفك ، الاعواد الخشبية للعربة ويسقط ايضا على ارض .. فلا بقيت العربة ولا فائدة من الموتور !

وقد درس المؤرخ العظيم توينبى تاريخ الانسانية كلها . وكان اهتمامه اعظم باسباب انهيار هذه الحضارات . ولم يكن من همه ان يؤكد ان كل الحضارات تنحدر واننا نشهد انهيار الحضارة الغربية وانه لذلك لا أمل فى انقاذها فعلا لا أمل ولكن لابد ان تمر الحضارة بالمراحل الضرورية لاى كائن حى .. وسوف تتوالد فيها قوى الابداع هذه القوى هى التى سوف تجر عربات التاريخ .. اما هذه القوة الابداعية فهى النبيذ الجديد فى اكواب جديدة .. هذه الاكواب هى القادرة على ان تحفظ لنا النبيذ .. تماما كتركيب موتور جديد لسيارة جديدة .. هو يحفظها وهى تحفظه ايضا .

وقد غضب كثير من المؤرخين والساسة على هذا المؤرخ العظيم لانه صارحهم وصدمهم ورأى ما لم يره احد فقال ان الحضارة الامريكية مهما علت فهى زائلة .. انها ترتفع وتسحب جذورها معها الى السماء وسوف تحتلها الحضارة الغربية الحديثة ..

وقد استمعت الى محاضرة لارنولد توينبى فى مدينة سيدنى فى استراليا سنة ١٩٥٩ ويومها قال لشعب استراليا سياستكم خاطئة يجب ان تفتحوا الابواب

للشعوب الصفراء بالذوق .. والا دخلوا بالقوة ! وكانت ، ولا تزال ، سياسة استراليا بيضاء اى لا تسمح بدخول الشعوب الصفراء أو السوداء .. فقط للبيض . وعدد سكان استراليا ١٢ مليونا بينما هى قارة تتسع لالف مليون نسمة .. والى الشمال منها تقع اندونيسيا وعددها ١٥٠ مليونا وشمالها تقع الهند وعددها ٩٠٠ مليون والى الشرق منها تقع الصين وعددها اكثر من الف مليون واليابان ١٥٠ مليونا .. فكيف تبقى قارة استراليا خالية من السكان والدول فوقها تضج من الزحام حول قليل من الطعام .

لابد من ان يفتحوا الأبواب والا .. وقبل ان يكمل توينبى عبارته كانت الزوارق تجىء فى الليل اشباحا سوداء وينزل منها على الصخور جياع من الصين ومن الهند .. يدخلون ولا يخرجون .. بل ان أصحاب رءوس الأموال هم الذين استدرجوا هذه العمالة الرخيصة ـ حتى يكسبوا أكثر .. ودخلت الألوان الصفراء والسوداء وسوف تدخل بالذوق وبالقوة وبجشع أصحاب رءوس الأموال !

وكانت شجاعة توينبى عظيمة عندما أعلن بعد هزيمة مصر سنة ١٩٦٧ انه حتى لو انتصرت اسرائيل فى كل الحروب على العرب فلا بقاء لها فى هذه المنطقة لا حياة لها .. سوف تتمزق من الداخل ، ان هذه الحروب سوف تقضى على اسرائيل : فالحرب المستمرة ترهق الشعوب اليهودية فى اسرائيل وفى خارجها .. وهذه الحروب سوف تجعل العداوة العربية لاسرائيل ابدية .. وسوف يهرب يهود اسرائيل إلى خارجها لينعموا بالرفاهية التى ينعم بها اليهود الامريكان . ثم ان المجتمع القائم على الحرب والاستعداد .. والتعبئة المستمرة كان له نظير فى التاريخ وهو مجتمع اسبرطه .. وكان مجتمعنا اغريقيا رجوليا عسكريا .. حتى المرأة كان يعدونها للقتال .. وكانت تدخل فى سباق مع الرجل وهى عارية تماماً .. وكان هذا المجتمع يعرض أطفاله لعوامل الطبيعة فالطفل الذى لم يقتله البرد والحر هو الذى يعيش .. والذى يمرض يجب ان يموت .. حتى الرجال فى اسبرطة اذا عجزوا جنسيا اتوا لزوجاتهم بشباب اقوى ليمتع الزوجة ويحمى الاولاد .. وذهبت اسبرطة وسوف تذهب اسرائيل الا .. اذا استطاعت بالسلام والتوافق مع كل جيرانها .. ليعترفوا بها وتعترف بهم !

قال ذلك واسرائيل قد اكتسحت كل الجبهات وفرضت علينا هزيمة عسكرية ونفسية واقتصادية واجتماعية وتاريخية وفرضت علينا الكفر السياسى لكل

القيم الثورية والبطولية .. ولم يكن هذا الرأى جديدا او من وحى ساعتها . وانما هذا الرأى قد أعلنه فى كتابه « دراسة التاريخ » ١٠ ـ مجلدات ـ الفها فى ٢٧ عاما .

قال مستنكرا ما تفعله اسرائيل بالشعب الفلسطينى .

من ابشع سخريات التاريخ التى تدل على الطبيعة الشريرة للانسان ان اليهودى الجديد المتطرف الوطنية بسبب الفظائع التى ارتكبها النازيون ضده والتى ارتكبت ضده فى كل التاريخ نجده قد انتقم من الشعب الفلسطينى فهو يرى ان فلسطين هى أرض اجداده . صحيح ان يهود اسرائيل لم يرتكبوا نفس الجرائم التى ارتكبها النازى بوضعهم الفلسطينيين فى معسكرات الاعتقال أو احراقهم فى غرف الغاز ولكن طردوهم من ارضهم ، نزعوا أرض الاغلبية التى ورثوها عن ابائهم واجدادهم .. بعد ان زرعوها وحرثوها اجيالا عديدة ثم جردوهم ايضا من كل ممتلكاتهم التى كان فى استطاعتهم ان يأخذوها معهم .. لقد حولوهم الى لاجئين على ارضهم .

وقد ادى هذا الواقع الجديد الى ان تغيرت اساليب حياة اليهود : انتقلوا الى العمل اليدوى بدلا من العمل العقلى ، والى الحياة فى الريف ، بدلا من سكنى المدن ، والى منتجين بدلا من سماسرة ، وزراعيين بدلا من مموِلين ، الى محاربين بدلا من بقالين ، والى ارهابيين بدلا من شهداء .

والعرب اكثر كما واليهود افضل كيفا .. والعرب اقل طاقة واليهود اكبر طاقة .. ولابد من التوافق ولابد من التلاؤم والتوازن .. ولابد ان يسود السلام . فبغير السلام لا حياة ليهود اسرائيل ولا اسرائيل نفسها ـ وهذا ما أعلنه توينبى ولم يشأ ان يغيره رغم الهجوم العنيف عليه من كل من المنظمات الصهيونية فى بريطانيا وفى امريكا !

وللاستاذ عباس العقاد نظرية فى ذلك . فاثناء الحرب العالمية الثانية كان يهاجم هتلر والنازية والفاشية والشيوعية بعنف ـ انه ضد سلطان الفرد .. وضد النظريات الشمولية وضياع قيمة الانسان وحريته ..

وكان يقول ان هتلر لابد ان ينهزم والديمقراطية لابد أن تنتصر !

اما نظريته فهى : ان الذى يرى هتلر يغزو الدول الاوروبية واحدة بعد واحدة ويقول انه منتصر او سوف ينتصر فهو انسان « ينظر » الى الواقع ولكنه لا يفكر فى الذى يراه . فاذا فكر فسوف يرى ان الطغيان نهايته معروفة . وان

الغرور والحقد وامتهان الانسان له نهاية واحدة : سقوط الدولة التي على راسها هذا الفرد الطاغية .. تماما كالذى كان يرى المعسكر الديموقراطي ينهدم ويتراجع فيقول ان الديمقراطية تنهار امام النازية .. انه هو ايضا « ينظر » ولا يرى .

أما الذى « يرى » فهو الذى لا يبهره ما ينظر اليه .. انما هو الذى يقول رغم الانتصار الظاهرى لهتلر انه لابد ان ينهزم .

فأكثر الناس على أيام العقاد ينظرون إلى قوات المانيا ، ولا يرون الاسس الوحشية التي قامت عليها .. والتي تؤكد انها لابد ان تنهار وان ينهزم الالمان مهما استولوا على الارض ومهما كانت الاسرى بمئات الالوف .

وكان من رأى العقاد ايضا فى قيام دولة اسرائيل انها اذا لم تتصرف على أنها دولة ، وأن جيرانها دول لها حقوق واجبة الاحترام ، فلا بقاء لها .. ومادام المتهوسون دينيا وسياسيا يتصرفون على انهم « عصابة دولية » فلا حياة لها الا اذا مات هؤلاء المجانين او اقتلع المجتمع الاسرائيلى جذورهم .. فاذا فعل فهذه هي الخطوة الاولى نحو السلام فالسلام يبدأ من داخل اسرائيل وبعد ذلك من خارجها .

وقد صدقت نبوءة كل من توينبي والعقاد .. فالسلام بدأ بغزو اسرائيل من داخلها وقد كان نجاح السلام مع مصر اروع نموذج لما يفعله الحوار والتفاهم والتوافق . وما سوف يفعله فى الشرق الاوسط .. ولا سلام فى الشرق الاوسط وبين اسرائيل وكل العرب ما لم يجد الشعب الفلسطينى حقه على أرضه .. هذه هى قضية اليوم وبعد الغد ايضا .

★ ★ ★

وهناك نوعان من الحضارات :

الحضارة الاسرة والحضارة الاسيرة .. او الحضارة السيدة والحضارة الخادمة .. أو الحضارة النامية والحضارة المبتسرة أو المجهضة ..

مثلا : نجد على اطراف العواصم الكبرى قرى صغيرة هذه القرى بعيدة عن مركز النشاط التجارى والسياسي والاجتماعي فى العاصمة فهى اقل انفعالا وتفاعلا .. ولكن هذه القرى تستخدم كل ادوات الحياة الحديثة ، بينما تحتفظ باساليبها القديمة ، فلا هى قديمة ولا هي حديثة .. مثلا قرى الجيزة القريبة من القاهرة فى كل بيت تليفزيون ملون فى زريبة .. وفيها الثلاجات فوق الافران

وفيها التليفون ايضا والسيارة امام الباب .. ولكن الاطفال يستحمون فى المصارف والنساء يغسلن الحلل والاطباق فى ماء البرك !

وفى دراسة للصحة العالمية عن الريف المصرى اعترف بعض الفلاحين بان ماء الترع يقويهم جنسيا ؟ !

والخطأ فى هذا التفكير ان ماء الترع يحدث التهابا ، فظنوا ان هذا الالتهاب والحرقان هو الحرارة والهياج الجنسى ! !

وفى القرى القريبة من الرياض عاصمة السعودية لاحظت ان المرأة البدوية تركب السيارة ويذهبن الى السوبر ماركت .. وتعود الى بيتها الذى هو خيمة مصنوعة من شعر الابل وعلى الخيمة يوجد ايريال تليفزيونى . فاذا جلست هذه السيدة للطعام مع زوجها واولادها فعلى الارض ، ولا ترابيزه ولا حتى طبلية . ويأكل الجميع باصابعهم ويمسحونها فى ملابسهم او فى الخيمة .. وكل ما عدا ذلك من عادات فهى بدوية لا علاقة لها بالحضارة الغربية التى تسود حياة اهل الرياض ! !

وكذلك هناك حضارات « اسيرة » للحضارة الامريكية .. وتقع على حدود امريكا وكندا .. مثل حضارة الاسكيمو .. هؤلاء الاسكيمو يعيشون فى صحارى جليدية .. وبيوتهم من جليد .. وملابسهم من جلود الحيوانات وعرباتهم تجرها الكلاب .. ولم يفلحوا فى ان يذوبوا فى الحضارة الامريكية ولم يفلحوا فى ان يتغلبوا على تحديات الصحارى الجليدية .. فكانت لهم عاداتهم وتقاليدهم ومحاولاتهم المستمرة فى ان يتحرروا من الغرب وان يتغلبوا على الصحراء المتجمدة ..

وهناك حضارات اخرى اسيرة فى اماكن مختلفة من العالم ..

★ ★ ★

ولماذا التاريخ وما الفائدة ؟

يقول المؤرخ توينبى ان المؤرخ قد تلقى نداء من الله سبحانه وتعالى وقال له : تعال ابحث عنى تجدنى .. اكتشفنى !

فالله هو الذى يحرك التاريخ ويطوره فى كل مراحله .. والله قد وضع للتواريخ قانونا .

والمؤرخ الذى وهبه الله هذه القدرة على الاستطلاع والتفهم والتحليل هو

الذى هداه الى قوانين التاريخ الابداعية والمتطورة .

والمؤرخ يرى ما لايراه غيره .. ولكنه يحاول ان يوضح لنفسه ولغيره كل الذى وجده ، ويدفعنا جميعا الى ان نسير وراءه ونفكر :

يقول ان نابليون العظيم عندما نظر الى الاهرام وقال ان اربعة آلاف سنة تنظر اليكم من فوق هذه الاهرامات ، قد رأى بعبقريته ما لم يره مراد بك الذى حشر قواته لمحاربة نابليون .. ومنذ تلك اللحظة عادت للحياة أحدى عشرة حضارة لم يكن الغرب يعرف عنها الكثير : المصرية والبابلية والسومرية والمناوية والحيثيته والهندية والصينية والمايا واليوكتان والمكسيكية والانديزية !

ملحوظة : هناك طريقتان للاعجاب بهذا المؤرخ العظيم : ان تقرأ كتابه الضخم « دراسة للتاريخ » فى عشرة اجزاء أو تقرأ ملخصا لذلك فى مجلد واحد كتبه الاستاذ سوبرفيل : وضوح وجمال ومتعة مؤكدة !

شاعر الثورة الفرنسية :
فى زفافه الجنائزى !

هذا الشاعر اندريه سألوه وهو طفل :

ما الذى تريده عندما تكبر ؟

فأجاب : أن أموت صغيرا !

وفى عيد ميلاده السادس عشر طلبوا اليه أن يلقى قصيدة من نظمه فأخرج ورقة من جيبه وراح يقرأ :

لاأحسد النجوم اللامعة ..
لاأحسد الشمس المشتعلة أبدا
اننى أحب أن أكون شهابا
يلمع وهو يحترق .. ويحترق
لامعا ساقطا ميتا شابا !
هذا أملى .. ساعدونى أن
أموت نجما فى السماء !

فاقترب أحد الأطباء وهمس فى أذن والدته :

لاترفعى عينك عن هذا الشاب إنه يريد أن يموت .. سوف يعرض نفسه للخطر .. ويكون ذلك نوعا من الانتحار .. بيد الغير لا بيده هو !

وكان ذلك هو التشخيص الصحيح لاعماق الشاعر الفرنسى أندريه شينيه (١٧٦٢ ـ ١٧٩٤) .. أنه أعظم شعراء فرنسا فى القرن الثامن عشر .. وفى شعره نجوم وكواكب وشموس من المعانى والخيالات والهذيان .. أنها نيران متفاوتة الحرارة متقاربة اللهيب .

كأنه أشعل النار فى ملابسه وراح يتهادى سعيدا بهذا الزفاف « الجنائزى » .. كما وصفه الأديب شاتوبريان .

أبوه كان القنصل العام الفرنسي فى أسطنبول . وأمه يونانية .. وهي التي قرأت له الشعر الأغريقي القديم .. وهي التي فسرت له ما الذى يقصده الشاعر هوميروس .. وشرحت له الفلسفة الاغريقية .. وهي التي ملأت أحلامه بالالهة والابطال .. وفى كل مرة يسألها عن أية حكاية .. تبادر الأم فترويها له .. ولكن بعد لحظات يطلب من أمه أن تسمعها منه .. فإذا هو يروى الأسطورة بشكل آخر .. ويضيف اليها من الأحداث والمعانى ماجعل الأم تقول له : لاتفعل ذلك .. أنت يجب أن ترويها كما هي .. هذه أمانة تاريخية ! .. ولكن عندما تكتبها فافعل بها ماتشاء !

وفى أحدى الليالى قفزت الأم من سريرها على صراخ فى غرفة ولديها اندريه وماري جوزيف ـ وكلاهما شاعر عظيم ـ فوجدت اندريه ملقى على الأرض .. بينما أخوه ينظر اليه من فوق السرير .. وأعتذر لها أن اندريه فقط كان يعيد تمثيل بعض المشاهد من ملحمة الالياذة .. وكان يؤديها باللغة الاغريقية القديمة . !

وشعرت الأم بالقلق على ولدها اندريه .. وطلبت من والده أن يجد حلا لهذا الجنون المبكر .. واشترك عدد من القساوسة والحاخامات والمشايخ فى دراسة حال الشاب أندريه .. ولكن لم يجدوه مجنونا وإنما هو شاعر يتحمس كثيرا جدا لكل ماينظم من شعر .. ثم يؤديه بصورة مسرحية ..

شيء واحد اندهش له الشاعر اندريه منذ طفولته وهو كيف يشنق الممثل نفسه على المسرح ومع ذلك لايموت .. فهل الممثل عندما يقوم بدور المحكوم عليه بالاعدام لايموت فعلا ؟ كيف يمثل الموت ؟ لابد أنهم يلفون حبلا غير محكم حول عنق الممثل ـ كده وكده ـ ثم يسقط على الأرض ـ مع أنه لم يمت .. انشغل الشاعر بتطبيق هذه الفكرة .. فوضع عددا من الكتل الخشبية تحت قدميه .. ثم لف حبلا حول عنقه وتعلق الحبل من أحدى الأشجار .. وكان الحبل محكما .. وتدحرجت الأخشاب من تحت قدميه .. فالتف الحبل بأحكام شديد حول عنقه .. ولم ينقذه فى آخر لحظة إلا أن الغصن قد أنكسر عندما قفزت أمه تفك الحبل وهو بين الحياة والموت !

كيف تمكنت منه فكرة الموت مبكرا .. أو فكرة الانتحار ؟

أن أندريه شينيه شديد الحساسية مرهف الوجدان .. كان مفتونا بكل الشعراء الأوروبيين الذين ماتوا فى سن صغيرة مثل سن السيد المسيح عليه

السلام ـ حول الثلاثين .. وكان يرى أن هذه هي سن الشعراء .. أما المؤرخون ففي الخمسين والفلاسفة في الستين .. ورجال الدين في السبعين ـ وبعد ذلك لايصح للانسان أن يعيش فخير للانسان أن يموت عاقلا من أن يعيش مجنونا !

كان صعلوكا ـ أو أراد أن يظل كذلك .. لايعمل .. ولا يهدأ . ولا يفكر في البحث عن مكان يعيش فيه مستقلا عن والديه .. أنه يستطيع أن يكون منعزلا تماما حتى لو عاش في بيت به ألف شخص .. فقد وهبه الله نعمة « السرحان » .. أن يكون بين الناس ولا يشعر بهم .. أن ينظر اليهم ولا يراهم .. أن يسمعهم ولا يرد عليهم .. أن يصطدم بهم ولا يتوقف ، كأنه أرتطم بالجدران .

ولكن والدته أصرت على أن يعمل .. فوجدوا له عملا أقرب إلى النفى والطرد .. فعمل في سفارة فرنسا في لندن .. بعيدا ووسط مجتمع مختلف . منضبط . فالمجتمع الانجليزى الذى أمتدحه فلاسفة الثورة الفرنسية سوف يعيد إلى الابن الضال عقله .. وسوف يعيد إلى العقل هدوءه .. وإلى الهدوء أسرة صغيرة تتربع فيها فتاة جميلة .. ولا يهم أن تكون أنجليزية أو فرنسية .. المهم أن يجد الابن منطقا يعيش بمقتضاه .. واحس أندريه أن الحياة في لندن عذاب في عذاب .. وأنه ظل طول عمره القصير يبحث عن سبب قوى للهرب .. ثم وجده أخيرا . وهو الآن يريد أن يهرب من لندن إلى فرنسا .. إلى باريس .

ولما قامت الثورة الفرنسية ، وجد السبب الأقوى لأن يشارك في الزفاف الجديد : زفاف الحرية إلى المساواة إلى الأخوة إلى الحضارة .. فنظم شعرا يبارك الثورة .. بعث بالقصائد والاغنيات والهتافات .. لقد أحس الشاعر أندريه شينيه أنه ولد للمرة الأولى .. وأن هذه الثورة هي الأم الحقيقية لكل فكر وفن .

وعاد إلى باريس .. وفي الشوارع والمظاهرات وجد نفسه على أكتاف الجماهير يصرخ ويغنى ويترنم ويهتف .. ولكن شيئا أفسد عليه هذه السعادة التاريخية : الدم والعنف والقسوة .

فهاجم الثورة الفرنسية ! وأمتدح الملك لويس السادس عشر الذى شنقوه هو وزوجته النمساوية مارى انطوانيت .. فقد كان الملك طيبا سخيا .. والذين افسدوا صورته عند الناس : حاشيته وقبلهم جميعا : زوجته الاجنبية المسرفة المبذرة الطائشة .

وهى مسرفة فقد كانت معذبة فى حياتها .. فزوجها عاجز جنسيا .. حاول .. وحاول الأطباء معه ولكنه لم يفلح .. وأتهمها الشعب الفرنسى بأنها عاقر .. وقد نسب إليها الشعب الفرنسى أنها قالت فى مواجهة مظاهرات الشعب الذى لم يجد الخبز : بأن الشعب اذا لم يجد الخبز ، فلماذا لايأكل كعكا ؟ !

وقد ثبت تاريخيا أنها لم تقل هذه العبارة .. فهى شابة عاقلة ذكية كريمة سخية بل أنها سفيهة فى توزيع ثروتها على الصديقات وكل من طلب منها مساعدة مادية أو أدبية !

وغضب زعماء الثورة الفرنسية على اندريه شينيه .. فألقوا به فى سجن الباستيل خمسة شهور .. ثم افرجوا عنه قبل يومين من أعدام روبسبير زعيم الثورة .. والذى أنتهى بوفاته « زمن الرعب » ـ ولو أجلوا أعدامه يومين أو ثلاثة لعاش الشاعر ، كما عاش أخوه عظيم الاحترام بين كل فئات الشعب الفرنسى !

وعندما سحبوه إلى المشنقة لم يكن خائفا وانما قال بهدوء أذهل الناس : أخطأت فى الحساب .. أو اخطأ القدر .. فقد آمنت بأن الحب قدرى .. وأن الحب امرأة . وأن امرأة هى التى سوف تغير مسار حياتى ومماتى .. لقد خاننى القدر .. لقد جاء وفى ذراعه مشنقة وليست المرأة الجميلة التى كنت أحلم بها .. لا أعرف إن كان فى أستطاعتى أن أستأنف حكم القدر فيما بعد .. فمعلوماتى عن الذى سوف يجىء بعد ، قليلة جدا !

وقال عبارته الأخيرة : اشنقونى واشنقوا قدرى معى .. تعيش فرنسا حرة إلى الأبد !

★ ★ ★
★ ★ ★

وفى العام الماضى ذهبت مع المليونير المصرى النمساوى فوزى متولى أتفرج على المسرح العائم الذى أقامه على بحيرة صناعية فى فرساى وفوزى متولى هو الذى أنتج لنا « أوبرا عايدة » فى الأقصر ـ أروع عرض وأعظم حدث فى القرن العشرين (وعلى فكرة لاتزال أدوات مسرح أوبرا عايدة محجوز عليها فى جمرك الاسكندرية !!)

وعلى هذا المسرح سوف تظهر أوبرا « اندريه شينيه » من تأليف الشاعر الايطالى لويجى اليكا ومن موسيقى وألحان الموسيقار الايطالى أوبرتو جوردانو ..

وقد ظهرت لأول مرة على مسرح لاسكالا فى مدينة ميلانو يوم ٢٨ مارس سنة ١٨٩٦ .

وليس الشاعر الايطالى اليكا هو أول من كتب عن حياة هذا الشاعر الفرنسى البطل .. فكثير من أدباء فرنسا قد فعل ذلك .. فشاتوبريان له رواية اسمها « العبقرية والمسيحية » ظهرت سنة ١٨٠٢ .. والناقد العظيم سانت بيف له رواية أسمها « يوسف دلروم » ظهرت سنة ١٨٢٩ .. والشاعر الفرد دى فينى كتب « استيلو » سنة ١٨٣١ .. وغيرهم كثيرون فى الآداب العالمية .

ومن أعجب ماوجدت فى الأوراق التى تركتها الأديبة المصرية الشابة عنايات الزيات التى لم تكتب الا رواية واحدة « ثلاث صفحات هى « مشروع » رواية أو مسرحية عن هذا الشاعر الفرنسى .. وعن الشعراء الذين ماتوا فى مثل عمره : نوفالس ورامبو وشيللى وبيرون وتيك ولوتريامون ؟ ! .

هذه الأوبرا التى ظهرت بمناسبة مرور قرنين على الثورة الفرنسية من أربعة فصول .

الفصل الأول : يستعدون لعشاء ضخم . الخدم يعدون المقاعد والمناضد .. والفتى جيرار أبوه خادم عجوز فى هذا القصر فيتحدث إلى المقاعد الوثيرة وكم جلس عليها وسوف يجلس من الناس التافهين الطفيليين .. وهو يحب ابنه صاحب القصر سرا .. ولا يقوى طبعا على أن يجاهر بذلك .. عندما يدخل الشاعر أندريه .. وتلتف إليه مادلين فتاة القصر .. وتطلب منه أن يسمعها شعرا . فيقول : رغباتك أوامر مقدسة ياسيدتى .. لولا أن الخيال لايجىء بالأمر .. ولا حتى بالدعاء والصلاة .. فالشعر كالحب ياسيدتى : نزوه !

وهنا يقف جيرار ابن الخادم العجوز ويعلن بكل قوة : أقدم لكم سيداتى وساداتى أصحاب السعادة والفخامة : الفقراء !

ويفتح الباب ليدخل الفقراء والصعاليك والعاطلون والساخطون والمتظاهرون من كل شكل ولون وزى .

وأصوات تتعالى فى كل مكان تقول :

ليلا ونهارا نحمل التعاسة معنا فى كل مكان .. نحن الأشقياء الفقراء الموتى جوعا .. المرضى الساقطون على أرض جرداء !

وفى الفصل الثانى يقول الشاعر آندريه شينيه : هل تؤمن بالقدر ؟ ..

أنا أؤمن بالقدر .. أؤمن به يبارك خطواتنا .. وأحيانا نضل وأحيانا نهتدي عبر العلاقات الانسانية ..

ولكن القدر يستوقفك فى أول الطريق أو فى منتصفه ويهمس فى أذنك : اذهب .. فأنت شاعر .. ومادمت شاعرا فسوف يكون الحب هو رسولى اليك .. والحب معناه امرأة .. إذن قدرى امرأة .. ومالم تظهر امرأة فى حياتى فى أى وقت ، فلن أفعل شيئا .. فعندها كلمة السر .. ومفتاح الطريق .. والطريق .

وكان الشاعر اندريه شينيه يتلقى خطابات من مجهولة .. هذه المجهولة هى مادلين التى تحبه .. ويحبها جيرار .. ويعلن جيرار أنه سوف ينتقم من الشاعر ويحاول أن يهدد مادلين ويهدد الشاعر .. فجيرار أصبح بطلا شعبيا .. والجماهير تهتف بحياة جيرار .. جيرار جيرار يحيا جيرار .

وفى الفصل الثالث تتحدث مادلين عن الحب والحرية والثورة .. وأنها تفضل أن تموت من أجل الحب .. فالجلاد لن يأخذ إلا جسدها .. أما روحها فهى مع القدر .. والقدر مع حبيبها . فالحب هو القدر . والحبيب هو القدر وتقول : أنا التى سوف أجفف الدموع .. أنا التى سوف أهبك الحياة الابدية .. جسدى جسد امرأة .. والجسد سوف يموت والذكرى لن تموت .. بل أننى ميتة الآن .. لاننى أردت أن أموت .. فموتى حياة لى مع حبيبى بعد ذلك .. فمن لاحبيب له لن يموت .. ومن مات مع حبيبه فقد عاش الاثنان معا أبدا .

ويحكم القاضى على اندريه شينيه بالاعدام لأنه خائن للثورة ورسالتها النبيلة .

ويصرخ الشاعر : لقد واجهت الموت والشرف فى الحرب .. والآن أواجه الموت والعار فى المحكمة . منتهى الظلم . اقتلونى ولكن اتركوا لى شرفى !

ويحاول جيرار أن ينقذ الشاعر لأنه وعد محبوبته بذلك لعله يفوز بها .

فقال للقاضى : التهمة الموجهة للشاعر كاذبة .

قال القاضى : ولكنك أنت الذى
وجهت إليه هذه التهم جميعا .
يرد جيرار : غلطتى !
القاضى : أنتهى !
جيرار : هذه وحشية !
القاضى : أسكت : أنه ضد الدولة !

جيرار : العدالة لها اسم آخر ..
أنها الارهاب .. أنها طاحونة الكراهية والانتقام .. دم الشعب يجرى هنا .. نحن نطعن فرنسا فى قلبها الذى يتغنى هذا الشاعر بحبها .. الشاعر هو ابن الثورة .. لاتقتلوه !
الجماهير : أسكت .. أنت خائن . لقد رشوك ! اشتروك !
جيرار : لن تستطيعوا أن تفعلوا شيئا .. فالشاعر سعيد وسوف يموت سعيدا .. أن أحدا لايستطيع أن يشنق سعادته !
مادلين : وأنا أيضا سوف أراه ثانية .. هذا مؤكد ياقدرى !
وفى الفصل الرابع تتفق مادلين مع السجان ، مقابل مبلغ من المال ، أن يضعها فى القفص بدلا من سيدة مظلومة قدمت حفيدها شهيدا للثورة الفرنسية . فوافق .
وتقول له مادلين : عندما ينادون على هذه السيدة المسكينة سوف أتقدم أنا .. سعيدة بذلك .. فهى من حقها أن تعيش وأنا من واجبى أن أموت .. وقدرى أن أعيش مع حبيبى بعد الموت .. اننى أبارك موتى !
ويدخل جيرار ويقول : سوف أتحدث إلى قائد الثورة لكى ينقذه .. أن شاعرا يرى أن موته ليس عذابا ولا انتقاما : اهانة للثورة .. ولذلك يجب أن يعيش ففى حياته عذاب له .. أما موته فهو قمة السعادة .. فإذا كان الموت لايعذبه ، فكيف نحكم عليه بالموت .. اتركوه يتعذب بيننا وبنا .. اتركوه لنا .. ففى حريته منتهى العذاب .. وفى حياته منتهى الهوان .. اتركوه .
والفصل الرابع هو أروع لحظات الأوبرا كلها .. أنها زفة جنائزية أن ترى الشاعر ومحبوبته سعيدين به بهذه النهاية .. بالسير معا .. بالموت معا .. باللقاء بعد الموت .. فالحب أقوى من الموت .
تقول له مادلين : أنت حبى .. أنت قدرى .. أنت أعمق أعماقى .. أنت نور النور .. أنت حياة الحياة .. فى عينيك كل النور .. وفى نورك كل السحر .. فى موجات عينيك الخضراوين تسبح روحى المعذبة ..
اننى هنا حتى لااتركك ياحبيبى .. أننى معك .. أننى حضنك .. أنت حضنى .. لااقول وداعا .. بل إلى اللقاء . وراء الوراء .. كما عشت فى عينيك ، سوف أموت فى عينيك .. أنتهى العذاب .. اننى أبحث بأسم الحب عن النهاية .. وهذه هى النهاية .. والنهاية هى الموت حبا ، والحب موتا .. وآخر من

يسمع كلماتى :

وآخر كلماتى : أحبك ..

الشاعر : أنت وجودى ..

وجودنا هو الحب .. حب الروح للروح !

مادلين : لقد انقذت أما كان من حقها أن تعيش .. فعند الفجر سوف ينادون عليها .. فأتقدم أنا بدلا منها .. هذا قرارى وتدبيرى .. قدرى قدرك .. تعيش هى وأموت أنا .. قبلنى ياحبيبى .. قبلنى قبلة الموت الذى هو حياة بعد ذلك !

الشاعر : ياكبرياء الجمال .. ياانتصار الروح .. حبك هو البحر .. هو السماء .. هو نور الشمس .. والنجوم .. وكل هذا الكون .

مادلين : حبيبى..

الشاعر : حبيبتى .. موتنا هو انتصار الحب !

مادلين : نعم موتنا انتصار الحب !

الشاعر : تعالى ياقدرى !

تعال ياقدرى !

الشاعر : أبارك قدرى !

مادلين : حين نموت نغوص فى الابدية .

هى وهو : قلبى ! قلبى ! الحب الابدى .. الحب إلى الأبد .. يحيا الموت معا !

★ ★ ★

★ ★ ★

ومما قاله الشاعر الفرنسى أندريه شينيه فى آخر ديوان له عن الحب والموت :

من قال لك قبلى :
أنى أحبك ؟ !
ألوف ياحبيبتى ! يسعدنى !
من قال لك قبلى :
أنت قدرى ؟ ـ ألوف ويسعدنى !
ولكن من قال لك : أنت
نهايتى .. أنت موتى .. أنت
ابديتى ؟ .. أنا ياحبيبى !

فأسعديني بموتك معي .
لاتنطقي ياحبيبي .. اتركيها
لتموت على شفتي وشفتيك لكي
نقولها معا ياحبيبي !
وقال الشاعر اندريه شينيه عن الحب والموت والثورة والبطولة :
أن أموت ليس حدثا
أن أعيش ليس خبرا
ولكن موتي من أجل الحرية
هذا هو الخبر .
وموتي من أجل الحب
هذا هو الخبر القدر ..
فلغير الحب لاموت ،
وبغير الحب لاحياة
فمن يدعوني إلى جنازة
الحب التي هي زفاف
القدر ..
لاأحد ! فأنا أدعو نفسي
لأمشي في جنازة قلبي
زفاف ولمحبوبتي
إلى مثوانا الابدي !

جان كوكتو :
نسر له رأسان !

لو كنت صانعا للتماثيل لطلبت إليك أن تأتى بقطعة من الصلصال وتجعلها على شكل نسر .

والنسر له رأسان أحدهما رأس إنسان .. وله قدمان ، أحداهما قدم انسان . وله عينان احداهما عين انسان .. وله قلبان ، أحدهما قلب إنسان .. أما الأصوات فلا شأن لك بها : أن هذا الكائن الغريب سوف يطلق أصواتا موسيقية .. فكل ما يقول : شعر فى شعر .. النثر شعر ، والشعر موسيقى ، والموسيقى ملاحم . ويوم ضبطته إحدى قريباته يبكى اندهشت كيف أنه أتى بلوح من الصفيح لينزل عليه دموعه .. ثم أتى بكوب من الماء وجعل لقطراته وقعا منتظما .. إنه فى سن صغيرة حاول أن يكون لكل شىء ايقاع .. أن يكون كل صوت موسيقى . وكل موسيقى شعرا ..

إن كانت هذه الصورة واضحة عندك ، أو ليست واضحة فهذا هو الشاعر الممثل الموسيقار الراقص الرسام الفرنسى : جان كوكتو !

ولد فى أسرة غنية جدا . فهو يجد كل شىء فى بيته وفى يديه .

قال عن نفسه : ولدت ملكاً بغير تاج فقررت أن أضع تيجانا أخرى على رأسى !

عندما سألوه فى إحدى الحفلات المدرسية : ما الذى تريد أن تكون عندما تكبر ؟

قال بسرعة : أن أكون فقيرا !

وفى مناسبة أخرى قال : ليس طبيعيا أن يكون الانسان غنيا .. الطبيعى أن يكون فقيرا . فالفنان لا يكون غنيا . لأنه لو كان غنيا ، لأصبح مفلسا فى المعانى

والصور الشعرية .. فالفن والعذاب توأم . والشعر والفقر توأم .. والإنسان لا يضع على رأسه إلا تاجاً واحداً تاج الشعر وشوك الفقراء !

وفى سن صغيرة كان يحب أن ينام وحده . وفى إحدى المرات قلقت عليه والدته . فذهبت إليه وعندما دخلت إلى جواره فى السرير صرخت واغمى عليها .. فقد وجدت ثعبانا تكوم إلى جواره !

فهو الذى أتى بالثعبان حتى لاينام أحد فى فراشه !

وفى أحد الاعياد رجعت الأسرة إلى البيت ، فلم يجدوا احدا فى البيت .. وأهم من ذلك أن الطعام الفخم الضخم الذى كان من الضرورى إعداده فى ذلك اليوم ، ليس له أثر ولا رائحة .. لم تجد الأسرة أحداً تسأله : أين الخدم والطهاة ؟

وأخيرا ادركوا أن جان كوكتو لابد أن يكون قد ارتكب حماقة .. أو لابد أن يكون هو السبب فى اختفاء الجميع .. وراحوا يدقون كل أبواب الغرف .. وفى غرفة فوق السطوح وجدوا جان كوكتو قد حبس تسعة من الخدم وثلاثة من الطهاة يقرأ عليهم ديوانه الجديد !

شىء غريب جعل هذا الشاب الصغير يهوى كل الفنون .. فهو أول من اخترع فكرة الرقص على حبل .. الحبل لصقه على الأرض ويحاول أن يرقص فوقه دون أن تمس قدماه الأرض .. فهو صاحب نظرية التوازن على الحبل .. فالراقص الممتاز هو الذى إذا رقص على حبل ، لا يمس الأرض .. ويمكنه أن يواصل الرقص إذا ارتفع الحبل من فوق الأرض وظل معلقا فى الهواء *. فرقص الباليه هو التوازن والانسجام فوق أضيق مساحة من الأرض !

فى سن صغيرة جدا تأكد لدى الاسرة أن هذا الشاب ولد شاعرا . فأول ما أبدع كان شعرا . وآخر ما قال كان شعرا . وعندما علم بوفاة حبيبته مطربة فرنسا الأولى : اديث بياف قال :

« إن أصابعى حفظت وجهك عن ظهر قلب .. »
.. آه لو كان قلبى فى أصابعى أيضا ..
آه لو كان وجهى فى وجهك ..
آه لو ..
ولم يكملها .. لقد مات !

فى الحرب العالمية الأولى كان يعمل سائقا لإحدى عربات الاسعاف .

وبعد ذلك كتب يقول : تعذبت مرتين فى الحرب .. بالحرب نفسها ، وبصيحات المرضى فى سيارة الاسعاف وبعجزى عن ان افعل شيئا .. وقد أصيب بالصمم المؤقت .. وله تفسير فى ذلك : أن الرؤية إرادة .. والسمع إرادة .. فاذا أراد الانسان أن يرى أقوى استطاع ، والا يسمع شيئا استطاع .. وهذا هو سر عظمة علماء اليوجا الذين يتحكمون فى مداخل الاحساسات كلها .. فالاحساس إرادة والحياة إرادة .. والموت إرادة !

أعود إلى أن جان كوكتو نسر له رأسان .. احدهما رأس انسان ..

يقول كوكتو : صدقنى أننى لا أعرف فى كثير من الاحيان إن كان الذى احمله على كتفى هو رأس طائر جارح او إنسان مسكين .. فأحيانا ارى الصورة البشعة للعذاب الانسانى وأجدنى أبكى عليها .. فأنا الذى خلقت صور المذابح والدماء والقتل والعذاب ، وأنا الذى أنزوى أبكى على عذاب وهوان الانسان .. واتساءل : إذا كنت أبكى لذلك ، فلماذا استدعيت هذه الصورة .. وإذا كنت أكره العذاب فلماذا أجعله غذاء ضروريا لوجدانى كل يوم ..

يقول كوكتو : وأنا فى العشرين رسمت وجها لفتاة جميلة .. نصف الوجه ملىء والنصف الثانى شاحب .. والنصف الشاحب به عين كبيرة .. وهذه العين تذوب دمعا .. أريد أن أقول أن الدمع ظل ينزف حتى أصبح الوجه جلدا على عظم .. ولاحظت أن العين التى تبكى ضاحكة والعين التى لا تبكى حزينة .. فما المعنى ؟ المعنى أن عينا تبكى على أخرى .. وأن العين الباكية سعيدة لأن البكاء يريح ولانها رأت تعاطفا معها من عين أخرى .. السؤال دائما هو : أين أنا ؟ أنا الباكى السعيد ؟ أو أنا الحزين الذى لا يبكى ؟ أنا الاثنان معا !

لقد انشغل الأديب الفرنسى جان كوكتو بتعاسة الانسان .. فقد رأى الحرب العالمية الأولى وعايش ويلات الحرب العالمية الثانية . ووجد أن الانسان يزداد تعاسة . وأن القلب الانسانى ينفطر على نفسه .. وأن العقل خادم خائن . أنه يطور الخدمات للانسان ويدعى كاذبا أنه لا يقاضيه أجرا .. والحقيقة انه يقاضيه وأنه يقبض مقدما من سعادة الانسان .. فالانسان هو الحيوان الذى يتقدم نحو الشقاء بخطى ثابتة .. وأن المؤامرة التى يرتكبها الانسان هى إنه بعقله يذبح قلبه .. إنه بمنقار النسر يفقأ عينى الانسان .. إنه بمنقار النسر يمزق لسان الانسان .. أن الاغريق عندما صوروا العذاب اختاروا

« برومثيوس » وربطوه بالسلاسل وأتوا بنسر ينقر قلبه ويأكله .. وكلما أكله ظهر له قلب جديد ، ليأكله النسر إلى الأبد ..

يقول كوكتو : الصورة صحيحة . ولكن لابد من ادخال تعديل طفيف عليها .. صحيح اننا أمام انسان ونسر . ولكن التعديل هو أن الانسان هو نفسه النسر .. وان لهما قلبا واحدا ومنقارا واحدا .. وان النسر هو الذى يأكل قلب الانسان .. فالنسر ينهش قلبه هو ويبكى من الألم .. ويبكى لأن حياته هى أن يشرب دمه هو !

وكان من عادة خادمة كوكتو أن تضع فى غرفته أكثر من سرير وكنبة .. ولا أحد يعرف على اى منها سوف ينام .. والحقيقة أنه ينام عليها جميعا .. يقفز من هذا السرير الى ذلك فقد كان شديد القلق قليل النوم ..

وكان يحسد كاتب القصص الدنمركى هانز كريستان اندرسن .. فقد كان أندرسن هذا ضعيفا جدا نحيلا جدا .. ويندهش الناس اذا رأوه .. ويخيل اليهم أنه لابد أن يموت عند نهاية الطريق .. اى طريق .. فهو إذا مشى تساقط ، وإذا جلس نام وإذا نام لم يتحرك صدره .. وكان من عادة هذا الاديب الدنمركى أن يكتب ورقة الى جوار فراشه تقول : لست ميتا ولكنى أبدو كذلك !

فقد حدث ان جاءت صاحبة البيت الذى يسكنه اندرسن ومعها الطعام .. ولما نادته لم يرد .. فراحت واستدعت القسيس .. وهزه القسيس فوجده حيا ولذلك كان يكتب لصاحبة البيت هذه الورقة ، حتى تضع الطعام الى جوار فراشه وتتركه .. فلم يكن فى أستطاعة كوكتو أن ينام مثل هذا النوم العميق .. وكان هو الآخر يكتب ورقة على الباب تقول : لم أهرب من الغرفة ولكنى موجود هنا ..

ويفتحون باب الغرفة يبحثون عنه فوق الأسرة .. وأخيرا يجدونه نائما تحت واحد منها فى داخل صندوق أو تابوت .. إنه لم يمت ، ولكنه يجد متعة فى أن يشعر بذلك .. !

هو الشاعر الراقص الممثل الموسيقار الرسام العاشق ابن الذوات كان يقول أن كل فنان له أداة واحدة للتعبير : الكلمة أو الخط أو النغمة أو الذراعان او الساقان .. ولكنى أعبر بها جميعا .. !

ولذلك ظهر على المسرح يرقص ويغنى مسرحياته الشعرية .. ورقصات الباليه الذى صممها والف لها الموسيقى سترافنسكى ورسم لها الديكور بيكاسو !

وكان إذا ظهر على المسرح ليقوم ببروفات مسرحياته ورقصات الباليه التى صممها يضع على مقعد فى الصف الامامى صورة له .. لانه يرقص ويغنى وينظم ويرسم لنفسه أولا .. وللناس بعد ذلك .. فكان يحب أن يرى نفسه وهو يعبر بكل جوارحه عن المعانى الحائرة فى أعماقه .. وكلها لها مذاق واحد : عذاب الانسان أمام الحقيقة الكبرى التى يجهلها !

كان جان كوكتو يحب الشبان ذوى المواهب وكان يقدمهم وينتقل بهم من مكان إلى مكان .. ويدعو الناس إلى سماعهم . وكان يخطب قائلا : أيها الناس ما اسعدكم .. أنتم الآن تشاهدون لحظة مقدسة .. ففى عيونكم تولد موهبة جديدة .. إنها لحظة مباركة .. لحظة تقوم فيها السماء بشفاء الأرض من أمراض الانسان !

فقد تبنى الشاعر الشاب راديجيه .. كان صغيراً وكان شعره مثله صغير المعانى قريب الصور .. ولكن كان يتألق كأنه قمر استوائى على بحيرة سويسرية .. القمر كبير والبحيرة هادئة .. وفى إحدى الليالى اصيب الشاعر راديجيه بالحمى .. وفجأة مات فى العشرينات من عمره .. وحزن كوكتو وأقام سرادقا لايتلقى فيه العزاء .. وانما أغلقه على نفسه ومد يده اليسرى إلى يده اليمنى .. يعزيها فى أحب الناس اليه .. وضاق كوكتو بالدنيا وبالناس .. وعرف الافيون .. تعاطاه .. ادمنه ـ ادخل نفسه المستشفى .. ليعالجه الاطباء .. ثم أصدر كتابا عن تجربته فى تعاطى الافيون .. تماما كما فعل من قبله الشاعر بودلير .

ولما سألوه : كيف وأنت قد ادمنت الافيون استطعت أن تنتشل نفسك ؟

أجاب : إننى انسان ونسر فالانسان أدمن والنسر حملنى عاليا فى السماء .. وفى السماء قالوا لى : يجب أن تعيش فكلمتك لم تقلها بعد .. اهبط الى الارض فأنت نبى الشعراء ..

وتوالت دواوينه الشعرية : مصباح علاء الدين ورقصة سوفوكليس ورأس الرجاء الصالح ووردة فرنسوا وغامض وواضح .. ورواياته : الاطفال المرعبون والآباء المرعبون وشبح مارسليا ونهاية الهند .. والمسرحيات : اورفيوس وانتيجونه والصوت الانسانى والالة الجهنمية وفرسان المائدة المستديرة .. والالة الكاتبة والنسر له رأسان وباخوس . وغيرها ..

وكان حبه العميق للمطربة الشعبية اديث بياف صاحبة أقوى صوت عرفه الغناء الفرنسي .. ويقال العالمي أيضا .. وهى ضئيلة الحجم .. قصيرة .. رأسها كبير ووجهها مستدير ..

يصفها كوكتو فيقول : ذلك الكائن الصغير .. أصابعها كل واحد منها يشبه البورص .. أما وجهها المستدير فهو قمر انطفأ .. أما عيناها ففيهما لمعان وضوء غريب .. إنه يشبه واحدا أعمى ارتد اليه البصر فجاة .. أما حاجباها فيشبهان حاجبي نابليون .. إنها كاهنة الحب ، راهبة العشق .. إنها آكلة قلوب البشر بموافقة البشر .. لا أحد يعرف بالضبط ما هى الحكمة الالهية من خلق هذه الانسانة الصغيرة : لابد أن السماء شاءت أن تجعلها معجزة .. فصوتها أقوى منها ألوف المرات ، حتى يخيل لمن يسمعها أن وراءها طابور من المطربات يعطينها الصوت والصدى والقوة .. ويخيل اليك أن قلبها فى شفتيها .. وأنها لا تستخدم الهواء وسيلة لنقل بكائها الى الناس انها تبكى مباشرة فى كل قلب ..

كان يحدّثها كل يوم ..

وفى السنوات الاخيرة كان يحدثها عن الموت .. موته هو أولا .. وموتها بعد ذلك كان يقول : سوف أموت قبلك .. فانتظرى بعض الوقت .. وانت حرة فى أن تلحقى بى ، إذا لم تكونى مشغولة فى البروفات أو فى الحفلات العامة أو الزواج من شاب جديد !

وكانت تقول له : بل سوف اموت أنا اولا .. فاستعد من الآن لالقاء اجمل قصيدة .. يجب أن تقف أمام إحدى لوحاتى .. اطلب الى بيكاسو أن يرسمها من الآن .. وأطلب الى سترافنسكى أن يؤلف الموسيقى .. أرجو الا تكون لوحة بيكاسو شبيهة بى .. فأنا لا أعرف لى شبيها .. وأن تكون الموسيقى مرحة .. فانا قد أخذت الكثير من الدنيا وأسعدت الناس .. وانا سعيدة لذلك .. ولاتجعل قصيدتك طويلة ، فأنا اتعجل رحيلك الى العالم الآخر .. لنكون معا اكثر حرية واكثر انطلاقا .. ولعلنا نعرف الحكمة وراء كل ذلك .. انت لا تعرف ولن تعرف .. اما انا فقد عرفت : سوف اغنى للأبدية .. وسوف يسعد الملائكة بذلك .. صدقنى .. انا على يقين من ذلك .. كما اننى على يقين من موتى .. وموتك بعدى !

قال كوكتو : اذا ماتت اديث بياف ، فسوف يموت نصفى .. بل ثلاثة ارباعى .. بل أنا جزء منها .. وموتها موت لى ..

وماتت اديث بياف يوم ١٠ اكتوبر سنة ١٩٦٣ .. ماتت فى ضواحى باريس وكانت قد أوصت انها إذا ماتت أن يدفنوها فى باريس .. فهى ابنة الارصفة والشوارع الباريسية .. ولذلك كتبوا على قبرها أنها ماتت فى باريس ..

وفى حديث تليفونى من إذاعة باريس مع الاديب كوكتو يطلبون إليه أن يقول كلمة عن صديقة العمر : اديث بياف .. فوعدهم كوكتو فلما ذهبوا اليه وجدوه قد مات !

وسارت باريس كلها وعشاق من العواصم الاخرى فى جنازة مطربة الأرصفة : اديث بياف .. ولم يمش فى جنازة كوكتو إلا خادمه وفى يده عشرة من الكلاب .. وعلى كتفه نسر صغير .. ولوحة رسمها الفنان لنفسه .. وتعلقت من العربة التى تحمل نعشه صورة لاديث بياف !

* * *

* * *

وعندما جاء جان كوكتو الى مصر .. ذهب الى الاهرامات .. والى الاقصر .. وتسكع فى خان الخليلى وتصعلك فى مدينة قنا ، كما فعل الاديب الفرنسى فلوبير قبل مائة عام . وعاد الى بلاده فكتب مقالا عن مصر عنيفا .. أغاظنا جميعا . ولم نتعب من شتيمته وتعبيره بأنه شاذ جنسيا كما كان فلوبير أيضا .. وبأنه وبأنه ..

قال كوكتو : تسألوننى عن المصريين ؟ كما أن أهم معالم بلادهم الاهرامات الثلاثة .. فأهم معالم حياتهم كلمات ثلاثة أيضا : معلهش .. حشيش .. بقشيش !!!

شارلى شابلن :
صرصار يطارده برغوث !

شارلى شابلن أبوه من أصل فرنسي وأمه غجرية .. ولذلك فقد اعتاد على الزعيق فى البيت ، وعلى التنقل من شارع الى مدينة الى قارة .. وعلى الطرد من مسرح الى مسرح ..

فى يوم صحا من النوم على خناقة من طرف واحد فقد وجد أمه تقول : المحامى قال .. المحامى هو الذى قال بعظمة لسانه .. وهل أعرف أحسن من المحامى .. وهذه هى النتيجة ..!

فقد ذهبت أمه الى المحكمة تطالب والده بالنفقة ولكنه لم يشأ ان يدفع .. فكل أمواله ضائعة على الخمر .. وقد قضت عليه ، وعلى فنانين ممتازين ايضا ..

وكانت أمه تصف والده بأنه يشبه نابليون : عقلية جبارة وغرور لا حد له .. وفقر وغطرسة ..!

أما أمه فكانت تغنى فى النوادى الليلية وكان صوتها جميلا .. وكان شارلى شابلن يعيب على أمه انها تضع كل قوتها فى المقاطع الأولى من الاغنية حتى إذا وصلت الى نهايتها كانت مرهقة متلاحقة الانفاس .. وفى يوم فقدت أمه صوتها .. وراح الجمهور يرميها بقشر البرتقال والبطاطس .. وأنزلوها من المسرح وهى تبكى .. وكان من عادة أمه أن تأخذه الى المسرح حتى لا تتركه وحده فى البيت .. وكان يقف بين الكواليس يقلد أمه .. وهى تتلوى وتتثنى .. وقد قام صاحب الفرقة المسرحية بتجربة جريئة .. فقد دفع الطفل شارلى شابلن إلى المسرح يغنى ويقلد والدته .. والناس يضحكون ويرمونه بالفلوس .. وكان يترك الغناء وينحنى على الفلوس يجمعها والناس يضحكون أكثر .. وحتى يستمر الطفل فى الغناء ظهر على المسرح صاحب الفرقة يجمع الفلوس .. فما

كان من الطفل إلا ان أمسك في ملابسه ولم يتركه إلا بعد أن تأكد أنه أعطى الفلوس إلى أمه .. ثم عاد إلى الغناء والناس يضحكون ..!

لقد ولد الفنان شارلي شابلن ذلك الطفل الصغير الحجم الشاحب النحيف على جثة أمه التي اعتزلت الغناء !

ثم أخذوا يؤلفون له المواقف المضحكة .. فكان يظهر مع شباب آخر فيقول له الشاب : عاوز ايه ؟

فيرد . ش . ش . فيقول : كباية ميه ؟

ـ ليه ؟

ـ علشان استحم !

ويعود يسأله : نمت امبارح ؟

ـ أبدا !

ـ ليه ؟

ـ حلمت ان برغوث بيجرى ورايا !

ويضحك الناس ويلقون عليه بالفلوس ..

وكانت أمه تقول له : إن شاء الله سوف تتسول مثل والدك .. وإن شاء الله سوف تصاب بالروماتيزم في مفاصلك مثل جدك .. فقد كان ينام في الاماكن الرطبة هرباً من البوليس ..

وقبل ان يولد كانت لامه مغامرات فقد هربت مع أحد اللوردات إلى افريقيا .. وعاشت في القصور الفخمة .. وكان لها خدم وكانت لها عربات تجرها الفيلة .. ثم عادت الى بريطانيا لتلد أخاه الاكبر سيدني .. وكانت تقول : عندما يصل سيدني الى سن الرشد فسوف يرث مالا كثيرا من والده ..

وبعد سنة واحدة من ولادته هو انفصلت أمه عن أبيه وبدأ العذاب الحقيقي الذي هز كيان شارلي شابلن : الوحدة والجوع والبرودة والحرمان والعذاب والهوان والفشل والفشل والفشل .. وانتقلوا من شقة لها ثلاث غرف إلى شقة بغرفتين إلى غرفة واحدة .. إلى نصف غرفة مع أسرة أخرى .

واتجهت أمه إلى قراءة الكتاب المقدس والبكاء طويلا وهي تتحدث عن عذاب السيد المسيح .. الذي عاش يعاني نفس ويلات البشر .. وكانت توقظ ابنها لكي تقرأ له آيات من الانجيل ، وليبكي الاثنان معا ..!

وفى مرة تشاجرت مع صاحبة البيت فاذا بها تقول : عاوزة ايه ياست زفتة الطين انت ؟

وتقول صاحبة البيت : هل كلمة زفت الطين تليق بسيدة مسيحية ؟

وبسرعة ترد امه : معك حق .. هناك كلمة اخرى فى سفر التثنية الاصحاح ٢٨ الاية ٣٧ هى أنسب صفة لحضرتك ! « الكلمة هى أنها سيدة مهزأة »

وكانت أمه تقول له : اسمع يابنى صحيح انا من اصل غجرى .. وكنا نسرق ونخطف ولكن الارض التى وضعنا عليها عرباتنا وبيوتنا الخشبية كنا ندفع عنها ايجارا للدولة . فنحن غجر شرفاء ! اشرف كثيرا جدا من اصحاب القصور اللصوص واصحاب البيوت الوحوش .. انظر هذه السيدة التى تريدك أن تغسل وتكنس لمجرد أننا عجزنا عن دفع إيجار أسبوع واحد ! ياشارلى لا تنس قسوة الناس عندما تكبر .. لا تنس أن تضرب على خده الايسر كل من ضربك على خدك الايمن ..

ثم هى تضربه على خده الايسر وبسرعة يقول لها شارلى الصغير : سوف انسى أنك ضربتنى على خدى الايسر ..!

وكانت تضحك والدموع فى عينيها !

ومن النكت التى كان يؤديها شارلى شابلن : النكت التاريخية ..

مثلا : عندما دخل نابليون إحدى المكتبات أراد أن يمد يده الى أحد الكتب .. ولكن الكتاب بعيد عن يده .. وهنا تقدم الجنرال ناى وكان طويل القامة يقول للامبراطور : انا أستطيع ياصاحب الجلالة .. فانا أعلى ..

فتضايق الامبراطور وقال بسرعة : لست أعلى أنت أطول ..

ويضحك الناس ..

* * *

وفى التاسعة من عمره حاول ان يؤلف بعض النكت فطلب اليه المدير أن يجرب حظه .. فظهر فى اليوم التالى يؤدى نفس النكت بعد تعديلها مع زميل له ..

قال نابليون : لا استطيع أن أصل الى هذا الكتاب !

فاقترب الجنرال يقول : أنا أطول يداً ..

فكان رد نابليون : كل اللصوص كذلك ..

وكان من بين المتفرجين عدد من الفرنسيين فتضايقوا وخرجوا من المسرح ..

وأمره صاحب الفرقة ألا يعود الى مثل هذه النكت البايخة ..

وسافر شارلى شابلن مع الفرقة الى فرنسا .. إنه أعظم حدث فى حياته أن يعبر المانش وأن يرى فرنسا وأن يظهر على مسارح باريس ..

يقول شارلى شابلن أن الرسام العظيم بيكاسو فى حياته مرحلة تعيسة اسمها : المرحلة الزرقاء .. اما هو فقد بدأت مع ولادته مرحلة اسمها المرحلة الرمادية .. مرحلة فى لون الضباب والهباب .. فى لون اليأس والفقر والبرد والجوع والطرد .. وتنزول الستار قبل أن يكمل كلامه ..

وعاد من فرنسا .. وكانت رحلة غامضة تركت أثرا عميقا فى نفسه .. ولكنه لا يعرف بالضبط ماذا حدث له .. فعندما سأله احد زملائه عن الذى رآه فى فرنسا لم يعرف كيف يعبر عنه .. ولذلك اعتاد شارلى شابلن أن يتكلم بصوت عال قبل النوم .. وكانت أمه تتركه يقول .. فقد كانت تظن أنه يجرى بروفات .. وكان يتحدث أيضا أثناء النوم .. وكانت امه تتركه .. فقد أحزنها أن يكون ابنها هكذا صغير الحجم قليل الرزق عاجز الحيلة ..

وفى يوم أراد ان يداعب امه فقال لها : لا تغضبى .. سوف أكون الرجل الوحيد الذى لا ينحنى على أيدى النساء .. لماذا لأن فمى عند مستوى الايدى .. ولكن سوف يجىء اليوم الذى تنحنى فيه النساء على يدى .. واحد عراف هندى قال لى ذلك .. ثم ترك عنوانه وتليفونه لكى اتذكره عندما أصبح عظيما ..

وطلبت اليه أمه أن يؤدى هذه النكتة على المسرح .. ولكنه صرخ باكيا : ليست نكتة إنها حقيقة ياماما ..!

وسافر الى نيويورك وكانت فرصة عظيمة وصدمة أعظم .. فكل النكات التى كان يضحك لها الانجليز ، لا يضحك لها الامريكان !

وقالوا له فى امريكا : يجب أن تعرف الامريكان أولا ، لكى تخترع لهم النكت المناسبة ..

وفى احدى المرات ظهر على المسرح يواجه جمهورا ضخما وهو الشاب الضئيل الحجم الصغير السن .. والذى ركبّ لنفسه شاربا واخترع لنفسه الزى المنفوخ المبهدل وامسك بالعصا والقبعة التى فوقها .. وكان يقول : سألونى ماهو الفرق بين الامريكى والانجليزى فقلت : إن كل النكت التى يضحكون لها فى لندن ينامون عليها فى نيويورك .. والسبب هو ان الانجليز عندما

يصحون من نومهم ، يتثاءب الامريكان لينامو ا .. يجب مراعاة فروق التوقيت ..
وكان الامريكان يضحكون لهذه المقدمة ولا يضحكون لبقية النكت ..
فكان يقدم هذه النكتة بصورة اخرى هكذا قائلا : لاننا بدأنا نعرف المزاج الامريكى والذوق الامريكى .. فبدلا من أن نؤدى لكم بعض النكت التى يضحك لها الانجليز ولا نجد فيها سببا وجيها لاضحاككم .. فقد قررنا بالاجماع « ويشير الى زميله » الا نحكى النكت .. وانما نضحك بالنيابة عن الانجليز .. هاها .. هاها .. هاها .. ثم لا يؤديان النكتة » والأمريكان يضحكون جدا .

وانتقل ش . ش . الى الساحل الغربى من امريكا وعرف هوليوود ورأى الكواكب والنجوم واصحاب الملايين .. وتحول ش . ش . إلى مؤلف والى مساعد مخرج والى مخرج .. وقدم للسينما الصامتة مئات المشاهد السينمائية القصيرة وكان يعتمد على الحركة البليغة « الخاطفة » وكان الناس يضحكون لقد استقرت شخصية ش . ش . فهو ذلك البهلوان القصير القامة المنفوخ القبعة .. الميكانيكى الحركة المرتعش الشارب الغليظ الحاجبين .. وهو اول من اتخذ لنفسه حركة الانسان الآلى قبل اختراع الانسان الآلى .. وكانت له فلسفة . إن الانسان أصبح هو الآخر آلة .. اخترع الآلة ثم خر ساجدا للآلة .. عبداً ذليلا .. اراد الآلة خادما له ، فاستعبدته الآلة !

ومن هذا المعنى ولدت كل افكاره الفلسفية الحزينة وهى أن الإنسان يحاول أن يسعد نفسه فلا يحظى الا بالتعاسة .. ولكنه لم يفلح فى انقاص حجم ومساحة واعماق الشقاء الانسانى ومن احتكاك الاحداث والاشخاص تتولد شرارة الضحك .. وفى أعماله الفنية نجد مواقف بليغة ولما نطقت السينما ونطق هو أيضا كانت له حكمة تتألق فى حواره وفى مواقفه ..
يقول مثلا : الشعر خطاب غرامى موجه لقلوب الناس .
ويقول : احب الرجل الذى يواجه الناس بالحقيقة والدموع فى عينيه .
ويقول : اننا نخاف من منظر الدم مع انه يجرى فى عروقنا !
ويقول : انني اتعذب لانني وحدى .. واتعذب لانني معك ، فانا وحدى معك !
ثم هذه الكلمات ايضا :
كل واحد منا بهلوان امام رغباته .. فهى التى تجعلك تتلوى وتتكسر ثم تعتدل وتستدير وتهرب حتى لا تقول لأحد : شكرا ..

لا يوجد انسان سافل تماما .. ولا يوجد انسان طيب تماما .. وانما كل انسان كوكتيل من السفالة والطيبة .. انه « طافل »!

لابد من الطين للشجرة .. ولابد من الوحل للقديسين .. بشرط ان يكون الوحل قابلا للغسل بعد ذلك ..!

لا أعرف كيف كنت أجعل الناس يضحكون ، يضحكون علي وأنا أتعذب خوفا من الفشل .. وكانت سعادتي أن أراهم يضربونني بكل ماف ايديهم وكانوا يصيبونني ف وجهي وهم يرمونني بالفلوس وكانت الفلوس توجعني .. وكنت ابكي وأضحك معا ..!

أنا صرصار فيلسوف يطاردني برغوث إرهابي ..!

أنا ولدت مرتين : المرة الأولى وبعدها بعام عاقب والدى امي فطلقها .. المرة الثانية عندما انحاش صوت أمي .. هنا ولدت من حنجرتها .. فأحسست انني تعويض تافه جدا عن خسارة فادحة لامي ..

الانسان هو القزم الوحيد الذى يتحدى عمالقة الطبيعة : البحار والجبال والعواصف والمجهول ولكنه فشل ف تحديه لنفسه ..

* * *

واستقرت عظمة شارلى شابلن وقدرته الفذة على التمثيل والاخراج والتاليف الموسيقى والغنائى ف افلامه الشهيرة : أضواء المدينة والعصور الحديثة ومسيو فردو والدكتاتور العظيم هتلر .. وملك نيويورك وغيرها ..

ولم يكن من الصعب على الامريكان المتطرفين أن يجدوا عنده بذور التمرد على اليمين الرأسمالى وعلى الامبراطورية الامريكية ولذلك اتهموه بالنشاط المعادى لامريكا .. اى انه شيوعى او يدعو لذلك .. فطردوه من أمريكا .. فاقام ف سويسرا من سنة ١٩٥٣ مع زوجته الرابعة ابنة الاديب الامريكى يوجين اونيل .. ولم يعد إلى أمريكا إلا سنة ١٩٧٣ قبل وفاته بأربع سنوات فاعطوه جائزة الاوسكار الثانية .. الاولى كانت قبل ذلك بخمسين عاما ..

وكان ش . ش . حريصا جدا ف حياته على شيئين : الصحة والفلوس . اما الفلوس فجمع منها الكثير جدا .. وكان ينفق بالورقة والقلم .. وكان يعطى أولاده راتبا شهريا ويطلب اليهم ان يقدموا له حسابا فقط ليعرف كيف ينفقون واين ؟ ولماذا ؟

وكان يكذب عليهم ويقول : أريد أن أنتج فيلما عن الشباب ..

وعندما جاءته ابنته الكبرى بكشف حسابها اندهش كيف انها انفقت كل فلوسها فى ليلة واحدة .. فقالت : دعوت أصدقائى إلى مشاهدة أحد أفلامك ثم إلى عشاء نناقش فيه : معنى الذى رأينا ..

ثم قدمت له ملخصا للمناقشة والدراسة .

فكافأها أبوها على ذلك قائلا : تأخرت هذه الملاحظات وهذه النصائح عشرين عاما .. لو أحد قال لى كل ذلك لغيرت حياتى .. أشكرك ..!

ثم كافأها بمرتب سنة على هذا البحث الممتاز الذى طلب إلى زوجته أن تنشره بعد وفاته بعشر سنوات .. ولكن الزوجة لم تنشره ..

أما صحة ش . ش . فكانت نموذجية فهو يأكل بحساب ويمشى بحساب ويسبح ويتشقلب ويقف على رأسه ويتدحرج فى برميل من أعلى الجبل .. وله فى ذلك نظريات أخذها من اليوجا الهندية .. ثم إنه عندما مات قال الأطباء : لم يمت ضعيفا وانما تدفقت فيه الحياة .. كما يرتفع التيار الكهربى فجأة فتحترق المصابيح .. فقد كانت حيويته وطاقته أقوى من احتمال جسمه الضئيل .. فمات محترقا .. مات شابا فى ملابس شيخ ..!

وعندما نشرت إحدى الصحف أنه يتعاطى حبوبا مقوية وهرمونات الشباب لجأ الى القضاء واصر ان يقاضى الشركة الطبية التى أعلنت فى الصحف انها هى المسئولة عن حيويته وشبابه .. وطلب تعويضا ماليا ضخما ولما سأله القاضى عن الاضرار التى لحقت به ؟ قال : تماما كما يقال لتلميذ مجتهد جدا .. ان احد زملائه قد كتب له الاجابة ..

فطلب اليه القاضى ان يوضح موقفه فقال : اعذرنى ياصاحب العدالة .. تماما كما يقال أن حيثيات الحكم فى هذه القضية .. والحكم نفسه قد أملاه عليك حاجب المحكمة ..

وحكم له القاضى بالتعويض الكبير الذى أصر ش . ش . على أن يقبضه وأن يضيفه إلى حسابه .

فالصحة والشباب والحيوية واللياقة كلها من تجاربه ومن صنعه ومن قراءاته وليست بفعل عقار أو هورمون لشركة معينة !

* * *

ولما سئل ش . ش . عن أحب الافلام اليه قال : ذلك الفيلم الصامت الذى

ترى فيه انسان يربط مسمارا واحدا .. فقط يربط مسمارا والعجلات امامه تدور وهو لا يستطيع ان يلتقط انفاسه .

فهذه هي بالضبط صورة الانسان في العصر الحديث .. لقد صنع الآلة ليكون هو ايضا آلة .. يربط مسمارا فقط يربط مسمارا في جهاز .. يعيش ويموت يربط مسمارا .. ولو رأيت الرجل فأنت لا تعرف ان كان هو الذى يربط المسمار أو هو المسمار الذى يدوخه .. هذا الانسان لو طرده المصنع فإنه يموت .. لأنه لا يستطيع أن يربط مسمارا في بيته .. أو في دكانه .. وانما في هذا المصنع فقط .. فهو عبد ذلول ذليل للآلات التى اخترعها .. فهو على المسمار يعيش وبه يموت ..!

١ – هتلر .. وأساطير جرمانية أخرى !

لاسباب كثيرة عريقة كان إعجابي بالشعب الالماني ، وبكل ما هو الماني .. ولم أفلح إلا بعد وقت طويل ان اناقش افكاري واحكامي المطلقة على الأدب والموسيقى والعلم والسياسة الالمانية . ولكن ظل الاعجاب قويا جدا ..

ونحن اطفال كان اهم حادث في حياتنا هو عندما نسمع الموسيقى الغربية تجيء من سيارة بيضاء لامعة مضيئة .. وكنا نردد وراءها : هاتو براد شاى .. هاتوا براد شاى .. ولم تكن الأغنية الأجنبية تقول ذلك .. ولكن كلامها موسيقاها هذا الايقاع .. عرفنا فيما بعد ان الاغنية تقول : كوكاراتشي .. أى الصرصار .. وكانت السيارة تعلن عن اسبرين باير تختار احدى الخرابات وتضع شاشة على احد الجدران وتعرض لنا صورا لاناس مصابين بالصداع والزكام والرشح وكيف ان اسبرين باير هو الذى يشفيها .. وقبل ذلك موسيقى وأغنيات لانفهمها .. وكانت السيارة ترتاد القرية كلها والقرى المجاورة .. وكان يبهرنا جدا ان احدا لا يستطيع ان يلمس السيارة .. فاذا وضع يده عليها ارتعش جسمه كله .. وينزل من السيارة شاب أشقر أزرق العينين لهجته العربية مكسرة .. وبعد عرض الصور عن فوائد الاسبرين فإنه يوزع علينا اقراصا من الاسبرين .. ثم يختفي .. ونظل طوال الأسبوع ننتظر مجيء هذه السيارة التى كأنها تهبط من السماء وتنشق لها الأرض .. فاذا جاءت مرة أخرى كان حماسنا اعمق .. وكانت عندنا رغبة قوية في ان نتأكد من الذى نراه .. ونتأكد من انه صحيح ان احدا لا يقوى على لمس السيارة دون ان يتكهرب ..

ولا اعرف كم عدد المرات التى رأيت فيها السيارة . ولم افلح في جميع المرات أن اتأكد من الذى ارى : كيف تتحرك الصور .. صور كاريكاتورية .. صور حقيقية ..

وعندما كبرت كنت لا أجد إلا مجلة واحدة فى بيتنا وبيوت الاصدقاء والذين يعملون فى الزراعة .. انها مجلة يصدرها ثابت ثابت .. عنوانها : المانيا اليوم .. وهى تتحدث عن الاسمدة الكيماوية التى تستخدم فى تقوية التربة .. والمجلة كبيرة .. وفيها مقالات عن تطور الصناعات الالمانية وعن الحياة فى المانيا .. ولا أذكر أننى تركت عددا واحدا دون أن أقرأ الذى أفهمه والذى لا افهمه .. ولا اذكر اننى وجدت عددا واحدا من هذه المجلة فى أى مكان دون أن تمتد يدى إليه وكان أبى يعمل فى الزراعة عند عدلى باشا يكن وعز الدين بك يكن ونعمت هانم يكن .. وكان يشجعنى على القراءة . وعلى قراءة هذه الصفحات الباهرة عن المانيا فى ذلك الوقت .

وفى صفحات المجلة قرأت عن الشعراء الألمان والعلماء والموسيقيين .. ولا أذكر اننى قرأت فى ذلك الوقت مجلة عن اية دولة أوروبية ..

وفى سن الطفولة اصبح كل ما هو المانى هو معجزة فالعلم المانى والأدب والفن والموسيقى والعبقرية .. أما الشعوب الأخرى فهى تتفرج على ذلك !

وفجأة وجدت من الكتب المعروضة فى ميدان المحطة بالمنصورة رواية مترجمة عن الالمانية للشاعر شيلر . الرواية اسمها « الحب والدسيسة » وهى اول رواية اقرؤها فى حياتى .. احداث غريبة .. كلام عجيب عبارات مألوفة .. والرواية الثانية التى قرأتها كانت لأديب مصرى اسمه حسين عفيف والرواية اسمها « زينات » .. كلام غريب عجيب رقيق .. لم أفهم بالضبط ما هو وجه الشبه والخلاف بين الاثنين .. ولكن الأسلوب والمعانى والأحداث ضربتنى فى دماغى .. فامتدت يداى تقلبان فى كل الكتب المعروضة وتبحث عن جديد .. ثم وجدت موجزا لمسرحية « فاوست » للشاعر الألمانى جيته .. ما هذا ؟ من هؤلاء ؟ كيف يفكرون ؟ ماذا يقولون ؟ لماذا هم مختلفون ؟ كيف أفكر مثلهم ؟ كيف اقول قولهم ؟ كيف اعيش حياتهم ؟ .. كيف اقترب ؟ كيف اكتب مثلهم .. ؟ كيف اكون واحدا منهم ؟ !

وقرأت للاستاذ العقاد دراسات عن الفيلسوف نيتشه وعن الفيلسوف شوبنهور .. ما هذا ؟ اى نوع من خلق الله هؤلاء الناس .. انها مؤامرة كاملة الشروط قد استولت على عقلى وعلى خيالى .. وبسرعة اتجهت الى الألمان من جيراننا والألمان من اقاربنا .. هذه زوجة المانية .. هذه فتاة .. هذا فتى .. وكان عندنا فى المنصورة بائع ساعات اسمه هرش .. لم اجد وسيلة لدخول محل

الساعات رحت أتحايل لكى اتكلم مع اى احد .. لكى المس اى احد .. لم اجد إلا شقراوات جميلات يتكلمن الألمانية .. سرت وراءهن مبهورا .. سرت وراء الاب والعم والخال .. عرفت من الساعى انهم يعلمون اى أحد اللغة الالمانية .. واحيانا يدفعون له .. تقدمت .. وقلت : انني أول المدرسة .. وقرأت للشاعر فلان وللشاعر فلان واحب الالمان .. والمانيا ... و ...

وكان أول درس فى اللغة الالمانية .. والثانى .. والكتب والمجلات .. وفى اقل من سنة استطعت أن اتكلم الالمانية وكان تعطشى للغة هائلا .. وحفظت القصائد الصغيرة والأغنيات .. وذهب بى الخيال بعيدا جدا .. إلى حب واحدة من البنات .. والى الزواج منها .. والى الحياة فى المانيا .. والى ان اركب سيارة من سيارات باير .. وانا الذى اقودها .. وأنا وأنا .. والى اخر خيالات الاطفال .

وكان لى صديق اسمه ضياء الدين بدر .. امه ألمانية .. وشكله المانى .. وطريقته فى النطق جذابة .. اما وجهه الاحمر .. والبريق فى عينيه والاندفاع فى مشيته ولا أعرف . ما هى العلاقة بين حب كل ما هو المانى وبين أن ندخل نحن الاثنين الأزهر الشريف . قررنا ذلك . ولا أعرف بالضبط ما الذى قلناه ونحن اربعة نمشى فى شارع النيل بالمنصورة : خالد حسونة المحامى الآن وضياء الدين بدر ، لا أعرف اين هو ، والمرحوم جمال ابورية أديب الاطفال وانا .. وتخيلنا ان نكون اساتذة فى الأزهر . وكل واحد منا له ركن وأمامنا وحولنا التلاميذ نحدثهم عن الفلسفة الالمانية والأدب الالمانى .. اما الكتب التى كنت اراها عند ضياء الدين بدر ، فلا اقدر على قراءتها .. ولأول مرة اسمع اسم هتلر .. صورته ، وجهه ، شعره ، عيناه .. هذا هو الساحر الألمانى .. وعرفت ان له كتابا اسمه « كفاحى » وكان ضياء الدين بدر ينفرد بى ويقول ما جاء فى هذا الكتاب .. لا اعرف ما الذى قال ولا اذكر .. ولكنه شخص عظيم جدا قوى جدا ساحر جدا .. خرج من الحانات . يخطب ويدخل السجن ويكتب قصة حياته فى السجن .. ويخرج ويلتف حوله الشعب الألمانى .. اذن هو اعظم واحد فى المانيا .. فى هذا الوقت كنت طالبا بالسنة الأولى الثانوية .. وليس كل ذلك واضحا فى راسى .. وانما هى معلومات لها اثر السحر والكهرباء فى نفسى وفى جسمى .. ولم اكن فى حاجة الى مزيد من الانبهار فى ذلك الوقت .

وامتلأت يداى بالكتب الصغيرة والصور عن المانيا .. وظهرت فتيات جميلات جئن من المانيا .. ولا اعرف لماذا ؟ ولا من هؤلاء ؟ ووجدت فى يدى النشيد

القومى الألمانى : المانيا فوق الجميع .. فوق الجميع فى العالم .. نبيذ المانيا ونساء المانيا .. والحق والمساواة والعدل والوحدة .. من أجل الوطن .. المانيا فوق الجميع فى العالم ..

ثم كانت القنبلة .. وجدت كتابا عن نيتشه للدكتور عبدالرحمن بدوى .. وكتابا عن شوبنهور للدكتور عبدالرحمن بدوى .. وكتابا عن اشبنجلر للدكتور عبدالرحمن بدوى .. ثم د . عبدالرحمن بدوى نفسه .. وكنت قد دخلت كلية الآداب قسم الفلسفة .

وكان د . بدوى .. صورة لكل ما اتخيل واحلم واتمنى .. أسمر حاد النظرة .. الرأس كبير عال شامخ .. المشية سريعة .. والعلم يتدفق منه .. نوع غريب من البشر .. نوع فذٌ من الأساتذة .. وكل الذين يتحدث عنهم د . عبدالرحمن بدوى هم من الفلاسفة الألمان والعلماء الألمان والمستشرقين الألمان .. انه هو الآخر المانى الثقافة والاسلوب والهدف .. لم اعد فى حاجة الى مزيد لكى انحاز نهائيا الى الفلسفة الألمانية .. انتهى ..

وفى ذلك الوقت قرأت ترجمة لرسائل الشاعر الألمانى ريلكه .. من هذا أيضا ؟ ! الرسائل ترجمها د . محمد عبدالهادى أبو ريدة .. وهذا عالم بالأدب الألمانى والفلسفة الألمانية .. قرأت وقرأت .. وحاولت ان افهم .. وحاولت وعرفت ان اللغة الألمانية التى تقدمت فيها جدا ، غامضة صعبة .. شاقة .. وكذلك افكارهم ومجاهداتهم وتحدياتهم .. وحقد العالم كله على الشعب الألمانى ..

وفى ذلك الوقت ـ أى فى السنة الأولى من كلية الآداب ـ سمعت عن « جمعية الجرامفون » .. اى جمعية الفـونـوغراف . وهى كلمة لم يعد احد يعرفها الآن .. وهو الجهاز الذى نضع فيه الاسطوانة ونضع فوقها السماعة ذات الابرة ، وتدور الاسطوانة كما يدور شريط الكاسيت وتنطلق الموسيقى .. يرأس هذه الجمعية أستاذ د . لويس عوض . وهو أيضا شخصية باهرة .. وكنا نحدد الشخصيات بمدى قربها وبعدها من عبدالرحمن بدوى .. هل هو احسن .. هل هو اعلم .. هل هو الطف .. وكان لويس عوض الطف وارق وكان رجلا ودودا .. وكان يجلس الى جوارى على الأرض وكان يأكل السندوتش ويشرح لنا السمفونية التى نسمعها .. وتوالت الاسماء : بتهوفن وفاجنر وموتسارت وهندل وهايدن وباخ وبرامز واشتراوس وكلهم من الألمان !!

واذكر الأسماء التى كانت تدمن الموسيقى وتفهم وتقول .. وكان كل ذلك

جديدا .. من هذه الاسماء من طلبة الفلسفة : مصطفى سويف وبدر الديب وعباس احمد ومحمد شرف ومحمود امين العالم وكمال الدسوقى .. ومن قسم اللغة العربية عبدالرحمن الخميسى ولكن كان اكثرنا علما وفهما وممارسة الموسيقار جمال عبدالرحيم اما الذى كان يعزف على البيانو ويبهرنا فهو عبدالحميد توفيق زكى .

وكان يدرس لى « علم الجمال » د . منصور باشا فهمى . واقول يدرس لى فقد كنت طالب الامتياز الوحيد . وطلبة الامتياز تضاف اليهم علوم اكثر من زملائهم من الطلبة العاديين . فكانت اللغة الألمانية وعلم الجمال وعلم الاجتماع الفرنسى ـ علوما اضافية لى وحدى .

وفى ذلك الوقت كان استاذ اللغة اللاتينية سويسريا اسمه د . باترى . وكان عازفا على الكمان في الفرقة السيمفونية للأوبرا .. وفي يوم لا انساه ابدا ألقى محاضرة موضوعها «ميتافزيقا الموسيقى» . وأعلنا عن المحاضرة ونقلنا البيانو الذى يعزف عليه عبد الحميد توفيق زكي من نادي كلية الآداب إلى المدرج ٧٨ .. ولم يحضر احد .. انا وواحد كان اسمه جليل البندارى الصحفى الشهير بعد ذلك والذى تزوج زميلة لنا اسمها فاطمة .. كما تزوج عبدالرحمن الخميسى زميلة لنا اسمها شفيقة . واتذكرهما الآن فكلتاهما كانت ترتدي فستانا اسود .

وجاء منصور باشا فهمى وجاء د . « باترى » ولم يجدا فى المدرج الذى يتسع لالف طالب إلا انا وجليل البندارى .. ولم يكد يبدأ د . باترى يتكلم الفرنسية واحيانا بالالمانية حتى تسلل جليل البندارى وخرج . فلم يبق الا أنا فى ناحية الى أقصى اليمين والباشا إلى أقصى اليسار .. وكانت محاضرة رائعة .. كلاما جديدا غريبا عجيبا عن الموسيقى والفلسفة .. وكانت نقطة تحول فى فهمى وتذوقى للموسيقى . ولم اكن اعرف شيئا من كل ذلك . فقط كنت استمع وانصت واتخيل ما يحلو لى .. دون ان أعرف ما الذى تقوله الموسيقى .. فقط اترك لها نفسى واستسلم لمشاعرى .. ولا اعرف ما الذى اقوله أو احكيه او ارويه بعد ذلك .. ولكن بعد هذه المحاضرة اصبحت الموسيقى كلاما وشعرا وتاريخا .. وكل الذين تحدث عنهم د . باترى من الالمان !

وبمنتهى الوضوح انقسمت الدنيا نصفين : نصفها الغربى عبدالرحمن بدوى .. ونصفها الشرقى لويس عوض .

ولا أعرف اين كان العقاد وطه حسين .. ولكن من المؤكد ان العقاد امامى ..

أو على يمينى وعلى رأسى .. أو كان بعيدا تماما عن الموسيقى والفلسفة الالمانية . ولم اسمع من العقاد مرة واحدة انه كان يستمع إلى الموسيقى الالمانية أو الغربية .. وانما عبارات عارضة .. عابرة .. ولم يكن له رأى واضح .. ولا حتى سمعت من طه حسين .. أو لم يكن يعنينى ان اسمع منه .. فقد اكتفيت بما يقوله د . عبدالرحمن بدوى ود . لويس عوض ..

وانقسم طلبة قسم الفلسفة نصفين حادين بالسيف او بالسكين :

مثاليون المان متطرفون مؤمنون بالقوة والفردية المطلقة وسيادة الشعوب الآرية يملأون ايديهم من السحاب ويعتصرونها قطرات ويحلمون . وماركسيون واقعيون عمليون ثوريون متمردون يملأون ايديهم من التراب ويصنعون منها تماثيل من الطين ..

وبسرعة تحول المثاليون الى وجوديين .. وكان مصدرنا الوحيد ف العلم والمعرفة هو ما كتبه وما قاله د . عبدالرحمن بدوى .. ومنذ ذلك اليوم المشهود ف تاريخنا ونحن طلبة يوم مناقشة د . بدوى ف رسالة الدكتوراه التى كان موضوعها « الزمان الوجودى » .. اللغة عربية والتعبيرات جديدة .. والذى يبنيه امامنا من صروح منطقية ميتا فزيقية عجب ف عجب .. وطريقته ف الحديث واعتزازه وكبرياؤه .. وعلمه الغزير ونبرة التحدى والتعالى كل ذلك بهرنا ، اخذنا سحرنا .

وكانت لجنة الامتحان مكونة من : طه حسين وحسن ابراهيم وعلى عبدالواحد وافى وبارل كراوس ..

أما طه حسين فقال عنه : انه أول فيلسوف مصرى .. واما المستشرق الالمانى كراوس فقد اعترض على نقط جوهرية بديهية جدا . وكان الحق معه .. اما على عبدالواحد وافى استاذ علم الاجتماع ، وهو من اساتذتنا الاجلاء ، فقد كان اعتراضه على شخص عبدالرحمن بدوى اكثر من اعتراضه على فلسفته وعلى شطحاته الفكرية ..

وبعد نهاية المناقشة حمله الطلبة على الاكتاف .. ولم يكن ذلك عن فهم لما يقول وانما عن اعجاب بشخصه وفكره وكره ف د . على عبدالواحد وافى الذى كان عنيفا استفزازيا .. وطبيعى أن يحصل د . بدوى الذى رعاه وشجعه طه حسين وأوفده وهو طالب فى بعثة إلى فرنسا ، على مرتبة الشرف الأولى .

وكان عبدالرحمن بدوى صورة اغريقية لنا باهرة فهو عالم باللغة العربية

وفنونها .. وكان اديبا وكان شاعرا وهو اكثر علما بالفرنسية والألمانية والايطالية واليونانية واللاتينية والاسبانية والفارسية .. وقد اضاف بموهبته العظيمة مئات المصطلحات الفلسفية الى اللغة العربية .. لم تكن معروفة من قبل . وهو الذى نقل الينا فلسفات الحضارة .. وكلها المانية .. ونقل الينا نظريات الفلسفة الوجودية وكلها المانية ايضا .. وبعد ذلك قدم لنا الوجودية الفرنسية .

* * *

وسافرت الى المانيا كثيرا .. ورأيت وسمعت وقرأت وتأملت .. وقابلت العالم الكبير والمؤرخ د . فلهلم هوفر وزوجته وابنته .. وكنا جميعا فى مدينة البندقية .. وكان لقاؤنا صدفة . وانا الذى اقتربت منه وسألته : سمعتك تتحدث عن أثر الفلسفة الألمانية فى العالم كله .. وانه لم يكن قبلها ولا بعدها فلسفة فى اى مكان فهل تعنى ما تقول ؟

وقال كلاما معناه : انه كان هناك افكار فلسفية فى كل الحضارات . ولكن لم تتحول الى مذاهب إلا فى العقلية الألمانية ..

اندهشت . فسألت : وما قولك فى الفلاسفة الاغريق : سقراط وافلاطون وارسطو .

قال : كلام فارغ !

كلام فارغ ؟ ! وسألته مرة أخرى ان كان جادا ، فأكد لى انه لم يكن جاداً فى حياته مثل ما هو هذه اللحظة !

فاذا كانت الفلسفة الاغريقية كلاما فارغا فالفلسفة العربية .. والفلسفات المسيحية .. كلها افرغ من الفراغ . وإذا كان الأدباء هم الألمان والشعراء هم الالمان ، فنحن العرب لم نقل شيئا لا فى النثر ولا فى الشعر !!

فسألته : ان كان قد قرأ شيئا مترجما من الادب العربى القديم أو حتى المعاصر ؟ ! ولكنه لم يقرأ وليس فى نيته . وسألنى ان كنت قد وجدت فارقا كبيرا بين الشعر العربى والألمانى .. وادهشنى السؤال . ووجدت انه لا جدوى من الاجابة فليس من الالمان شاعر كالمتنبى وابى تمام والبحترى وعشرات من شعراء الجاهلية والاسلام ولا من الشعراء المحدثين والمعاصرين هذا مؤكد . ولا اقبل فيه النقاش !

وسألته وانا فى شدة الغيظ : وهل هذا هو رأى بعض الألمان .

فأجاب : بأنهم جميعا من رأيه ؟ !

جميعا ؟ ومن رأيه هو ؟ يعني نحن لا كتبنا ولا نظمنا ولا لنا تاريخ ولن يكون .. مش فاهم ولا قادر على ان اضع عقلى فى دماغى ودماغى على كتفى وأن اظل جالسا هكذا انظر اليه فى دهشة بلهاء !

سألته : ألا ترى اننى افهم مثلك ؟

قال : تفهم وتعرف من الفلسفة الالمانية والادب مالا اعرف .. ويدهشنى ذلك .. قلت : اذن من العرب ، ومن الشعوب الاخرى من يفهم من يدرس ومن يحسن المقارنة والمفاضلة ومن يستطيع ان يحكم لنا او عليكم .. فلو قلت لك مثلا أن من شعرائنا وادبائنا من هم أعظم كثيرا جدا من الشعراء الالمان هل تصدقنى ؟

ثم سألته : وما رأيك فى نابليون والاسكندر الاكبر ورمسيس الثانى .. وموسى وعيسى ومحمد ؟ !

وكان الخلاف بيننا حادا . وكان لابد ان تتدخل زوجته الجميلة وابنته الاجمل .. فقد قال باختصار شديد : ان هتلر كان على حق عندما رأى كل الشعوب الاخرى لا تستحق الحياة .. وانه كان يجب ان يحرق فى افران الغاز أضعاف الذى أحرق . وان العالم كله قد فاتته فرصة ان يكون متشرفا بحكم الشعوب الجرمانية له !!

لقد كان هذا الرجل اسوأ واحقر من عرفت من الالمان فى حياتى .. وكان لقائى به اكبر صدمة فى حياتى .. وكان تعاليه واحتقاره لكل الناس ، وللعرب بصفة خاصة والمسلمين بصفة اخص ، اكبر مستنقع من الوحل والعفونة سقطت فيه .. ولم افلح إلا بعد وقت طويل ان اتخلص من ادرانه فى ملابسى وفى انفى وفى عينى .

حتى لو كان من الالمان من يرون رأيه فهم فئة شاذة .. او حتى لو كانوا اغلبية ، فقد اصابهم وباء الغرور والعنصرية والوطنية الضيقة .

ولكن فى التاريخ الالمانى شموس واقمار ونجوم اضاءت لنا ، وما تزال ، وفتحت لنا أبوابا وسماوات وماتزال .. ولكن هذا الرجل وكثيرين غيره .. هم رد فعل جنونى ، لما اصاب المانيا بعد انهيارها فى الحرب العالمية الثانية ، ومعها كل القيم والمثل العليا .. وانكشاف الوجه القبيح للهمجية الجرمانية البشعة .

٢ ـ هتلر : أعظم قوة
خراب فى التاريخ !

ونحن شباب ندرس الفلسفة سقطنا فى جاذبية فيلسوف القوة : نيتشه .. انه ذلك الانسان الهزيل ضعيف البصر الذى تعذب بعبقريته فدخل مستشفى الامراض العقلية .. والذى حاول طول حياته ان يتخلص من القيود الدينية الانثوية التى رافقته منذ طفولته .. فهو من اسرة من القساوسة .. وقد تولى تربيته عدد من النساء منذ وفاة امه .. وكان زملاؤه يصفونه بانه (القسيس الصغير) .. كذلك كان مظهره . أما أعماقه فهى جهنم رجال الدين ـ اى دين . وهو لم يكن فيلسوفا فقط بل كان شاعرا .. فيلسوف الشعراء ، شاعر الفلسفة . صاحب اجمل عبارة فى تاريخ الفكر الالمانى .

كان ينادى بأعلى صوته : لا حل الا بالقوة .. لا ارادة أعظم من ارادة الانسان القوى .. انت قوى اذن انت عظيم . أنت عظيم اذن انت حاكم . انت حاكم فانت مطلق .. انت مطلق اذن تنحنى لك كل الرءوس . فهذه الرءوس لم تخلق الا لكى تنحنى لمن هو عظيم ..

وهذا العظيم يجب ان نفسح له الطريق حتى لا نعترض عظمته . والعظماء هم الصفوة المختارة من الناس . اما الذين ليسوا من الصفوة النبيلة الارستقراطية العظيمة ، فهم العامة . هم الناس العاديون .

ومن الظلم ان نساوى بين العاديين وبين الممتازين .. وكل دعوة الى المساواة هى دعوة ظالمة تحط من شأن العظماء . ولذلك فالديانة المسيحية هى التى دعت إلى المساواة والى التسامح هى التى افسدت الفكر الانسانى بالفلسفة .. وهى التى تدعو إلى الذل والهوان : من ضربك على خدك ، ادر له الخد الآخر ـ منتهى الخنوع . ولذلك يجب مقاومة التسامح والمساواة والديمقراطية التى هى

اهدار لعظمة الانسان من اجل انسان لا موهبة له ولا ميزة ولا مستقبل !

ويقول فيلسوف القوة نيتشة : ايها الانسان لا تستسلم لناعم الكلام .. وناعمات الملمس من النساء .. اما الحب فهو مؤامرة على مواهبك .. على نبلك .. ان الحب الذى يستدرجك الى الجنس ، ليس حبا انه مصيدة تنصبها المرأة من اجل الايقاع بك . فاذا وقعت جردتك من سلاحك ، وجعلتك كلبا ذليلا .. والغزل ليس ألا نوعا من القتال .. او تجريب الاسلحة التى لديك .. والزواج هو الهدف .. واما الغاية النهائية فهى ان يكون هناك اولاد .. والآن يجب أن نعود الى محاسبة انفسنا على هذا الذى حدث ابتداء من اول نظرة الى آخر عناق بين الرجل والمرأة . فهى اولا انشغلت بالرجل وشغلته بها . وترجم الرجل ذلك على انه حب ، ودفعه غروره الى ان يتوهم بانها هى التى بدأت بالحب . فهو اذن انسان قوى استطاع أن يستولى على قلبها .. وهى لذلك لم تقاومه .. فاستجاب لضعفها .. واسعده ان يكون قد سيطر عليها .. وانها سقطت امام اسلحته الفتاكة .. ثم انها اثارت غيرته .. اوهمته بأن آخرين يريدون ان يخطفوها منه .. وهنا احس أنه فى خطر . ومادام فى خطر لابد ان يشهر كل اسلحة القتال والحرب من اجل النصر فى النهاية . هى التى اخترعت المعركة . ولانه هو مقاتل صياد بطبعه ، فانه اعد اسلحته لكى يطلقها فورا على الخصم والعدو والخطر الذى كشفت عنه المرأة .. ولا تزال المرأة تدخل الرجل فى معارك وهمية حتى يكون حارسها ليلا ونهارا . ومادام الرجل قد تحول الى حارس لها ، استغرقت هى فى النوم .. فقد جاءها الرجل غازيا فاصبح اسيرا حارسا .. ولذلك كان الزواج هو عقد بيع وشراء .. اشتراها ووافقت . وانتهت المعركة باسم الحب والغيرة الى الزواج .. وإلى الاولاد !

يقول نيتشة : الرجل مغفل والمرأة خادعة كاذبة شريرة ..

اما تصحيح هذا الفهم عند الرجل فهو . ان الزواج هو السيطرة . رجل يسيطر على امرأة . فالمرأة يجب اقناعها دائما بأنها أم .. فقط أم . ويجب الا تغيب عن الرجل خطورة هذا الكائن الخبيث . فأعظم ما تقوم به المرأة هى أن تلد . ان الرجل لا يستطيع أن ينافسها فى ذلك .. ثم ان المرأة بها شيء من الرجولة . وهى قادرة على استخدام هذه الرجولة ضد الرجل ، وقادرة على التغلب عليه .. فالمرأة فى استطاعتها أن تكون أقوى من كل الرجال ، بالاضافة

الى انها انثى .. ولذلك يجب ان يتزود الرجل باسلحة من اليقظة والدهاء لكى يظل مسيطرا على هذا المخلوق الذى خرج من ضلع الرجل ، ليحطم بقية الاضلاع !

ويرى الفيلسوف الالمانى فريدريش نيتشة وهو أحد انبياء النازية : ان الهدف من الحياة الانسانية كلها ظهور السوبرمان ـ الانسان الاعلى ..

فالانسان الاعلى ليس موجودا الآن .. ولكن يجب ان نفسح له الطريق والطريق هو بتحسين السلالات الانسانية .. فالبقاء للاقوى .. والاقوى هو الاصلح والاصلح هو الامثل ، وانبل النبلاء هو الانسان الاعلى ..

ولن يظهر الانسان الاعلى إلا من الخاصة .. خاصة المفكرين والساسه والجنود .. فكل تاريخ الانسانية ليس الا تفاعلات كيميائية واحدة بعد اخرى .. حتى تظهر الصفوة .. وتفاعلات كيماوية فى الصفوة حتى تظهر صفوة الصفوة .. فيقفز منها الانسان الاعلى .. فاذا ظهر ، كان من الواجب تاريخيا وبيولوجيا وفلسفيا ان ننحنى له .. فقد بلغت الانسانية مثلها الاسمى .. وعلى التاريخ أن يركع ويتلقى اوامر الانسان الاعلى ، فالانسان الاعلى قد ولد فينا وولد بنا ، لكى يملى على الاجيال مستقبلها وسعادتها ..

ويجب ألا ننسى أن الطبيعة فكرة الانسان الممتاز .. وتصفه بأنه الشاذ .. أو المجنون العبقرى أو العبقرى المجنون .. ولا يكاد يظهر الانسان الفريد حتى يقف الناس منه موقف العداء .. يقاومونه .. ويشهرون به .. ويحشدون ضده كل قوى التفاهة والضحالة والسوقية .. أما سبب ذلك فلأن الأغلبية لا تعرف لغته ولا تفهم رموزه وتخاف من رسالته .. لان رسالته هى أن يغير الناس وان يثيرهم بعضهم على بعض من اجل ان يستولى عليهم ويدفعهم الى الامام الذى لا يعرفونه .. ولكنهم يشعرون به من اول لحظة . ومن واجبه هو ان يدلهم عليه ، ان يدلهم على انفسهم .. ان يستعين بهم عليهم .. هذا هو الانسان الاعلى !

هكذ قال زرادشت ..

فزرادشت ليس هو النبى الفارسى المعروف .. ولكن له نفس الاسم . فعندما كان الفيلسوف جالسا على احد الجبال يفكر وحده فى صفاء .. احس ان شيئا ما قد امتلأ به .. ان قوة خفية قد استولت عليه .. وانه راح يرتجف .. وان قلمه يتحرك دون اذن منه .. فقد رأى ان زرادشت هذا قد هبط من قمم الجبال يناديه ويلقنه مبادىء الدين الجديد للانسان الاعلى ..

و« هكذا قال زرادشت » هو أروع أنشودة شعرية فلسفية كتبها أحد في كل العصور . وظلت حياة الفيلسوف نيتشة حتى مات تفسيرا لرموز هذه الانشودة الشعرية الفلسفية الصوفية الجميلة الساحرة ..

وعندما هبط اليه زرادشت احس انها الشمس قد اشرقت ، فتوارت كل الشموع .. تماما كما سوف يتوارى الناس فى بهائه وروائه وجماله وعظمته .. وهو يدعو كل الناس بان يتركوا ما فى أيديهم ويسارعوا بالسجود له .. فذلك شرف ما بعده شرف ..

ويقول نيتشة انه كان يتمنى لو عاش ليزاحم الراكعين الساجدين لقداسة السوبرمان ، القادر على كل ما يعجز عنه الانسان !

ولا أدعى اننى استوعبت كل هذه المعانى وانا طالب صغير .. ولكن العبارات الفخمة والاشواك التى تخرج من تحت الورود ، والأنياب والأظافر والنفحة والحرارة العالية ، ونحن ندق الأرض دقا ، نخرق الأرض ونطاول الجبال .. كل ذلك مما يغرى الشباب ويسعدهم .. ويحول حرمانهم الى فلسفة .. ومخاوفهم الى جرأة ، وعجزهم عن اتخاذ القرار الى حكمة .. ورغبتهم فى التسلط الى رغبتهم فى خلق من يتسلط عليهم .. وبدلا من الاقتراب من المرأة فانهم يتعالون عليها ويرفضونها ويحتقرونها ويحتقرون ضعفهم ورغباتهم .. وفى نفس الوقت اذا احسوا نحوها بشىء ، ادركوا انها الغريزة .. ولكن الغريزة اعظم من العقل . فالغريزة تدفعهم والعقل يوقفهم . ولكن أعظم ما يفعله الانسان هو ان يستسلم للغريزة . وان يدرك بوضوح انه مقبل على اكذوبة على خدعة .. على مصيدة .. وانه اذا دخل المصيدة فليكن مرفوع الرأس .. وان يجرد نفسه بسرعة من كل ضعف وخوف .. فالمرأة أرادت وهو اراد ايضا .. هى تحبه وتكذب وهو يكذب ويحبها .. وهى لا تملك الا ان تكذب . فالكذب حيلة الضعيف . وهو يعلم . أو يجب ان يعلم . فاذا كان زواج . فهو يجب ان يعلم انها خدعة محبوكة مسبوكة نصبها المجتمع للرجل من أجل زيادة عدد السكان .. لا اكثر ولا اقل !

وقد كان الفيلسوف نيتشة نموذجا للفاشل فى أكثر من حب .. فقد أحب الفتاة اليهودية الجميلة سالومى .. واحبها العالم النمساوى فرويد والشاعر الألمانى ريلكه .. وعرض عليها نيتشة ان يتزوجها فاعتذرت . فكانت صدمته الكبرى .. ولم يشأ ان يحاول مع غيرها . واكتفى بهذا الباب الذى صدم وجهه

واغلق على قلبه وقلمه .. حتى أخت الفيلسوف نيتشة قد تركته وحيدا وهربت مع زوجها الى امريكا اللاتينية .. وكان يكره زوجها اشد الكراهية .. وحاولت أن تقنعه بالسفر معها ، ولكنه فضل المرض فى المانيا ، على الصحة فى امريكا مع شخص لا يحبه ..

والدول المثالية فى نظر نيتشة هى الالمانية الروسية : ان تحكم المانيا بعقولها الجبارة الشعوب السلافية بأعدادها الهائلة ومواردها الطبيعية الضخمة ، مستخدمة أموال اليهود وبراعتهم فى الادارة والاستثمار !

* * *

وجاء من بعد الفيلسوف الألماني نيتشة فيلسوف اخر هو الفرد روزنبرج وهو فيلسوف الحزب النازى وصاحب نظرياته العنصرية التى وجد بذورها فى كتاب « كفاحى » الذى ألفه هتلر فى السجن ..

فهتلر يرى أن هناك مؤامرة عالمية يديرها وينفذها اليهود . هذه المؤامرة هى التى هزمت المانيا فى الحرب العالمية الأولى .. وهى على استعداد لهزيمتها فى كل حرب مقبلة .. والديانة المسيحية هى الديانة اليهودية المعدلة .. فالتوراة اسمها « العهد القديم » والأناجيل اسمها « العهد الجديد » .. فالمسيح يهودى وديانته هى اليهودية وقد ادخل عليها تعديلات واضحة .. ويرى هتلر ان الشعوب الجرمانية هى سادة الشعوب .. ولابد ان تسود . ولابد من القضاء على كل مؤامرة يهودية للقضاء على الشعب الجرمانى ! ..

وقرأ كتاب « كفاحى » هذا الشاب الصحفى روزنبرج الذى ولد وتعلم فى روسيا . وعمل رئيسا لتحرير جريدة الحزب النازى . ثم اصدر كتابا بعنوان « اسطورة القرن العشرين » .. وفى هذا الكتاب افصح عن كل آمال واحلام هتلر فى السيطرة على العالم وفى سحق اليهود فى كل مكان فأحرق منهم أربعة ملايين بلا جريمة الا انهم يهود .. والا انهم اقرب الشعوب السامية الى يديه . فكل الساميين - الصفر - وكل الحاميين - السود - هم أحط نوعيات البشر . وقد خلقهم الله خدما وعبيدا وضحايا وترابا تحت سنابك الجنس الآرى .. اى الألمان .. ولذلك فروزنبرج ينفخ فى الشعب الألمانى المنهزم المنهار بعد الحرب العالمية الاولى .. بأن الانسانية قد حطمت نفسها .. حطمت اعظم وأروع ابنائها : الألمان .. وانه لابد من الانتقام من كل الناس .. وان الألمان هم الضحايا وقد جاء دورهم ان يعاقبوا اليهود وكل الساميين والحاميين . وأن

هتلر السوبرمان .. رجل العناية الالهية .

ادخرته ليوم موعود . وجاء اليوم الموعود . وتحدد الهدف وارتسم الطريق . وليس على الشعوب الجرمانية الارية الا ان تمشى وراءه الى اسمى الغايات .. فهو مصدر الشرف وجوهر الكرامة ، وهو نبى الانتقام .. رب الجيوش .. انه اعظم من الاسكندر الاكبر وفلهلم ونابليون .. انه خلاصة الخلاصة .. سيد الاسياد .. نبيل النبلاء .. انه القائد الملهم . فكلامه مقدس . وافكاره وحى . والموت فى سبيله حياة بعد الحياة ! انه الانسان الاعلى !

لقد ولد هتلر فى احدى المدن النمساوية .. وانتقل إلى المانيا وقد اجهضت أمه نفسها اربع مرات .. وجاء فى المرة الخامسة .. والتحق فى الجيش الالمانى .. وكان شجاعا . ومتحوه وساما . ودخلت الغازات السامة صدره ، فاصبح صوته اجش . وكان خطيبا ساحرا . اعظم خطباء القرن العشرين .. وكل العصور وكان صوته ساحرا لملايين الالمان . ولم يجرؤ احد على ان ينظر الى عينيه .. ولا حتى اقرب الناس اليه ! ..

حاول أن يدخل اكاديمية الفنون فى فيينا .. رفضوه لضعف مستواه . حاول مرة اخرى . وتكرر الرفض . ويقال ان امه كانت تعمل عند اسرة يهودية غنية فى العاصمة النمساوية .. ويقال انه من اصل يهودى - وكثير من الذين من اصل يهودى يتطرفون فى عداء اليهود إخفاء لهذه الحقيقة !

وبسرعة عرف هتلر طريقه السياسى .. فانشغل بالسياسة . واستقر مكانه بين العمال والجنود فى حانات البيرة فى مدينة ميونخ . وفى سنة ١٩٢٣ دخل السجن بتهمة التحريض واتهم بالخيانة . وبعد سنة افرجوا عنه . وكان الكساد يحطم المانيا .. والناس فى ضيق . يتطلعون الى الذى ينقذهم من ويلات الهوان والجوع والتمزق والضلال ..

واستطاع بذكائه وبراعته وقدراته الخطابية الفذة ان يتحدى الناس وان يدخل الانتخابات وان يفوز على الاحزاب الاخرى . وفى سنة ١٩٣٣ حقق اقصى طموحاته السياسية . اصبح مستشارا لألمانيا ! .

وبسرعة سحق المعارضة . وبسرعة حشد الشباب فى معسكرات العمل وفى الجيش والمصانع ..

والغى معاهدة الذل والهوان : معاهدة فرساى .

وبسرعة زحفت قواته فضمت النمسا إلى المانيا ..

وضم منطقة السوديت التشيكية ذات الاغلبية الالمانية .. وهدد بالحرب اذا لم تجب مطالبه وكلها فورا .

وفى سنة ١٩٣٩ عقد معاهدة عدم اعتداء مع ستالين .. واتفق الاثنان على اقتسام بولندا ..

ثم هاجم بولندا واتجه الى الزحف على روسيا سنة ١٩٤٠ ..

واستولى على الدانمرك والنرويج وهولندا وبلجيكا ولوكسمبورج ! .

واستسلمت فرنسا وقاومت بريطانيا الهجوم الجوى العنيف الذى استخدم فيه الالمان الصواريخ لاول مرة فى التاريخ .. واستخدموا الغواصات والالغام المغناطيسية . وفشل الغزو الالمانى لبريطانيا التى اخترعت الرادار فكشفت الصواريخ والطائرات والغواصات ..

وفى سنة ١٩٤١ استولى على يوغوسلافيا واليونان .

والغى معاهدة عدم الاعتداء مع روسيا ..

واعلنت امريكا الحرب على هتلر سنة ١٩٤١ بعد ان سحقت اليابان الاسطول الامريكى فى ميناء بيرك هاربور ..

وفى سنة ١٩٤٢ بلغ هتلر اقصى ما يستطيع .. بل اقصى ما استطاع انسان فى التاريخ كله . فلم يحدث ان استولت دولة واحدة على كل أوروبا ومعظم شمال افريقيا ! .

اما نقطة التحول فى هذه الحرب كلها ففى سنة ١٩٤٢ عندما خسر الألمان معركة العلمين وستالنجراد . ورغم ان الهزيمة كانت مؤكدة فان هتلر لم يستسلم .. فظلت المانيا تحارب أمام ستالنجراد سنتين !

اما النهاية فجاءت فى ربيع سنة ١٩٤٥ . عندما انتحر هتلر فى ٣٠ ابريل ..

★ ★ ★

انها اعظم مذبحة بشرية فى التاريخ .. فقد كان هتلر عبقريا مجنونيا متطرفا فى عدائه لليهودى .. فقد أعلن انه سوف يقتل كل يهودى . فاقام لهم معسكرات الابادة بالنار والغاز فقتل الابرياء من الرجال والنساء والاطفال ! !

انه اكبر شرير عرفه التاريخ ، وسوف تظل شهرته مئات السنين ..

والتاريخ لا يزال يذكر السفاحين : نيرون وكاليجولا .. مع ان ضحاياهما كانت متواضعة جدا اذا ما قورنت بضحايا هتلر .. ولكن التاريخ لن ينسى هذين الرجلين ..

ومن العجيب ان ادولف هتلر هذا اجنبى من النمسا ذهب ليحكم المانيا .. وأدخلها فى ابشع الحروب التى عرفها الانسان .. وليست له خلفية سياسية ولا عنده فلوس .. ولكنه استطاع فى أقل من ١٤ سنة ان يكون رئيسا لاقوى دولة فى العالم .. ومن العجيب ايضا انه حاول ان يقضي على اليهود . ولكن بعد وفاته بثلاث سنوات فقط استطاع اليهود ان تكون لهم دولة لاول مرة من عشرين قرنا ؟ ! .

وكما توقع هتلر تماما : ان هذه الحرب سوف تحدد مصير العالم كله لالف سنة قادمة ! .

انه أعظم ارهابى فى القرن العشرين .. لقد هدم المانيا على رأسها ، وحشد حولها كل الاعداء ينتقمون من احيائها ، سدادا لديون امواتها وامواتهم ..

٢ ــ هتلر
الوجود والعدم !

كأنني ذهبت لكي امشي في جنازة الشعب الالماني كله .. جنازة عزيزة على في الفلسفة والأدب والموسيقى والعلم .. فقد جاءتني دعوة لرؤية المانيا بعد أربع سنوات من انتحار هتلر .. وتحيرت العواطف في قلبي : أرى المانيا التي احببتها ولم أكن قد رأيتها .. أرى ما تبقى من المانيا .. فالصور التي تنشرها الصحف لما أصاب المانيا مروعة .. خرائب ودمار وجياع يخرجون من تحت الأرض .. الطائرات في السماء .. والخرائب هي الارض .. والشعب الالماني ممزق منهار جائع مشرد .. يلقى عظيم الانتقام من الحلفاء والاحتقار من العالم كله .. شيء فظيع ! .

ولم أعرف كيف اتهيأ لهذه الرحلة ..

واحمد الله انني توقفت طويلا في روما قبل سفري الى المانيا .. ففي ايطاليا اشعر انني في مكان اعرفه تماما .. اعرف الوجوه واللغة .. وكنت قد رأيت ايطاليا اكثر من مرة .. فلست غريبا على أحد .. الشوارع أعرفها .. والمطاعم والمقاهي والنافورات وأعرف الفرق الموسيقية على النواصي .. هذه ايزابلا تغني : المطر .. المطر .. وهذه سيلفانا تغني : قلبي وجسمي للحب الاول .. وهذه روزيتا ترقص وتنسى ان تغني ثم تغني : العواصف والنجوم والقمر همسات حبيبي .. وهذا جوردانوا كأنه يريد ان يسمع سكان السماء يقول بقوة وعنف : ياحبيبي لا اريدك وحدك ان تسمعني .. انني مظاهرة من اجلك تهتف لك وبك .. احبك .. قولوا معي : نحبه .. نحبه ..

وتمنيت ان اسافر الى المانيا بالقطار .. فالقطار هو أروع وابدع ما اخترع الانسان .. والسفر بالقطار هو اعمق متعة بين الجبال وفي الأنفاق والوديان ..

ولكن جاء السفر بالطائرة .. ومن نافذتها لم ار الا مساحات بيضاء وسوداء من السحب .. والا البرق يضيء لافكارى طريقها الحزين الى ارض الالهة .. الى المانيا بلد بيتهوفن وجيته ونيتشه وريلكه - الموسيقار والشاعر والفيلسوف والشاعر ..

هل نمت في الطائرة واسندت رأسي إلى النافذة .. هل هذه قطرات عرق .. أو دموع على خدى .. كم تمنيت وانا طالب صغير ان يكون لى كوخ عند قمة جبل .. وان تكون كلابي على بابي .. وان تكون لى اسرة صغيرة .. وان تكون عندنا أغنام وأبقار .. وان اتسلق احدى الاشجار اغنى لنفسى وانظم شعرا .. ثم اهبط الوادى وعلى كتفي عصاى ادعو لعبادة القوة .. والعظمة والابهة والفخامة .. ادعو لعبادة الجمال والجلال .. وفى الليل ادعو الى كوخى . الى غرفة دافئة واجد الادباء والشعراء والفلاسفة ونواصل اعادة تشكيل العالم وتصنيف مخلوقات الله .. ونهتف بحياة القلب ..

شيء عجيب جدا ان اجدنى ارتدى قميصا اسود .. قميص اسود ؟ لا اذكر اننى رأيت قميصا اسود في حياتي .. ولا رأيت احدا يرتديه . فمن اين لى هذا .. ثم عدت انظر الى قميصى فوجدته ابيض .. فكيف رأيته اسود .. هل رأيت افكارى .. هل كان من الواجب ان اجعله اسود .. شيء عجيب يدور في داخلى ويدور بى .. ويديرنى شمالا ويمينا ألوانا واحزانا .. لقد مات اعظم ما في قلبى وعقلى .. وانا ذاهب الآن لكى ابكى ما تبقى من احلامى وأمالى وطموحاتى وخيالاتى .. ابكى اعز الناس .. ماتوا جميعا .. ماتوا تحت النار وتحت الشرار .. ماتوا دون ان يعلموا انهم ماتوا .. لا عودة .. ولا استطيع ان اعدل عن هذه الرحلة ..

نزلت الطائرة في مطار تمبلهوف في برلين .. سألت عن الشارع التاريخى الذى اسمه (تحت اشجار الزيزيفون) .. قالوا : مع الاسف انه في برلين الشرقية !

سألت عن دار المستشار قالوا في برلين الشرقية ..

هناك شرق وغرب .. لقد قطع الحلفاء المانيا بالسكين .. جانب منها لروسيا والباقى مقسم بالعدل بين الحلفاء .. وبرلين نصفان ايضا .. والشعب شعبان .. وان كان الهم واحدا ! .

وارتفعت الايدى ونزلت : هنا وهنا .. وهناك .. والأسماء لا تهم .. فكل الذى حولنا خراب له اسماء واشكال واحجام والوان مختلفة .. فالمانيا هي قاموس الدمار المادي والنفسي .. والهوان التاريخي . لقد تحولت المانيا كلها الى شوارع للعذاب وغرف للذل ومدن للجوع .. وقد اتفق الحلفاء على اذلال الشعب الالماني . وعلى عقابه على جريمة ارتكبها وهي : انه انهزم ..

وظهرت الكتب والافلام والمسرحيات كلها تعذب الشعب الألماني وتحتقره وتؤكد له انه وحش .. مصاص للدماء .. وأنهم يستحقون كل أنواع العذاب لانهم ساروا وراء هتلر الى خراب الدنيا ، وإلى دمار انفسهم .. فان الذى اصابهم لا يكفي ، لذلك يجب القضاء على ما تبقى من الالمان حتى لا يكون المان .. وحتى لا يظهر منهم هتلر اخر .. او اى انسان يعرف كيف ينطق هذه الكلمة !

واقيمت محاكمة نورنبرج .. واعدم قادة الوحشية النازية واحدا واحدا .. ثم ان البحث ما يزال جاريا لاصطياد الهاربين من عدالة التاريخ الذين كانوا سببا فى موت خمسين مليونا من الاوروبيين .. واحراق ملايين اليهود ، لا لشيء إلا لانهم يهود .. فاحرقوا العالم والفيلسوف والفنان والاديب والطفل والمرأة ! !

ذهبت الى برلين الشرقية .. رأيت شارع الزيزفون بلا شجرة واحدة .. رأيت دار المستشار الذى تقوض كله بعضه على بعض فوق جثة هتلر الذى انتحر وإلى جواره زوجته ايفا براون .. لم يبق من الابهة والعظمة الا كتل من الاحجار لم يعد لها اسم ولا رسم .. حتى النسور على الجدران وفى الميادين قد تحطمت رءوسها اولا .. وتطاير ريشها فهي ديوك رومية .. او هي دجاج بلدى افزعته القنابل فانتحر فوق الصخور ..

والناس فى الشوارع كالشوارع نفسها .. الوجوه بلا معالم .. الملابس ممزقة .. التعب .. الجوع .. ولم أكن أقصد أن اتباهى بأننى أملك علبة سجائر .. وانما اخرجتها من جيبى فوجدت عامل الاسانسير يكاد يخطفها من يدى .. قلت له : سيجارة ..

وخطف السيجارة وتركنى ليبيعها .. ولا تصورت اننى املك ثروة ضخمة عندما قدمت للفتاة قطعة من الشيكولاته .. انها بسرعة وضعتها فى حقيبتها .. لتبيعها بعد ذلك .. وعندما ذهبت الى مطعم كبير .. بقايا مطعم .. لاحظت ان الالمان يكومون ما تبقى من خبز ولحم وفاكهة ويحملونها معهم الى البيت ..

وعندما دعوت الفتاة التى كانت ترافقنى فى شوارع المدينة الى الغداء .. سألتنى بأدب وخجل وحرج وعذاب : هل من الممكن ان ارجوك ، وأكون لك شاكرة جدا ، فتدعو والدتى ..

فقلت : طبعا والدتك .. واختك .. واى أحد من اسرتك .. لا تنسى اننى مدعو من حكومتكم ..

وتركتنى لتعود بعد دقيقة ومعها امها واختها .. فقد كانتا تقفان امام باب المطعم . انها طالبة فى الجامعة . وهى لم تدخل الجامعة الا بعد ان شاركت فى بناء الجامعة ورصف الشوارع المجاورة لها ـ كل طالب يجب ان يحمل الطوب على كتفيه عددا من الساعات . هذا شرط القبول فى الجامعة !

وهذه مدينة (ميونخ) .. تحطم الكثير منها .. وبقيت الكاتدرائية الا قليلا ..

وهذه مدينة (اسن) كبرى مدن حوض نهر الرون عاصمة الحديد والصلب والفحم فى المانيا .. وقاعدة الصناعات الكبرى من الصلب والمدافع .. ماذا اصاب المدينة .. اختفت المدينة .. اقتسمتها طائرات الحلفاء .. فحولتها إلى رماد .. اما المصانع الكبرى فقد نقلها الانجليز والفرنسيون إلى بلادهم .. لقد قطعوا أصابع الألمان حتى لا ينهضوا مرة اخرى ..

* * *

ثم جاءت دعوة بان نلتقى باخر ابناء اسرة « كروب » صاحب مصانع الحديد والصلب وأحد ركائز الحرب الألمانية ... قابلته فى قرية اسمها « فيلا هيجل » انه السيد الفريد كروب .. واحد من نبلاء المانيا النازية .. ولكن لا دخل له بما حدث .. انه صاحب المصانع الكبرى .. ثم ان الامر والنهى لسيد المانيا : هتلر ..

وهذه مدينة اشتتجارت .. تستطيع ان ترى اولها وأخرها من اى موقع .. فالأرض مسطحة تماما .. والأطفال يخرجون من الانقاض .. لأنهم يسكنون تحت الارض ..

وهذه همبورج وهانوفر .. وهذه هى المدينة الجميلة هيد لبرج التى لم يصبها شىء . فقد كانت مركزا للقيادة الامريكية .. ان هيد لبرج هى التى تتردد فى الأغنية الشهيرة : راح منى قلبى فى هيد لبرج .. فى هيد لبرج اضعت قلبى .. قلبى ! .

وهذه فرنكفورت العاصمة المالية لكل المانيا .. وفى هذه المدينة انتعشت اسرة

روتشيلد اغنى اغنياء اليهود .. وغيرها من المدن الصغيرة .. كل هذا راح ضاع ..

وكان اصرارى على ان ارى مدينة تبيجن.. هذه المدينة الجامعية التى ليست بها مواصلات من اى نوع ، فالناس يمشون على اقدامهم حتى لا يفسدوا الهدوء الجميل على الأدباء والشعراء والفلاسفة .. ففيها عاش الفيلسوف الالمانى هيجل وعاش أمير الشعراء الالمان هيلدرلين وزعيم الفلسفة الوجودية هيدجر .

ثم عدت إليها مرة اخرى .. وكنا عشرة من رجال الأمن واساتذة الجامعات : الدكاترة مراد كامل وعبد العزيز حجازى وعبد المنعم البنا وحسن عثمان وأنا !

وفى يتيجن توجد حديقة على نهر اسمها « حديقة التأوهات » .. ووجدتنى اجلس وحدى فى هذه الحديقة .. انظر حولى لكى أعرف من أين جاءت هذه التسمية .. كل شىء جميل .. الاشجار راسخة واوراقها تتحرك قليلا كأنها تهمس .. او تهمز أو تلمز أو انها تستدرج الفراشات .. أو أن حوارا بينها وبين موجات النهر .. او النهر والحديقة تتجاوب فى احدى أغنيات الشاعر هيلدرلين . ومن حين إلى حين تجىء طالبة وطالب يجلسان .. كأنهما شجرتان .. وكأن جسميهما أوراق وموجات .. فكل شىء يهمس .. ويلمس .. ويتأوه .. ولكنى كنت أكثر الناس حزنا .. وتمنيت فى أعماقى لو ان كل شجرة كانت مشنقة يتدلى منها جسم لهتلر الذى ارتفع بالمانيا إلى السماء وتركها تهوى مليون قطعة .. أما هو فقد هرب بجسمه كاملا وانتحر .. بعد ان تأكد ان ألمانيا ايضا قد انهارت .. فاحس أن رسالته الشيطانية قد اكتملت .. وان الخراب عالمى والدمار شامل والهواء طين ووحل ودخان !

سألنى أحد الأدباء الالمان : هل تريد ان ترى المانيا ؟

قلت : لا أفهم !

قال : هناك المانيا اخرى أقوى وأعمق وأوقع وأوجع ؟ !

فاخذنى إلى الحانة الشهيرة فى ميونخ .. تلك الحانة التى كان يلتقى فيها هتلر ويخطب ويدعو إلى الانتقام من الذين اهدروا الكرامة والشرف الألمانى فى الحرب العالمية الاولى .. فى تلك الحانه يشرب الالمان البيرة .. ويصرخون ويرقصون ويكون لهم صيحات وعواء كأنهم ذئاب او كلاب جريحة .. ولكنهم لا يذهبون الى ابعد من اسكات هذه الاصوات بالبيرة .. والوقوف على المناضد

والرقص والهذيان فى جنون .. كأنها حفلات الزار .. وبعدها يعودون الى بيوتهم .. جثثا خامدة .. ليصحوا فى اليوم التالى لينهالوا عليها بالسياط والبيرة .. كل يوم وكل ليلة .. فالالمان يعذبون انفسهم ، كأن الذى يفعله الحلفاء ليس كافيا ..

ذهبت . وجلست . وجاءت الفتيات تحملن اقداح البيرة الضخمة . ويلقين بها على المناضد وتمتد ايدى الألمان ويشربون ويصخبون . ويدفع المناضد بالايدى والارجل . وتجيء الموسيقى فيركبهم عفريت وينهضون يضحكون ووجوههم حزينة وعيونهم حمراء دامعة ..

وخرجت . وطلبت من صديقى تفسيرا فقال لى : ان هناك علامات أسوأ من ذلك .. فالشبان يمضغون اللبان كالامريكان .. ويرتدون البنطلونات الضيقة .. ثم ان الابن يقف أمام والده ويضع يديه فى جيوبه .. واذا جلس فانه يمد رجليه فى وجه ابيه وامه .. تصور ! . هل تعلم ان المصانع الألمانية اعادت فتح مدارس التدريب وانهم يضربون الشبان بالعصا .. فالمانيا سوف تنهض ما فى ذلك شك .. الحلفاء اخذوا المصانع .. اقتلعوها .. ولكن لم يقتلعوا العقول الالمانية التى ابدعت وسوف تبدع .. وسوف ترى .. بعد سنوات عشر .. بعد عشرين ..

وكنت اذهب الى المانيا كل عام .. كأننى أريد ان اطمئن على مستقبل المانيا .. على نهضتها .. على عظمتها .. على مهبط العبقريات الادبية والفلسفية والعلمية .. وكنت اتوهم ان العباقرة يمكن ان يظهروا فى المانيا فى أى وقت .. وبناء على طلبها ..

ذهبت متسللا الى بنسيون اعتدت ان انزل به .. تسللت لاننى اخشى ان يصدمنى شيء غير الذى توقعت .. سألت صاحبة البنسيون السيدة هيلجا : قولى لى من فضلك .. وكيف الحال الآن ؟

قالت والصحة والعافية تضج فى وجهها : وأنت كيف ترانا الآن ؟ اننا لم نرك من سنتين .. ابنى الأكبر ذهب الى الشمال وابنتى الصغرى تزوجت وسافرت الى امريكا .. وانا أعيش هنا مع ابنى الاصغر وبنتى الكبرى .. ولنا مطعم كبير فى الناحية الاخرى من المدينة .. وفى نهاية العام سوف نسافر الى ايطاليا أو اسبانيا لقضاء اجازة قصيرة .. الخ .

يعملون واتسعت تجارتهم .. وعندهم فائض من المال لكى يتفسحوا فى ايطاليا واسبانيا .. لقد وقفت المانيا بسرعة .. وهى لم تكتف بالوقوف .. وانما

تبنى ويعلو البناء وتنتج وتبدع وتتفوق وتنافس الدول التى احتلتها ثم انها تفوقت عليها جميعا .. هذه اذن المانيا كانت وسوف تبقى ! .

وأما الأجيال الجديدة فهي ثائرة على الاجيال الاسبق التى ساعدت على خراب المانيا .. وانهم لذلك كارهون للحرب وكل ادوات الحرب .. لا يريدون الحرب ولا الدمار .. وكارهون لكل اسلحة قوات الاحتلال وصواريخهم النووية . يريدون ان يعيشوا .. والا يعودوا الى الوراء .. لا نازية ولا هتلر .. ولا اضطهاد لاحد بسبب لونه او عنصره او دينه ..

وفى نفس الوقت يجب أن يكف الامريكان عن تعذيب الالمان وتعميق شعورهم بالذنب .. انها غلطة اجيال عاشت وماتت . فما ذنب هذه الاجيال الضحية .. التى لا كان لها رأى ولا موقف ولا حملت سلاحا .. ثم ان احدا لا يلوم أحدا لأنه حارب أو دافع عن بلاده .. ولكن الغلطة ليست فى الحرب وإنما فى إبادة الابرياء بلا حرب .. هذه هى الجريمة النازية البشعة .. اما الحرب فكل الدنيا تحارب وتنتصر وتنهزم .. كما ان الحلفاء يحاربون ، فالألمان حاربوا ايضا واليابانيون والايطاليون والاسبان .. حاربوا وانهزموا .. ولكن يجب استئصال جذور الشر والوحشية .. ولذلك حرروا المانيا واليابان من جيوشهما حتى لا يفاجأ العالم كله بهتلر آخر فى أى ثوب وأى لون وأى حجم !

وظهرت فى المانيا احزاب صغيرة نازية .. بل وفى امريكا وفى بريطانيا .. انها تجمعات من أجل الانتقام ورد الاعتبار .. ولكنها صغيرة . فلم يعد احد يريد الحرب أو يريد عداء العالم كله .. ويكفى اوروبا ما أصابها بسبب هتلر وموسولينى وستالين وفرانكو والميكادو اليابانى .

ولم تكن هذه الاحزاب الا نوعا من الاحتجاج على البهدلة على الشاشة وفى الكتب للشعب الألمانى واليابانى .. ولكن ألمانيا واليابان تقدمتا فى كل مجالات الصناعة . فليس فيهما جيوش تمتص أموالهما وطاقتهما .. ولذلك احست امريكا انها لابد ان تجعل المانيا واليابان تتحملان أعباء الدفاع عن النفس .. ولكن بحساب حتى لا تنهض فيها الشياطين مرة اخرى فتهدم الحضارة الانسانية ! ..

* * *

ومنذ أيام احتفلت مدينة براوناو النمساوية بالذكرى المئوية الاولى لابنها الجبار : هتلر .. وطوقتها قوات الامن .. وظهر عدد من الشبان يحملون اعلام

الصليب المعقوف ويغنون : المانيا فوق الجميع .. فوق الجميع فى العالم .. الوحدة والعدالة والحرية لالمانيا كلها .. نساء المانيا ونبيذ المانيا واغانى المانيا .. المانيا فوق الجميع ..

وكذلك فى بعض المدن الالمانية ..

ففى ١٦ ابريل ١٨٨٩ ولد هتلر وفى ٢٠ ابريل ولد شارلى شابلن وفى ٢٦ ابريل ولد فيلسوف « الوضعية المنطقية » فتجنشتين ..

* * *

ووجدت متعتى الكبرى فى كل الخمسينات ومن بعدها ان اذهب الى سالزبورج بالنمسا أزور بيت الموسيقار العبقرى موتسارت .. واتوقف طويلا امام البيانو الصغير الذى كان يجلس اليه .. والسرير الصغير الذى تقسمه مخدة الى نصفين .. وإلى الطشت والابريق والحلل النحاسية التى كانت يستخدمها عبقرى الموسيقى فى كل العصور .. ثم اذهب الى دار الاوبرا التى كانت قد انهدمت ثم استأنفت مجدها العظيم فى اوائل الخمسينات ..

ثم اذهب الى مدينة فرانكفورت على نهر الراين فى المانيا الغربية ـ هناك مدينة فرانكفورت على نهر الاودر ـ هنا كان يعيش اعظم الشعراء جيته وصديقه الشاعر شيلر .. وهنا كان يعيش جوتنبرج مخترع الطباعة .. فلا توجد مدينة المانية ليس بها شاعر أو فيلسوف أو موسيقار ..

وكأننى استرحت إلى حاضر ومستقبل المانيا فلم أعد اتنقل بين مدنها .. وانما اكتفيت بان اشارك فى المعرض الدولى للكتاب فى مدينة فرانكفورت .. واشعر ان هذه هى سوق عكاظ الحديثة .. فكل عظمة المانيا تنتقل جميلة منظمة انيقة عند اطراف اصابعى .. وكلها تدعو للحياة والحرية .. اى انها تحصن نفسها ضد الدمار والطغيان .. ضد اى هتلر من أى نوع .. اذن لقد استردت المانيا عقلها ، واوروبا كلها عظمتها وسلامتها وشفيت من وخز الضمير .

★ ★ ★
★ ★ ★

واذا كان أحد يبكى ، فالفلاسفة .. وبكاء الفلاسفة له مذاق عميق .. فهم يبكون على الذى أصاب الدنيا كلها : طعمها على لسان الشاعر والفنان والموسيقار .. وانه لا أمل فى ان تخطو إلى المسار الصحيح دون ان تعرف ماذا حدث ؟ ماذا جرى لنا ؟ حتى لا يقع مرة اخرى ..

ولم يكن هذا شعور الالمان وحدهم .. بل كل أبناء الحضارة الغربية فى فرنسا وفى بريطانيا وفى الدانمرك وفى ايطاليا ايضا .. ولذلك كانت الفلسفة والادب وعلم النفس قد اختارت اللون الاسود ومشتقات المرارة والحزن رمزاً للوحة اسمها : الوجود والعدم !

٤ ـ هتلر المنوم المغناطيسى البهلوان !

لاأنسى أول غرفة نزلت فيها بمدينة ميونخ بعد الحرب مباشرة . البيت هدمته القنابل نصفه بالطول فالشقة ثلاث غرف ودورة مياه . وغرفة النوم بها سرير كبير يملأ معظم الغرفة وبها مقاعد ودولاب للأطباق والأكواب .

وصورة لصاحب البيت على الحائط .. ودولاب آخر للملابس وفى ركن من الغرفة ابريق وطشت . ولم أكد أدخل غرفتى حتى جاءت صاحبة الشقة . وفى منتهى الأدب والرقة والوقار قالت لى : إنها هى التى سوف تملأ الابريق وهى التى سوف تساعدنى على غسل يدى وساقى ووجهى فى الصباح بالماء .. وأنظر إلى وجه السيدة فأرى فيه كل الفلاسفة والموسيقيين الألمان . وأرى فى قوامها الطويل كل جنرالات الحرب وفى عينيها وشفتيها وصوتها وأناقتها البسيطة كل مفردات الجمال الجرمانى ..

وكل شىء فى البيت هو بقايا بيت .. حتى السيدة هى بقايا أسرة .. فقد مات زوجها وابنها وزوج ابنتها فى الحرب .. أما ابنتها الثانية فقد هاجرت إلى أمريكا .. وأما ابنها فهو يعيش فى مدينة أخرى ويزورها من حين إلى حين .. أما هى فكنت أقول لها : فقط دعينى أجلس على الأرض أمامك وقولى لى ماذا حدث لبلادك ..

وكانت تقول وتقول كلاما يوجع القلب ويحطم الرأس .. ولكن قلبها مايزال قويا ورأسها مايزال شامخا . وهى على يقين ـ وكل الألمان ـ من أنها وأنهم سوف يعيدون بناء كل الذى انهدم ، وبصورة أجمل وأروع . فقد بهروا الدنيا فى الحرب ، وسوف يبهرونها فى السلام ـ صدقت !

وكنت أشعر بحرج فظيع فى كل مرة تدق بابى وتقول : حان وقت النظافة .. وتصب الماء على يدى وساقى ووجهى ..

أخيرا اهتديت إلى الحل ففى محطة سكك حديد ميونخ كل مايتمناه الانسان .. إنها محطة جميلة ضخمة فخمة .. ففيها المطاعم والمخابز وأهم من ذلك دورات المياه والحمامات الأنيقة النظيفة .. فمن الممكن أن يعيش الانسان

فى هذه المحطة . وعشت فيها .. ودعوت السيدة الزه صاحبة البيت إلى افطار وغداء وعشاء هناك ..

ويوم ذهبنا لسماع الموسيقى فى أحد المطاعم المحترمة .. لم تكن عندى كرافتة .. ولكنها بسرعة سحبت حزاما أسود من فستانها والتف حول عنقى وكان كرافتة .. ووضعت يدى فى يدها فى ذراعها حولها ودخلنا .

أما وولدا - ليتها كانت أمى .. وكل شىء عندها له قصة وله حكاية .. فكل شىء تاريخ .. الشارع والبيوت والمطاعم والكنائس والأشجار وماتبقى من الخيول .. وهذا ابن فلان وهذه بنت فلانة .. ولو كان هتلر عاش طويلا ، لكان كذا ، ولو مات قبل ذلك ، لكان كذا .. ولكن دماء كثيرة اريقت وبيوتا أكثر أنهدمت .. وملايين الشبان من حقهم أن يعيشوا ماتوا غرباء فى جليد روسيا .. كابوس استولى على ألمانيا .. ذهب أكثره ..

والباقى مايزال على شكل دموع وآهات وأحلام يقظة وآمال وخوف وقلق وسوء ظن بكل الناس وعزلة مروعة ..

فى يوم ضبطتها تدخل غرفتى وتنظر إلى الصورة التى على الحائط وتهمس .. كأنها تصلى لزوجها أو تدعو له .. أو تلومه .. لاأعرف .. ولكنها لاتكف عن ذلك .. إنها لاتجد أحدا تحدثه الا ماضيها المعلق على الجدران أو المنهار فى الشوارع !

ولم الاحظ أن أصبعين من يدها اليسرى ليستا هناك .. ولم أسأل . وقالت انها شظية .. ولم أر من الاحياء فى ميونخ أحدا ليس مصابا فى يده أو فى رجله أو فى رأسه أو فى قلبه .. أنهم البقايا الحزينة على الذى راح منها .. والسيدة إلزه خائفة على الذى تبقى .. قلقة على الذى سوف يكون .. أو يجب أن يكون ! .

قرأت هذه العبارة للكاتب الألمانى المعاصر ادورنو : عندما تكون غريبا فى بلد فليس أمامك إلا أن تطالع وجوه الناس فقط وتقارن بين الملامح دون أن يكون لديك هدف .. أو بين العيون أو بين الانوف أو بين الاحذية .. أو كيف يمضغون . دون أن يكون من أحلامك أن تضع نظرية للسلوك الانسانى .. فقط لاحظ .. راقب .. أضحك .. بدد نفسك بين الوجوه .. أحشر نفسك فى الزحام .. وفى هذا الزحام تضييع مشاعرك وفى ذلك راحة لك .. انها المرحلة الأولى من مراحل « الاستيطان » بين الناس - وبعد ذلك تجىء الألفة . وبعد ذلك الصداقة والمودة لقد جربتها كثيرا واسترحت إلى ذلك .

فعلت ذلك . ولم أسترح . فأنا أريد أن أفهم ..
ففي مواجهة هذه الكوارث العظمى للدولة هناك نوعان من التعبير ..
واحد يصف لك ماحدث ..
وواحد يتجاوز ماحدث ويعبر عن الذى يجب أن يحدث ..
واحد يتجه إلى الماضى ..
وواحد يدير ظهره للماضى .. كفى . ويتجه إلى المستقبل ..
واحد استغرقه الذنب والندم .

وواحد استولى عليه التسامح والرحمة والأمل فى الأفضل وكفى بكاء على الذى مضى .. ويدعو إلى العمل والعرق للخلاص من الذى راح ولن يعود ، وانشغالا بتعويض ذلك فيما سوف يجىء ..

وقد ينجح الأدباء والفنانون والساسة فى تصوير الواقع .. وقد يفشلون بسبب التكرار والتشابه والكلام عن المعنى الواحد والحزن الواحد . ولكن استعداد الناس لسماع ماحدث بصورة مختلفة ، معناه رغبة الناس فى البكاء والحزن وتعميق الشعور بالألم وتعذيب النفس أيضا . وهذا هو المزاج العام فى أعقاب الحروب والكوارث الطبيعية والنكبات الانسانية الكبرى . فبدلا من أن يخفف الانسان عن نفسه ، فإنه يعاقبها كأنه مسئول عن الذى حدث .. أو كأنه ، بسبب غروره ، يعز عليه الا يكون مسئولا عن كل شىء مهما كان مصدره الأرض أو السماء .

أو بعبارة أخرى هناك نوعان من الأدب والفن .. أو من الثقافة : ثقافة الأزمة .. وأزمة الثقافة ..

ثقافة الأزمة : هى أن يعبر الأديب والشاعر والفنان والموسيقار عن أوجاع الانسان . وأن يصورها ويعمقها . فليس أمام الناس بعد الحرب العالمية الثانية إلا نفس صور الدماء فى الحرب العالمية الأولى ..

فكأن الدمار مستمر .. وكل مافعله الانسان أنه أعتبر فترة السلام هدنة .. فترة لتطوير اسلحة الموت تمهيدا لدمار أعنف .. فالانسان بعقله وعلمه قد قضى على العقل وعلى العلم ..فالحرب هى القانون .. هى القاعدة ، ووقف اطلاق النار والهدنة والسلام هى الاستثناء فى هذه القاعدة .. والانسانية قد أمضت معظم تاريخها فى الحروب والاستراحة منها والاستعداد لحروب جديدة .. فثقافة الأزمة هى أدب الموت وفن القلق وموسيقى العزلة .. أما الألوان فهى الأسود

والرمادى والأزرق .. لون الفحم ولون الدخان ولون النوافذ مانعة الضوء .. ثم انه اليأس والمرارة .. يائس الانسان الحر العاقل من الايمان بأية نظرية .. فالنظريات والفلسفات الشاملة هى التى افرزت النازية والفاشية والشيوعية .. فكل الدول الشمولية قد وضعت على رأسها الطغاة والسفاحين : موسولينى وهتلر وستالين .. ولذلك فالانسان لن يعود إليها أبدا . يجب أن يؤكد حريته وفرديته واستقلاله ونفوره من القوى الغاشمة التى « تسلط عليه وتحوله إلى ذئب يحمل مدفعا ويمتص دماء الآخرين .

فما الذى يملأ المدن ؟

المقابر ..

وما الذى يستولى على الناس ؟

الموت !

وما الذى ينقذ الانسان من الانسان ؟

الضمير !

وما الذى يعرفه الانسان بعد حرب وحرب وقبل حرب ؟

لايعرف شيئا مؤكدا . وهو لايريد أن يستسلم للعرافين والنصابين والافاقين من رجال السياسة ورجال الدين . فقد تعب ولا يزال ..

وما هذا الذى يربط بين الناس ؟

إنه الكلام .. الحوار . ولكن مامدى صدق الكلمات ؟ كلها فارغة وكاذبة . وما جدوى الحوار ؟ أنه يزيد الانسان عزلة . فكل شيء لامعنى له .. ولا ضرورة ولا جدوى . ولا أمل !

هذه هى الثقافة التى تعبر عن أزمة الانسان .. التى أختارت اللون الأسود لأنه لون الفحم . واللون الرمادى لأنه لون الدخان .. واختارت الظلام لأنه ضياء القبر ..

وأختارت العزلة مثل شواهد القبور ..

أما أزمة الثقافة : فهى عندما يشعر الانسان ان الذى يقرؤه ليس كافيا . وأنه تكرار ممل . وأن الأدباء يسرقون الشعراء . والشعراء ينهبون الرسامين ، وان الساسة يغتصبون الجميع .. وأنهم جميعا مفلسون . لايقدمون شيئا له قيمة .. لاطعاما ولا شرابا ولا أملا .. وأنهم فقط يندسون وسط الناس ويستعيرون دموعهم ويبكون .. وأنهم لايرون جنازة إلا تقدموها وكأنهم من أهل

الفقيد .. ولا يسمعون طبول الفرح .. حتى يسبقوا إلى تلقى التهنئة بالزفاف السعيد ، كأنهم من أهل العروسين .. وإذا ذهبوا إلى الكنائس سارعوا فحفروا لأنفسهم عبارة أو عبارتين على لسان القسيس حتى يضمنوا لهم مكانا فى الجنة .. ما الذى قالوا ؟ لاشىء . ما الذى وعدوا به ؟ لاشىء . ما الذى تطوعوا به لانقاذنا ؟ لاشىء ..

ويشعر المواطن فى أعقاب الحروب والنكسات أنه وحده .. وأن أصحاب الرسالات قد تخلوا عنه .. تركوه يجتر العذاب والهوان ..

حدث ذلك فى ألمانيا بعد الحرب العالمية الثانية .. وفى فرنسا وأيطاليا واسبانيا وروسيا .

وحدث فى بريطانيا بعد العدوان الثلاثى على مصر .. وفى مصر بعد الهزيمة العسكرية سنة ١٩٦٧ ..

وفى أمريكا بعد ضرب اليابان للأسطول الأمريكى فى بيرل هاربور .. وبعد هزيمتها فى فيتنام ..

ولكن الدولة القوية هى القادرة على أن تجدد نفسها .. وأن تصلح عيوب السفينة وهى ماتزال فى المحيط وأن تمد الطائرات بالوقود وهى فى الجو .. وكما يحدث فى سفن الفضاء فإن الرواد يخرجون من سفنهم ويصلحون مابها من خلل ، وهم يدورون حول الأرض ..

ولذلك فإن ألمانيا بسرعة وقفت .. نهضت .. تقدمت كل الدول التى احتلتها وهدمتها وسرقت مصانعها ومسحت بكرامتها الأرض أمريكا وروسيا وبريطانيا وفرنسا ..

وكذلك اليابان التى ماتزال محتلة فقد تقدمت على أمريكا وعلى كل الدول الأوروبية .. وأخر نكتة نشرتها الصحف الأمريكية عن الأثر الفظيع الذى تركته الصناعات اليابانية على السوق الأمريكية تقول : أن الرئيس بوش نام ثلاث سنوات . وعندما صحا سأل نائبه : ما الأخبار ؟ فقال له النائب : كل شىء على مايرام .. لابطالة . ولا تضخم .

فسأله بوش : وكم سعر الرغيف الأن . فأجاب النائب : فقط ثلاثون ينا يابانيا !

وعندما أطلق الأمريكان والروس سفن الفضاء ، كان العلماء الألمان هم الذين أقاموا صناعة الصواريخ وسفن الفضاء فى الدولتين . ولذلك يقال : أن قمرا

روسيا التقى بقمر أمريكى .

وتكلم القمر الأمريكى بالانجليزية فلم يفهم الروسى وتكلم الروسى بالروسية فلم يفهم الأمريكى .. وأخيرا نطق الاثنان فى وقت واحد :

فلنتكلم الألمانية !!

وبعد عشرين عاما عدت إلى ميونخ أبحث عن السيدة إلزه .. حاولت كثيرا جدا .. وساعدنى رئيس تحرير احدى الصحف . فقد حملت لها معى نماذج لعدد من التماثيل الفرعونية .. وجلبابا ريفيا ونموذجا لشادوف وعددا من الجعارين .. وأخيرا وجدتها فى أحدى ضواحى ميونخ .. أنها تسكن فى بقايا بيت جميل .. وجدتها جالسة فى الشمس .. ما الذى فعله الزمن ؟ فى وجهها وفى ركبتيها .. ولم أكد اقترب منها حتى رفعت المنظار عن انفها ونادتنى وهى تقول : لسبب غامض كنت أتوقع مجيئك .

وسحبت عصاها وطلبت منى أن أساعدها على الوقوف .. على الدخول فى شقتها بالدور الأرضى .. وقد امتلأ الحائط بصور الأسرة .. الذين ماتوا والذين عاشوا .. والاحفاد .. ومناظر من أمريكا ومن الأرجنتين وصورة لى – ولم اكن أعرف ذلك ..

وتسللت السيدة إلزه تصنع لى القهوة .. ومددت يدى إلى الكتب .. أكثر الأسماء لاأعرفها . أنهم أدباء وشعراء وألمان جدد .. وبعض الفلاسفة القدامى ..

وبسرعة قالت لى لاأحب هؤلاء انهم مثل أناس يكتبون أبياتا من الشعر على روشتات الأطباء ..

أى أنهم يضعون كلمات موسيقية حول تشخيص الطبيب ولكنهم لايفعلون أكثر من ذلك .. وقالت : أنهم مثل فرقة موسيقية بارعة الأداء ولكن كل ألحانها جنائزية .. لقد مللنا الحزن .. نريد شيئا بهيجا فلماذا يحرص هؤلاء الأدباء على أن يتجاهلوا الشباب ؟ الشيوخ أمثالى لايقرأون والشباب لايحبون ذلك .. فلمن يكتبون ؟ !

إنهم يكتبون للاثنين ، للشيوخ والشباب ..

فقد لاحظ أدباء مابعد الحرب أن الشعب الألمانى يحاول أن ينسى بسرعة .. يحاول أن يقف .. أن يؤكد لنفسه أنه قادر على أن يكون خيرا ، بعد أن كان شريرا .. أن يبنى نفسه كما هدم نفسه .. ولكن فى نفس الوقت لايستطيع أن

يخلع نفسه من ماضيه .. فالماضي هناك .. وكما كان الفليسوف الألماني العظيم « كنت » يجب أن ينظر إلى العمارات المهدمة لكي يبنى صرحا فلسفيا ، فالشعب الألماني هو حفيد هذا الفليسوف العظيم فلا شيء يحفزه إلى البناء الا هذه البيوت المهدمة .. ولا شيء يدعوه إلى الحياة الا هذا الموت لعشرات الملايين للشباب الألمان ولاربعين مليونا اخرين فى كل أوروبا وشمال افريقيا .

ثم أن الحلفاء يريدون أن ينهض الشعب الألماني ليحمل عنهم عبء أطعامه وانعاشه حتى لاتكون بطالة وحتى لاتؤدى البطالة الى انتشار الشيوعية وسيطرة الروس على ألمانيا الغربية كما استولوا على المانيا الشرقية .. وكل أوروبا الشرقية .. ولم تسمح دول الحلفاء للألمان أن يكون لهم جيش .. وبذلك وفروا على الألمان انفاق ملايين الملايين على صناعة السلاح وتطوير السلاح .. فاتجه الألمان الى انشاء قوات بوليسية وأما بقية الملايين من الشباب والرجال فإلى زراعة الأرض والمصانع ..

فنهضت ألمانيا بسرعة فائقة .. ولم يعد « تضايقهم كثيرا تلك الأفلام الأمريكية التي تصورهم وحوشا مصاصين للدماء .. أو قطيعا من الأغنام تمشى وراء جزارها العبقرى هتلر .. فقد أعتادوا على هذه النكتة السخيفة وأصبحوا يملونها . وانقلبوا هم أيضا يسخرون من الأمريكان والانجليز والفرنسيين والروس ..

ولكن الفلاسفة الألمان ـ هيدجر زعيم الوجودية ـ مازال يرى أن الحزن واليأس فى أعماق كل ألماني .. فأثار الحرب العالمية الأولى لم تختف فى ويلات الحرب العالمية الثانية . بل أنها اثمرت وأورقت وأزهرت وأظلت اليائسين من أن يكون فى الدنيا سلام .. أن الحزن هناك عميق واليأس هناك .. والمرارة .. والضيق من الهوان الذى لحق بالألمـان .. والفلاسفة يخافون أن تعود إلى المانيا رغبتها فى الانتقام فتكون حربا ثالثة .. من نوع جديد .. وحتى إذا لم تشعل هذه الحرب فإن الرغبة فيها قوية .. والاستعداد لها عظيم .. ولذلك ظهرت فى المانيا أحزاب سياسية متطرفة .. تشيد بالعظمة الألمانية ورغم كل محاولات تمزيق المانيا وهدمها معنويا فإن الألمان استطاعوا أن يقيموا لأمجادهم التماثيل فى الادب والفن والموسيقى وأن تظهر دراسات تاريخية تبرىء الألمان من جرائم هتلر .. بل تبرىء هتلر نفسه ..

ويدخل الألمان عالم الأسلحة بحذر منهم ، وضوابط شديدة من الأمريكان ..

ولكنهم صنعوا أسلحة جديدة وباعوها وطوروها .. وفعل اليابانيون أيضا ..

واستطاع اليهود أن يعاقبوا الألمان عقابا صارما .. فجعلوهم يدفعون التعويضات الفادحة عن كل قتيل .. ويساهمون بالمال وبالقوة في بناء دولة اسرائيل .. ولايزال عدد كبير من اليهود يفزع من مجرد ذكر كلمة المانيا ويفزع أكثر اذا ذكرت كلمة : هتلر.. وكثير من يهود العالم لايطيق ولا يتخيل أن يسافر إلى المانيا لأى سبب .. فهتلر قد أحرق منهم الملايين .. وإذا كان هتلر قد أحرق ثلث الشعب اليهودى ، فإنه قد أهلك ثلث الشعب الألمانى وربع الشعوب الأوروبية .. فى حرب واحدة ..

وإذا كان هتلر وفيلسوف النازية الفرد روزنبرج قد وضعا الشعب الألمانى فوق كل الشعوب ، فإن الفلاسفة الألمان الآخرين قد وضعوا الشعب الألمانى دون كل الشعوب : حزنا ويأسا وعزلة ومرارة وخوفا من أنفسهم ..

يقول استاذنا الفيلسوف الوجودى مارتن هيدجر وقد يتحدث عن هتلر الذى هدد بطرده من الجامعة : يومها قررت أن انجو بالقليل الذى معى إلى أى بلد آخر .. ولم أكن أملك فى ذلك الوقت إلا حريتى .. وإلا رغبة صادقة فى أن أقول للألمان ما الذى سوف يلقونه على يدى هذا المنوم المغناطيسى البهلوان ..

٥ - من هتلر - إلى الطوفان إلى الوجودية !

(١)

فى زحام الشوارع الناس يدوسون الناس ولا يعتذرون .. لأن الزحام يفرض العنف وقلة الذوق . والناس فى الزحام لايمشون فى خطوط مستقيمة وانما هم مثل النمل يتلامسون ويتخبطون .. واذا نظرت إليهم من النافذة وجدت حشدا متجها إلى كل ناحية ولكن كل واحد له هدف ، والهدف فى دماغه هو .. وتجد هذا يمشى بسرعة ويتوقف .. وهذا يتوقف وفجأة ينطلق كأنه اهتدى إلى هدف أو كأن ذاكرته قد عادت إليه فجأة ..

والسيارات هى الأخرى يهدد بعضها البعض .. فكل واحدة تريد أن تسبق الأخرى .. وتهددها بالاصطدام ان لم تفسح لها الطريق .. والسيارات تهدد المشاة .. والمشاة .. يعترضون السيارات ويهددونها أيضا .. ان هى داست واحدا منهم فهى مصيبة له وتعطيل لكل السيارات .. ولا يهم المشاة ماذا يحدث لهم لو أن سيارة داست واحدا منهم المهم أنه يريد أن يقطع الشارع وأن يمضى إلى هدفه .. أو بحثا عن هدف أو يأسا من أن يكون له هدف فى الطريق أو فى الحياة .. والسير فى الشوارع وعلى الأرصفة ، كالسير فى الحياة : حظوظ .. فتجد أشارة المرور قد انقفلت لواحد كان بليدا متلكئا .. وسيارة كلما اقتربت من اشارة مرور أصبحت خضراء .. وسيارة كلما اقتربت من اشارة مرور أصبحت حمراء .. وسيارة قديمة لاتصطدم بأية سيارة أو بأى أحد .. وسيارة جديدة اصطدمت عدة مرات فى أول خروج لها .. حظوظ ..

والناس يمشون فى الزحام كأنهم نيام .. لا أحد ينظر .. لا أحد يسمع .. وأنما هم يتفادون بعضهم البعض .. أو يتخبطون وكأنهم لم يفعلوا شيئا .. كأنهم قطع من الحجارة .. أو كأنهم انسان الى يحركه من بعيد شخص ما .. أو عفريت ما .. ولا نعرف ان كان الناس قد تركوا بيوتهم أو أعمالهم ليمشوا دون

هدف .. أو ليستريحوا من قرف البيوت وقرف المكاتب .. أو كأنهم قرروا أن يموتوا سيرا على الأقدام ، بدلا من أن يموتوا نوما على مكاتبهم أو غيظا وكمدا من زوجاتهم وأولادهم ..

(٢)

وفجأة يحدث انفجار .. فردة كاوتش .. أو خروج العادم من الماسورة أو سيارة اصطدمت بسيارة أخرى .. إنه صوت كأنه كرباج ضرب آذان كل هؤلاء الناس .. كأنه عصا موسى شقت بحر الزحام نصفين .. كأنه سقوط كوبرى تحت أقدام الناس .. كأنه الشارع نفسه قد انهار .. كما تنهار التربة بسبب المياه الجوفية .. أو كأن الشارع فى حالة « ترييح » كالعمارات الجديدة فمال على أحد الجانبين ..

وفجأة يتوقف الناس .. وينظرون إلى مصدر الصوت .. كأن الناس كانوا فى حاجة إلى لحظة هدوء .. أو فترة استرخاء .. أو وقوف اضطرارى .. إلى أن يفيقوا من الدوخة .. ويفرك الناس عيونهم ويدلكون آذانهم .. فالصوت أيقظهم .. نبههم . أضاء لهم .. مسح لهم الزجاج .. أزال القطن من آذانهم .. كأن الصوت هو دقات المسرح المعروفة .

وانفتح الستار فورا ليرى الناس بعضهم البعض .. ويتذكرون أن لهم هدفا أو أن لهم طريقا .. هذا الصوت قد أنعش الناس .

وبعد الصوت ينشط الناس .. ويسرعون فى الحركة .. وبعد الصوت ينحرف الناس جميعا إلى اليمين .. إلى اليسار .. كأنهم اكتشفوا فجأة أنهم لم يكونوا على الطريق الصحيح .. فالصوت تصحيح مفاجىء لهم جميعا ..

(٣)

وقد لايشعر أحد بهذا الصوت مع أنه قريب منه .. فقد اعتاد على ذلك .. ووقوفه ونظرته إلى مصدر الصوت لامعنى له .. فقد حدث الصوت .. وليكن مايكون .. كاوتش انفجر .. سيارة احترقت .. سيارة حطمت سيارة .. أحد مات .. أحد لم يمت .. أن هذا يحدث كل يوم .. وأحساس الناس به لايقدم ولا يؤخر .. والناس يقولون : الا يكفى أن عنده سيارة .. وأن الواحد منهم لايملك إلا جزمته .. التى هى سيارته وأنه إذا انكسر فسوف تتحطم قدمه .. أما

أصحاب السيارات فيحميهم جسم السيارة .. فهم حتى إذا تصادموا محظوظون .. لايموتون .. ولا يتعطلون وإنما يتوقفون .. ثم يجدون قطع غيار لكل ماتحطم .. أما صاحب الجزمة فليست عنده قطع غيار ..

بل مثل هذه الأصوات هي التي تريح أعصاب كل واحد من المشاة .. هي التي تجعله ينام وهو يمشي ، ويمشي وهو ينام .. تماما كراكب القطار اعتاد على صوت العجلات فوق القضبان .. إن صوتها الرتيب يساعده على النوم .. والفلاح ينام على صوت الساقية .. والطفل ينام على دقات قلب أمه .. فقد أعتاد عليها منذ كان جنينا .. ولو سكتت الأصوات فجأة لوقع الناس على الأرض .. فأذانهم تتساند على الأصوات .. ولو انسحبت الأصوات لكانت كالعصا التي يتوكأ عليها العجوز .. أو المريض اذا انسحبت وقع .. فالأصوات كالدربزين يتساند عليه الصاعد والهابط .. كالجدران والمقاعد يتساند عليها الطفل الذى يتعلم المشى ..

« ٤ »

وبعض الناس يتجهون إلى مصدر الصوت .. كأنه دقات على باب .. وهم واقفون وراء الباب ينتظرونه .. فلما جاء ذهبوا إليه .. يريدون أن يعرفوا ماذا حدث .. وكيف حدث .. ولماذا ؟ لايهتمون شخصيا بما حدث . ولكن الذى حدث قد خلق لهم شيئا يهتمون به .. ويدورون حوله .. لم يكن لهم هدف ، فأصبح لهم هدف .. لم يكن لافكارهم موضوع يدور حوله ، أصبح لها موضوع .. أصبح لها قوة جذب تشدها .. وتشدهم .. فهذا الحادث كأنه جزيرة المغناطيس التى وصفتها « الف ليلة » ـ تسحب كل السفن .. وتسحب من كل السفن المسامير والاعواد الحديدية .. فإذا هى ألواح خشبية طافية .. لقد جردت السفينة من كل مايربط ألواحها .. من كل مايجعلها سفينة وكذلك هؤلاء الناس .. جردهم الحادث من كل ماهو إنسانى .. فأصبحوا ألواحا عائمة .. لاحس ولا عقل .. ولا قلب .. فقط أجسام طافية على سطح الضوضاء .. وبدلا من أن يتعاطف الناس مع الحادث وأطراف الحادث والمصابين فأنهم يشعرون لهم بالامتنان . ومن مظاهر الامتنان هذا الوقوف .. هذه الفرجة دون أن يفعلوا شيئا أو حتى يحاولوا ذلك .. فالحدث قد أعطاهم هدفا .. قد جعل لوقوفهم معنى .. فالحدث حولهم من ألات يسوقها الزحام إلى بشر تخرج على الزحام وتتخذ لها وجهة أخرى .. ثم تذهب إلى مكان الحادث وتقف وتنظر وتتحدث عن

الذى جرى .. وكأنهم يشاهدون فيلما دون أن تكون لهم قدرة على أعتراض مسار الاحداث .. أو الأخذ بيد الضحايا ..

والامتنان هو شعور الناس بالأشباع .. بأن جوعا قد ذهب ، وأن توترا قد انتهى .. وأن ضبعا قد تلاشى ..

اما إذا كان الحادث صغيرا تضايق هؤلاء الناس .. لأنه أراحهم لحظات وكانوا يريدون أن يظلوا هكذا وقتا طويلا .. ثم أنهم يتضايقون من ذلك .. فالحادث قد خدعهم .. فقد جرجرهم من أخر الشارع يزاحمون ويضاربون ليروا ويتوقفوا ويستغرقهم وينتشلهم من الضياع والضوضاء ، فإذا به حادث صغير تافه .. لايستغرق إلا لحظات وبعدها يجب أن يستأنفوا السير.. وقد يدفعهم الضيق إلى اتخاذ موقف عدائى من سائق السيارة .. وهذا الموقف العدائى يجعلهم ينظرون إليه بأحتقار أو بشماتة .. فيقول الواحد للآخر :

يستاهل .. هل لأن لديه سيارة يدوس الناس .. وهو ماذا كان قبل ذلك ؟ .. إنه من تجار المخدرات إننى اعرف أباه وجده ! كانوا بوابين .. فلما الحشيش أعطاهم كل ذلك ، أرادوا أن يقتلوا الناس ..

ويقول واحد أخر : ياعمى ده تلاقى أبوه وزير ولا حاجة .. والواحد من دول يطلع فى التليفزيون يتكلم عن الأدب وعن الإخلاق وعن المسئولية وعن الحرية والرأى الآخر .. يجى بقى يشوف الرجل الآخر الواقع على الأرض ودمه سايح .. وواحد ثالث يقول : تلاقى الغلبان رايح يدور على رغيف طباقى .. تلاقيه رايح يقدم لابنه فى المدارس اللى بيقولوا عليها مدارس خاصة .. ياناس ياهوه .. الحضانة بفلوس والجامعة من غير فلوس .. ومش عاوز الناس ترمى نفسها تحت العربيات . لا .. مش قضاء وقدر .. ده انتحار ياناس .. ده راجل عاوز يخلص من حياته .. أه والمصحف ..

وواحد رابع يقول : يعملوها الأمريكان يموت فيها المصريون .. السيارة دى صناعة أمريكية ثمنها نصف مليون .. زلكة يعنى .. الصين هى البلد الوحيد اللى الناس فيها تركب البسكليت .. آه لو كانت ضربته بسكلته مش كان قام على رجليه دلوقت .. شعب فقير بيحلم بالرأسمالية الأمريكانى ..

وواحد خامس يقول : ياناس بدل الغلبة دى واحد يمد ايده للراجل .. يساعده ياناس .

وواحد سادس : ويعنى هوه كان مد ايده لمين ؟ .

وصوت يقول : الراجل حيموت ياجدعان .. !

وصوت يرد : كلنا حنموت ياأبا .. يمكن ده حيلاقي حد يعمل له جنازة .. واحنا كلاب اتولدت وكلاب ماتت .. قول ياباسط ..

ورجل بلحية يقول : أموال مسروقة .. والله سبحانه وتعالى يمهل ولا يهمل .. لو كان يعطى الزكاة .. لو كان يعطف على الفقراء .. لو كان يرعى الله .. لاحول ولا قوة إلا بالله .. يالله بينا .. خلينا فى حالنا .. الوقفة دى عطلتنا .. عطلونا فى الحياة وفى الموت .. الله يخرب بيوتهم .. أهوا أنا اتخرب بيتى النهاردة .. واقف هنا من ساعة والشهر العقارى زمانه قفل .. الله يخرب بيتك يالى فى بالى .. الله يخرب بيتك .. !!

« ٥ »

وأمام أحد محلات البن يقف اثنان من المثقفين . يقول احدهما للآخر : أنها مغامرة .. كل شيء فى الدنيا مغامرة .. وبقدر المغامرة بقدر العذاب فى هذه الدنيا .. فالذى يمشى على قدميه يدوس الناس ويدوسونه .. والذى يركب سيارة تصدمه السيارات الأخرى .. والذى يركب طيارة لاينزل إلا فى المطارات وبعد ذلك يركب السيارة إلى البيت . ثم يمشى على رجليه من الجراج إلى البيت .. والذى يعبر النيل فى زورق .. والذى يعبر البحر فى باخرة .. وكلها مغامرات فى البر والبحر والجو ..

وكل مغامرة لها قواعد يجب أن نقبلها منذ البداية .. ومادمنا قبلناها فلا يصح أن نشكو فاذا مشيت فى الشارع لايصح أن نتخانق مع الناس الذين يضربونك بأذرعتهم أو يدوسون قدميك أنها شروط مغامرة المشى التى أخترتها والتى قبلت متاعبها .. ولاعب الكرة الذى ينزل إلى الملاعب يعلم قبل أن ينزل أنه من الممكن أن تنكسر رجله ورقبته . ولا يستطيع أن يقاضى لاعبا . ولا يستطيع الجمهور أن يلومه أو يدينه أنهم جميعا قد قبلوا شروط وقواعد هذه اللعبة وإذا أحرز هدفا صفقوا له . وإذا لم يحرز صفروا له لأنه كان سببا فى فشل الفريق وسببا فى إيذائهم .. وانه سدد هدفا وهدفا ثم وقع فى الملعب .. يتلوى .. وظل يتلوى وتعطل اللعب . فإن الجمهور يطالب الحكم بإخراجه من الملعب لأنه افسد عليهم متعتهم .. والحادث التاريخى الشهير لمحمد على كلاى ملك ملوك الملاكمة فقد استطاع ان يهزم خصمه بالضربة القاضية بعد دقيقة من المباراة ـ أى حقق لعشاقه أعظم انتصار .. ولكن الناس تضايقوا منه .. فقد أستعدوا لهذه

المباراة أياما وجاءوا لها من بلاد بعيدة .. وحجزوا لهم غرفا فى الفنادق وتحدثوا عن الذى سوف يحدث وتراهنوا .. وذهبوا استعدادا للأستمتاع بالفن والبراعة .. وفجأة أنتهت المباراة .. فثاروا على البطل .. لا لأنه لم ينتصر ولكن لأنه حرمهم من متعة الاثارة .. ولكنها قواعد اللعبة .. وشروط المغامرة .. وحادث الممثل الكوميدى الامريكى الذى مات على المسرح فى المشهد الأول من الفصل الأول .. وجاء مدير المسرح يعلن وفاته .. وحزن الناس ومعظمهم بكى عليه .. ولكن لم يتقدم واحد من المشاهدين يطلب تأجيل العرض المسرحى .. حدادا على البطل المحبوب ..

وإنما أظلم المسرح لحظات ثم استأنفت المسرحية أداءها واستأنف الناس الضحك . فهناك ممثلون آخرون يجب أن يعملوا .. وهناك شركة تنفق على المسرح .. وهناك أناس يجب أن يضحكوا غدا وبعد غد .. أنها قواعد المغامرة المسرحية .. أن تستمر حتى لو مات البطل أو المخرج .. أو المدير أو صاحب الشركة المسرحية .. ويجب الا يتهم أحد جمهور المسرح بالحيوانية أو القسوة .. انها قواعد المتعة الفنية والشركة التجارية . والحياة يجب أن تستمر رغم تساقط أى واحد من الناس ! ولذلك يجب سحب السيارة من الشارع .. وسحب الناس من تحتها .. لأن بقية السيارات تطلق أصوات التنبيه غضبا وسخطا .. فالسيارات يجب أن تمضى .. والشارع يجب أن يتحرك .. والناس يجب أن ينطلقوا الى اهدافهم .. ولا معنى لأن تتوقف الحياة من أجل أحد أيا كان هذا الأحد ..

ويرد عليه زميله دون أن ينظر إليه أو حتى يلاحظ أنه لم يفرغ من كلامه بعد .. كأنهما يتحدثان من نافذة سيارتين متجاورتين .. بعد أن طال الوقوف : أنا لاأعرف بالضبط ماذا كنت تقول ولكنى أرى أن الحياة لم تعد تطاق .. الناس ضاقوا بالحياة الناس لايريدون أن يعيشوا وفى نفس الوقت لايريدون أن يموتوا .. كالأزواج لايريدون الطلاق ولا يريدون الحياة معا .. انهم يكذبون على أنفسهم إذا تظاهروا بالتمسك بالحياة .. ويكذبون علينا اذا تظاهروا بأنهم يتعجلون الموت .. كله كذب .. الحب كذب .. والاخلاص كذب .. والايمان كذب .. والعملات التى فى أيدينا مزورة .. والتى ليست مزورة ليس لها غطاء ذهبى .. والذهب نحاس .. والنحاس خردة .. كله كذب .. زوجتك تكذب عليك .. لاتصدقها .. وابنتك تكذب عليك انها تريد فلوسك .. وأنت تكذب على زوجتك ..

هذه المقاهى لم تظهر فى الدنيا إلا لأن الناس وجدوها الملجأ الوحيد من غم البيوت .. على المقهى يجلس الناس لايكلمون بعضهم البعض .. فقط يريدون الصمت .. بعد أن عذبتهم زوجاتهم .. فربنا سبحانه وتعالى عندما جعل مظاهر الانوثة تبرز عند المرأة .. جعل شيئا آخر يبرز ولكننا لانراه إلا فيما بعد : لسانها .. لسانها كرباج .. لسانها سوط عذاب .. لسانها حبل مشنقة للزوج فقط .. والذين لايجدون مكانا على المقهى .. يجلسون فى سياراتهم ويدورون بها .. لايسمعون ولا يرون ولا يريدون أن يكلموا أحدا .. أن الحادث فى أى شارع ليس الا نوعا من التصفيق ينادى به رواد المقهى .. على رجال الأمن أو رجال الأسعاف أو عزرائيل لينقذهم مما هم فيه .. أؤكد لك أن المغفل الذى اصطدم بالسيارة الأخرى وانكسرت ذراعه كان يبحث عن سبب لاثارة عطف الزوجة والأولاد .. مغفل لأن عطف الزوجة كذب .. لا عطف ولا حب .. وإنما هى فرصة للكلام فى التليفون مع صاحباتها تقول : ياما نصحته .. ياما قلت له .. أنت مستعجل على أيه .. اقعد معايا نتكلم فى حالنا .. نشوف أولادنا .. أبداً رأسه والف سيف أن ينزل فورا .. مستعجل على أيه مش فاهمة .. ان كان الرجل غنيا فزوجته تحسب الأيام التى سيعيشها لترث ماعنده .. وترتدى فستانا أسود انيقا تفكر فيه الآن .. وتفكر بعد أن تأتى بالقماش فى من تكون الخياطة .. ونوع البن الذى تقدمه للذين جاءوا العزاء .. وسوف تدعى أن هذا هو البن الذى كان يحبه .. وأن هذه هى وصيته قبل أن يموت .. رغم انه مات فى غيبوبة لا رأى ولا سمع ولا أوصى .. مغفل وسوف تتزوج غيره .. لأن هذه وصيته أيضا !! ..

★ ★ ★

والناس أمام الحوادث شاعر أو فيلسوف ..

ويكون حادث سيارة .. ويكون زلزالا .. أو وباء .. أو حربا ودمارا وخرابا وانهيارا للقيم والمثل العليا ويأسا من النجاة ..

الشاعر يعايش الحدث .. يمتصه . يجعله دما يجرى فى عروقه .. ونورا فى عينيه .. وموسيقى فى أذنيه ، وأرقا وقلقا ومسامير يتمرغ عليها .. أو حريرا يرفل فيه .. أو قلبا يعلو ويهبط أو معدة تهضم الظلط ! .

والفيلسوف يتساءل : لماذا حدث الذى حدث .. ثم ماهذا الذى حدث . ؟ هل هى إرادة الناس ؟ هل هى إرادة السائق ؟ هل رغبة الناس فى أن يقع ماوقع ، أو

أنه السائق فرض على الناس الحديد والنار والدخان والدم .. ثم مات هو بعد ذلك .. ولكنه .. لم يمت إلا بعد أن كاد يميت الناس .. وكيف لايحدث مرة أخرى ماحدث ؟ وهل من الضرورى أن يقع مرة أخرى على فترات منتظمة ؟ هل هذا الانتظام هو قانون الأشياء ؟ وهل هذا القانون ينطبق على الناس رغم إرادة الناس ؟ هل أنتظام الاحداث قضاء وقدر .. ولاراد للقضاء ولا أعتراض على القدر .. هل الاصل أن يعيش الناس فى دوخه .. وسلام ؟ .. هل القاعدة هى وقوع الاحداث والكوارث والقتل والدم والبكاء أما الهدوء فهذا هو الاستثناء فى قاعدة الكوارث والمصائب ؟ هل هو الملل الذى يضيق به الناس يخترعون المصائب هربا من الملل .. هل الملل أفدح من المصائب .. ؟ هل المصائب هى الأصل ، حتى لايمل الناس .. أو الهدوء هو العمل حتى لايموت الناس .. ؟ هل الناس نيام حتى إذا هددهم الموت صحوا من النوم ؟ ..

هل لابد من عزرائيل يدق الأبواب حتى يصحو الناس خوفا منه .. هل لابد أن يخاف الناس لكى يعيش الناس .. هل الناس الذين لايعرفون الخوف هم الذين لايعرفون معنى الحياة .. ومعنى الأمل ومعنى الهدف ..

أخيرا ..

هذا الذى قلته عن حادث صغير هو بالضبط مايقال عن حادث كبير .. عن حروب وقعت وعن دمار شمل كل الناس .. عن الحرب العالمية وما أحدثته فى أوروبا وآسيا وشمال أفريقيا وروسيا ..

أن كل الذى ذكرت هو العناصر الأساسية والمادة الأولية لفلسفة جديدة تصف أمراض الناس وعذابهم .. وتبكيهم على أنفسهم .. ثم لاتعدهم بشىء .. فليس من شأن الفلسفة أن تعد بشىء وإنما هذه هى مهمة رجال الاصلاح الدينى والسياسى والاجتماعى .

أن كل هذا الذى ذكرت ليس إلا أستمارة قبول لدى الفلاسفة الوجوديين فى المانيا وفى فرنسا .

وأرجو أن تستحضر هذه المعانى الصغيرة الواضحة وأنا أحدثك عن الفلسفه الوجودية التى كانت الصورة المتألقة لليأس والعار الذى سحق الضمير الأوروبى بعد ويلات الحروب العالمية المتلاحقة .. وصدى ذلك فى العالم كله .. !!!

مارتن هيدجر
ابو الوجودية الحديثة
لم يكن داعية للنازية !

ذهب عدد من الطلبة الاغريق يبحثون عن الفيلسوف العظيم هرقليطس .. فأشار الناس الى نهاية الشارع . ذهبوا الى النهاية فوجدوا فرنا :

والدخان يخرج من مكان والنار تحرق ملابس أحد الخبازين . ولكن الخباز ظل يتفرج على النار وكلما اقتربت من جلده نزع الثوب . ووقف عاريا . ولما حاول واحد من الطلبة أن يطفىء النار اشار اليه الخباز بأن يبتعد . ثم عاد الخباز يلقى بالوقود فى الفرن ويستأنف صناعة الخبز . فاقترب منه الطلبة وسألوه ان كان فى استطاعته أن يدلهم على الفيلسوف العظيم .

فقال وهو يقلب الخبز فى الفرن : أما انه فليسوف فهذا صحيح ، اما انه عظيم فلا أظنه كذلك .

ثم أشار الى نفسه ـ أى انه هو الفيلسوف !

والتفت الطلبة بعضهم الى بعض .. واقتحمته العيون من الوحل فى قدميه ، الى العجين فى ملابسه وفى شعره ورموش عينيه . وعادت العيون تكتسحه وتكنس التراب حوله وتكنسه هو أيضا .. وتكاد تدفعه الى الفرن . وقالوا أنت ؟!

ولما رأى الفيلسوف ان صدمتهم كانت عظيمة سألهم : وهل تظنون أن الفيلسوف لا يأكل ؟

قالوا : طبعا يأكل .

وسألهم : واذا كان الذى يأكله هو احسن من يصنعه ، فهل يترك صناعة الخبز لغيره ؟

قالوا : لا ..

سألهم : واذا كان فى استطاعته أن يكسب من وراء ذلك ، فهل يخسر ؟

قالوا : لا ..

ـ وهل تظنون ان الفيلسوف يظل يفكر فلا يشرب ولا يأكل ولا ينام ولا يجلس الى زوجته وأولاده ولا يتريض أو يتحدث .. واذا تحدث فلابد أن يقول ذلك لتلامذته .. طبعا بعد أن يعمل ويعمل . لأن العمل واجب . ولأن الاتقان قدوة .. ثم كيف يعمل في الطين ولا يتسخ ؟ وكيف يعمل في النار ولا يحترق ؟ وكيف يعتمد على نفسه ولا يتعب .. وكيف اذا أشعل نارا ألا يكون دخان وماء وطين وعرق .. انتم أمام صورة طبيعية لانسان عادى اذا أكل وشرب .. وغير عادى اذا فكر . وأنا الآن لا أفكر قبل أن أسكت معدتي وأريح رأسي وأؤدى واجبي ..

ولكن الصدمة أفقدتهم شهية الحوار . فهربوا من الخباز الذى لم يتصوروا انه أعظم فلاسفة زمانه . فأين الخطأ ؟ إنه خطأ التلاميذ الذين احتفظوا بصورة للفيلسوف تختلف عن حقيقته .. ولما رأى الفيلسوف العظيم أن الصدمة قد أطاحت بصواب التلاميذ ، ترك الفرن والخبز يحترق وقال لهم : تفضلوا يا معشر الآلهة الى بيتنا .. ففي بيتنا إله آخر سوف يعلمكم الحكمة !

أى انهم جميعا آلهة .. صغار وكبار ..

وذهب الفيلسوف الى الحمام واغتسل ووضع العطور في شعره وملابسه .. وجاءهم مشرقا لامعا .. واختار ركنا من الغرفة وجلس . ورفع رأسه يقول : ماذا تريدون أن تعرفوا مني وعني ؟

واختفت صورة الخباز ، وظهرت صورة الفيلسوف ، مع أن الخباز هو الفيلسوف وهو يعمل ، والفيلسوف هو الخباز وهو يفكر !

* * *

.. إلا هذا الرجل الألماني العظيم . انه متوسط القامة . هادىء الوجه . خفيض الصوت .. أنه أعظم الفلاسفة المعاصرين وأعمقهم وأستاذهم . فمن أفكاره تولدت الفلسفات الوجودية كلها : في فرنسا وايطاليا وأسبانيا .. هذا الفيلسوف هو مارتن هيدجر . وهو نموذج للأستاذ الجامعى الصامت البعيد عن الناس . فنحن لا نعرف عنه أى شيء . لا نعرف كيف ظهر . ولا كيف أصبح عظيما . ولا كيف كان نازيا . أو كيف اتهموه .. وكيف برأوه بعد ذلك .. وهل صحيح كان نازيا ؟! وهل ايمانه بالحرية الفردية وعظمة الفرد وعظمة الفيلسوف تجعله يلقى بكل ذلك تحت حذاء هتلر ؟ هل معقول ؟

طبعا لا ..

اذن كيف اتهموه ولم يعارض .. وأبعدوه عن التدريس في الجامعة ؟ ثم

أعادوه ولم يناقش .. ان هذا الرجل الالمانى العظيم عاش على عادة الفلاسفة الألمان ، عاش للفكر ومن أجل الفكر . فلا أعظم من الفكر ولا من الانسان المفكر . ولا يهم المنصب ولا الفلوس ولا السعادة .. فقط أن يفكر وأن يكتب وأن ينتظر بعيدا ..

ان هذا الفيلسوف العظيم لم يكمل عملا فلسفيا واحدا . فاعظم كتبه ، وأعظم الكتب التى صدرت فى القرن العشرين عنوانه « الوجود والعدم » صدر فى سنة ١٩٢٧ .. ووعد بأن يكمله . ولم يفعل . أما بقية أعماله الفلسفية الأخرى فهى فصول لكتب لم تتم .. وكلها معا تضع أمامنا صورة لأعمق أعماق الموجود الانسانى .. ووجود الأشياء .. ووجود الانسانية .. ما المعنى ؟

ان هذا الفيلسوف الألمانى هو أصعب وأعقد وأغمض الفلاسفة المعاصرين على الاطلاق . وليس هنا مجال أو مكان عرض فلسفته الوجودية أو فلسفته الموجودية . ولكن فقط أريد منك أن تستحضر المعانى البسيطة التى تحدثت عنها طويلا فى الموضوع السابق . وقد أطلت ودرت حولها عامدا متعمدا .. وكل الموضوع من أوله لآخره لم يكن إلا تحليلا فلسفيا نفسيا عمليا لمعنى وأثر انفجار عجلات سيارة فى شارع مزدحم . فقط . ما الذى حدث ؟ ما أثر ذلك فى الناس ؟ فى أشكال وألوان من الناس ؟ ولا يختلف كثيرا انفجار عجلات سيارة عن انفجار قنبلة وسقوط بيت وقتيل .. ومليون بيت ومليون قتيل .. فموقف الناس هو هو .. وموقف الفيلسوف هو هو : ماذا جرى ؟ كيف جرى ؟ ماذا بعد ذلك ؟ ثم كيف تلقينا ما حدث ؟

أننا مختلفون جدا .. ولكن المعنى العميق واحد عند كل الناس .. كيف ؟

دعنى أنظر الى نفس الشارع المزدحم وقد انفجرت عجلات سيارة .. ما الذى أمامنا الآن ؟ أناس .. وسيارات وشارع ..

أما السيارة فهى من صنع الانسان .. ولكن السيارة مادة والانسان مادة .. والفرق بين الاثنين ان الانسان يعرف انه ليس سيارة .. ولكن السيارة لا تعرف انها سيارة وانها ليست انسانا ..

الانسان يعرف ان السيارة من صنعه هو .. وانه صنعها لتكون فى خدمته .. فالسيارة احدى أدواته ..

والانسان وهو واقف الى جوار السيارة .. كالأبرة والخيط الى جوار الثوب .. كأمواس الحلاقة فى يدك بالقرب من ذقنك ..

كلها أدوات صنعها الانسان ليستخدمها الانسان .. فالانسان إذن هو الكائن الذى يصنع أدواته .. وهذه الأدوات هى دليل على مدى التطور العلمى للانسان .. فالحضارة الانسانية هى علوم وفنون تطوير الأدوات التى يستخدمها الانسان .. فالانسان صنع لنفسه النعل ثم الحذاء .. ثم السيارة والطيارة والصاروخ .. كلها أدوات تحت قدميه ينتقل بها الى أين يشاء متى يشاء ..

فهذه الأدوات لها صفة واحدة : أنها هناك .. أنها هناك فى متناول الانسان .. هذه كل صفاتها .. يتناولها الانسان ويتداولها ..

ولكن الانسان نفسه من الممكن أن يكون « اداة » فى متناول واحد آخر .. فالعامل أداة .. والعمال كلهم أدوات للعمل والانتاج .. تماما كالآلات التى تنتج .. والانسان « أداة » تنطبق عليها القوانين واللوائح .. ولها ثواب وعقاب .. ويمكن استدعاؤها .. ويمكن القضاء عليها ..

فكما أن السيارة أداة للانسان فالانسان أداة للانسان أيضا ..

واذا وقفت تتفرج على الناس وبعيدا عنهم .. فأنت فى مأمن من الضغط الجماهيرى .. وبعيد عن ضربهم لك بالأكتاف والأحذية .. ولكن عندما تدخل فى الزحام ، أصبحت مدفوعا إلى الأمام والى الخلف .. مثل السيارات ومثل الأغنام : أداة تدفعها أدوات ..

بينما أنت واقف تتفرج على الناس وبعيد عنهم تجد فى رأسك احتمالات أو امكانات : أن تبقى حيث أنت .. أو تمشى بين الناس .. او تركب سيارة .. أو تعود الى بيتك « تنام » تأكل . وأنت فى البيت تلاحظ أنك مختلف عن المقاعد والمناضد .. فهذه الأشياء أو هذه الأدوات موجودة هناك .. تحت أمرك رهن اشارتك .. لا حيلة لها ولا قوة إلا بك .. ولكنك أنت مليان بالاحتمالات والاقتراحات .. والمشروعات .. وكل أفكارك مشروعات .. فالانسان من أوله لآخره « مشروع » عمل .. مشروع حركة .. مشروع فكر .. وأنت الذى تختار لنفسك ما تريد من كل الذى يملأ دماغك من أفكار ..

وحياتك كلها « مشروع » صغير أو كبير ..

* * *

وأنت تعرف أنك سوف تموت .. والموت معناه نهاية كل مشروعاتك ..

مشروعاتك أنت وحدك .. لأنني عندما أموت ، فأنا الذى أموت .. لا أموت لأحد .. ولكن أموت لنفسى .. فالموت شخصى ..

ولكن الموت عام لكل الناس أيضا ..

أى أننى أعلم أن الناس جميعا سوف يموتون . ولا أحد يعلم متى ولا كيف .. ولكن لا مفر من موتهم ..

وأعلم علم اليقين اننى سوف أموت شخصيا . والموت حقيقة .. تقضى على كل حقيقة أخرى ..

أو أن الموت فعل وليس فكرة . فعل يقضى على كل فعل آخر ..

وكل انسان إذا نظر إلى الواقع حوله . فلا نهاية للذى يرى والذى يسمع .. والذى يفكر فيما سوف يفعله وكيف يفعله فهو - إذن - يعانى آلما .. هماً ثقيلاً .. هل يفعل هذا أو ذاك .. يتقدم .. يتأخر .. يقرر فورا .. يقرر غداً ..

فعالمى كله أمامى نوع من الهم والغم .. ولذلك كان الشعور بالفزع هو الذى يضايقنى ..

وهناك فرق بين الفزع والخوف ؟

الفزع هو الخوف من هذا الشىء بالذات ، والخوف هو الفزع العام .. أو بعبارة أخرى .. فالفزع جزئى ، والخوف عام . الفزع من ماذا ؟ والخوف من ماذا ؟

دعنى أضرب لك أمثلة أخرى بعيدا عن استخدام أى مصطلح فلسفى لهذا الفيلسوف العظيم لأن مارتن هيدجر هو أكبر مصنع للتراكيب الفلسفية الصعبة والمعقدة .. ما علينا .. نفرض أننى أريد أن أذهب الى الاسكندرية . هناك عدة احتمالات : أن أركب سيارة .. موتوسيكلا .. طيارة .. أو أركب زورقا فى ترعة المحمودية الى الاسكندرية .. أو أذهب الى بور سعيد ثم بحرا الى الاسكندرية أو على ظهر حمار .. أو سيرا على الأقدام .. أو اننى غيرت رأيى . وقررت البقاء .. فما هذا كله ؟

إن كل اختيار من هذه الاحتمالات له صعوبات . فاذا قررت السفر بسيارة : فأما أن اذهب بالطريق الزراعى .. وأما الطريق الصحراوى .. اما سائقا سيارتى أو فى تاكسى .. فاذا قررت أن أقود سيارتى فلابد أن أعرف القيادة وأن احمل رخصة .. وان كنت أسرح أثناء القيادة فهناك خطورة على حياتى .. ولذلك يجب أن احتاط لذلك .. وان كنت أنام أثناء القيادة .. وان كنت قد

ارتكبت حوادث قبل ذلك .. والسيارة نفسها يجب أن تكون قادرة وأن يكون بها زيت وماء وبنزين وعجلات منفوخة .. فكل اختيار له شروط . وله مشاكل . وله مخاطر أيضا ..

ومن الممكن أن ألقى نفسى فى أتوبيس وأسافر دون تفكير فى شيء .. ومن الممكن أن أركب سيارة صديق وأترك الهموم كلها فوق دماغه ، وليكن ما يكون ..

فالذى يفكر فى كل شيء يتعب ..

والذى لا يفكر لا يتعب ..

ولكن أعلى مراتب الوجود أن يكون الانسان مفكرا حريصا على استقلال الرأى والارادة .. حريصا على كرامته ونبل الوجود نفسه .. فلا ينساق ولا يتعلق بذيل أحد أو ارادة أحد ..

ولا شيء يأكل ارادة الانسان وانسانيته أيضا قبل أن يكون ضحية للناس .. أداة لهم .. يدوسهم فى الزحام ويدوسونه .. فى المصنع وفى المعمل وفى الحقل وفى الجيش .. أداة وسط أدوات .. معدوما وسط معدومين ..

أسوأ ما يصاب به الانسان أن يكون كالناس .. واحدا منهم .. مثلهم .. لا ميزة له .. ولا صفة .. وإنما واحد من الملايين .. كأنه سيارة في موقف .. أو كأنه مسمار فى صندوق مسامير .. موجة فى بحر .. ذرة فى صحراء .. فالصنفرة التى يحتك بها الانسان فتأكله وتمحو أطرافه فلا تكون له أطراف : انهم الناس .. أن يكون ضحية الناس .. ضمن الناس .. لا خلاف ولا فرق ولا ميزة .. وأن يجعل همه أن يعمل مثلهم .. ان ينساق وراءهم .. أن يلغى عقله ويشجب ارادته ، ويعلق انسانيته ..

ولذلك فالانسان يخاف من الناس ..

يخاف أن يكون أداة مثلهم .. أو بينهم .. وهو لذلك يرى أن يبقى بعيد المنال .. بعيد التناول والتداول .. وهي صفة المفكر أو الفيلسوف .. يرى ويفكر ويتأمل ويتعمق ..

* * *

* * *

فاذا كانت هذه فلسفة هيدجر ، فكيف يرضى أن يتحول الناس جميعا إلى أداة حرب فى يد هتلر ؟

كيف يرى أن الوجود الفردى أو الوجود الحر للفرد أو حرية الفرد وهى أعظم صفات الانسان ثم يهدرها عند قدمي هتلر .. ويهدر نفسه ؟

هذا هو اللغز فى حياة الفيلسوف العظيم مارتن هيدجر ..

لعله لم يقل شيئا ضد النازية .. لعله أدرك انه أضعف من أن يكون له رأى ، وأن يكون لرأيه أثر .. وانه اكتفى بالوقوف وظهره للحائط يرى الأمواج العاتية وينتظر انحسارها وهزيمة النازية ..

والذين اتهموه بأنه لم يعارض النازية ابعدوه عن التدريس فى الجامعة . وبعد الحرب أعادوه الى الجامعة .. وعندما عاد الى الجامعة لم يقل شيئا . فكل الذى كان عنده قد قاله تحت ضغط أليم من ويلات الحرب العالمية الأولى .. فجاءت الحرب العالمية الثانية ووضعت الحرب الأولى فى الظل لأنها كانت أعنف وأقسى .. وقد رأى فى الحرب العالمية الأولى أبشع عملية تحطيم للانسان وأفدح جريمة يتحول فيها الانسان الى أشياء مادية .. الى أدوات يستخدمها الحاكم .. الى رصاص .. مدافع .. قنابل .. يطلقها على الآخرين .. ويقتل الجميع .. فالحرب هى أعنف عملية كيمائية لكى يفقد الناس عقولهم ويصبحوا وحوشا .. ثم أنيابا ومخالب .. أى مجرد خناجر وسيوف وقنابل وأدوات .. لا إرادة لها ولا عقل ..

واذا كان هذا هو رأى الفيلسوف العظيم فى الحرب العالمية الأولى ، فما الذى يجعله يغير رأيه فى الحرب العالمية الثانية وفى هتلر .. انه نفس الرأى .. فليس معقولا ان يكون نازيا أو مؤيدا للنازية .. ولكن الصدمة الهائلة أسكتت الرجل . فلم يجد ما يقوله . فكان ذلك السكوت علامة الرضا . هم الذين قالوا . أما هو فلم يقل !

فأسوأ صور السلوك الانسانى وأحطها وأحقرها : الاستعباد ..

أى تحويل الأحرار الى عبيد .. تحويل الانسان إلى آلة .. سكين .. قذيفة .. جزمة .. طوبة .. يضربها برجله أو بيده .. يلقى بها على الناس ، ولا رأى ولا ارادة لها ..

وليست هذه فلسفة العظيم جدا مارتن هيدجر ، وانما هذه لمحة من ضوئها الساطع .. أو سطر واضح فى كتاب ضخم شاق صعب جدا اسمه « الوجود والعدم » .. ولكن هذا الكتاب هو مستودع البذور الوجودية لكل الفلسفات التى ظهرت فى أوروبا بعد الحرب العالمية الثانية .

وكما ظهر الفيلسوف الوجودى مارتن هيدجر فجأة ، تزوج فجأة ، واختفى فجأة دون أن يحدث ضجة فى حياته أو عند مماته ..

ولكن الضجة التى تحولت الى اعصار فلسفى ظهرت بعيدا عن المانيا .. ظهرت فى فرنسا بأقلام الوجوديين الأدباء : سارتر وكامى وسيمون ديوفوار .. فقد تلقوا الدرس الأول من الفيلسوف الألمانى ، وكانوا أقدر منه على الشرح والتبسيط وعلى صناعة الأدب والفن .. فكانت فلسفتهم أمتع وأجمل وأوسع انتشارا .. وأعمق اثرا وأقدر على صبغ الدنيا باللون القاتم ، واشاعة المرارة على كل لسان ..

وظهور هذا الفيلسوف العظيم يتمشى مع أعظم التقاليد الألمانية .. فلا توجد نظرية فلسفية أو ثورة فلسفية إلا كانت المانية فى البداية .. فالألمان هم رواد الفلسفة والابداع الفكرى فى كل العصور ..

أنت الراعي ..
والغنم والذئب

أما هذا الفيلسوف الفرنسي جبريل مارسيل ، فهو أوضح وألطف ، والحوادث القليلة التي هزت حياته كان لها اثر عميق جدا في تفكيره وفي نظرته الى الدنيا في داخله ومن حوله ..

أمه ماتت وهو في الرابعة من عمره . أمه يهودية وتولت تربيته خالته . وخالته لا تؤدى الشعائر الدينية . أبوه مسيحي وليس متدينا . ولم يعرف الطفل في هذه السن الصغيرة الى أين يتجه .. الى الكنيسة أو الى المعبد اليهودي . لم يقل له احد شيئا . ولم يعرف حلا لهذا الاشكال المبكر ، فاستولى عليه الشك .. ثم العجز عن ايجاد طريقة أو حل ..

وعلى الرغم من أن أمه ماتت ، فانها كانت حاضرة في وجدانه . وفي خياله . وحضورها أقوى من حضور والده وخالته . اذن من الممكن ان يكون الغائب أقوى من الحاضر ، وأن تكون الروح أقوى من المادة . وان يكون أثرها أعمق من كل الذى حوله من الذين يحبونه ويحبهم . ولكن وجود أمه ليس قائما على أساس المنفعة أو الصلة المباشرة . أو أن الذى فعلته كان بالغ الأثر .. لا شيء من ذلك . ولكن حضورها الغامض كان أقوى . ولم يفلح في أن يتخلص منه أو حتى أن يفهمه ..

وعندما ذهب الى الجامعة كان المثل الأعلى هو أن يحصل على الشهادة الكبيرة ، ولكن الذين يتحدثون عن الشهادات لا يعرفون الثمن الذى يدفعه الطالب اذا كان متحرر التفكير .. فالدراسة الجامعية تقتل الاستقلال الفكرى .. تقتل الحرية .. تقضي على الابداع .. وعلى الفردية .. ففي الجامعة يجب أن تفكر وفقا لقوالب وعلى شكل قوالب .. لا تخرج عنها .. وإلا كان الخروج جهلا واحتقارا للأساتذة الراسخين في العلم المتربعين في الكتب .. ولذلك – يقول

جبريل مارسيل ـ كان الفلاسفة العظماء هم الذين اتجهوا الى الواقع .. الى التجربة اليومية .. الى الحياة الانسانية دون أن يكون همهم الأول والأخير أن يبتكروا تعبيرات جديدة ومصطلحات فريدة تستحق التصفيق فى المؤتمرات الدولية . ولا يمكن أن يكون الانسان مبدعا اذا كان هدفه أصوات أعضاء الوفود الدولية ..

ولذلك كان من أهم أهدافه فى حياته الفلسفية أن يخلع هذه القوالب من راسه ومن قلمه .. وان يتجرد من الدروع الفلسفية وأن يواجه الوجود كله بملابسه هو .. أو بجلده وعينيه وأذنيه وأصابعه ، لا أعين وآذان وأصابع أساتذة الجامعة !

ولم يكن سليم البدن . ولذلك لم يحمل السلاح فى الحرب العالمية الأولى .. وانما عمل فى الصليب الأحمر يسعف المرضى والجرحى .. ويبلغ أهالى الجنود بأسماء المواقع أو المستشفيات أو إن كانوا ماتوا ودفنوا معا .. وكانت الحرب صدمة له هو الآخر كما كانت صدمة لفلاسفة وجوديين من قبل .. ففى هذه الحرب يصبح الانسان شيئا يرمونه ويستهلكونه .. ولابد من البحث عن بديل له يملأ الفراغ الذى تركه ثم يطلق نارا فى الاتجاه المحدد ويموت ويكون الموت شرفا له ؟!

وفى كتابه « سر وجود » كل افكاره الفلسفية المبتكرة ..

ولكن جبريل مارسيل بدأ يكتب المسرحيات وهو فى الثامنة من عمره ، وفى هذه المسرحيات كل البذور والجذور .. فقد اتخذت هذه المسرحيات معنيين يلحان عليه طوال حياته : الانسان غريب فى زمانه .. ولذلك فالانسان حزين بائس ..

* * *

فما هذا الانسان فى العصر الحديث ؟

أنا أقول لك : انه مجموعة من الوظائف . هذه الوظائف يجب ان يقوم بها حتى الموت .. فهو أب . والأبوة وظيفة . وهو زوج . والزواج وظيفة . وهو ـ مثلا ـ فراش دورة مياه أو سائق مترو تحت الأرض .. وهو عضو فى نقابة .. وكل هذه الوظائف يجب أن يفى بالتزاماتها كل يوم .. والقيام بهذه الالتزامات هو قمة الأداء .. والأداء الكامل هو قمة الأخلاق والسعادة هى أن ينضبط مع مقتضيات كل وظيفة .. أو الوظائف معا . فالانسان كتلة وظائف ..

ولنفرض أن أحدا يعمل سائقا للمترو .. عاملا فى المناجم .. فراشا لدورة مياه .. سوف تكون حياته منظمة .. روتين .. لابد أن يصحو فى موعد محدد . ولكى يصحو فى موعد لابد أن ينام مبكرا .. ولكى يصحو منتعشا لابد أن يأكل مبكرا . ولابد أن يعرف جيدا ما الذى يضر بصحته فيؤدى الى تعطيله عن العمل . ولابد من الحرص على الاجازة الاسبوعية . وأن يعرف ما هو اللهو المناسب أثناء الاجازة حتى إذا عاد إلى العمل كان لائقا جسميا ونفسيا . فالمرض يعطل الوظيفة . والموت يقوم بتفريغ مكانه . ويؤدى الى خراب بيته وتشرد زوجته وأولاده .. ولذلك فهو حريص على حسن الاداء .. فاذا أصابه مرض كان لابد أن يذهب الى المستشفى .. والمستشفى هو « الورشة » التى يصلحون فيها الخلل العضوى أو الوظيفى .. وفى الورشة يجرى الاحلال والابدال ..

إنه ـ إذن ـ قطعة غيار .. اذا تآكلت أو « نعمت » فلابد من أن تجىء قطعة غيار أخرى .. لأن المترو يجب أن يسير والناس يجب أن يذهبوا إلى أعمالهم .. واذا شعر السائق بتعب أو قرف ، فإنه عادة يرى ذلك شيئا طبيعيا جدا ، ولذلك فإنه يضع « همه » فى الشغل . والعامل له صفة واحدة :

أنه يتآكل .. أى أنه يسعى إلى نهايته بأصابعه وأظافره .. وهو مثل أى مسمار إما أن يظل فى موقعه فى الجهاز الكبير ، واما أن يلفظه الجهاز ويطرده .. لكى يحل مسمار آخر مكانه !

والانسان فى العصر الحديث ينظر الى دنياه على انها مشاكل ومشاكل . وهذه المشاكل تنحل واحدة واحدة .. وهو فى حالة خوف دائم من أن يقع فى مشكلة .. وهذه المشكلة سوف تعرقل مسيرته .. وتعطل وظيفته وتضره ماديا .. ولذلك فهو حريص على أن ينفذ البرنامج الموضوع له .

والانسان الحديث « مبرمج » ـ اى أن له خطة عمل قد انغرست فى لحمه ودمه وهو لا يخرج عنها .. ولا يحاول . واذا حاول فهو يخاطر بمستقبله واسرته .. فى حياته وبعد مماته .. ولذلك فهو ينظر لكل شىء على انه مشكلة : ميلاده هو وميلاد أولاده .. واذا أحب .. واذا كره واذا مرض واذا مات ! ولايوجد علاج علمى لحالته هذه ..

ولذلك يحاول أن « يلم » نفسه .. وأن يكون فى حالة « اكتفاء ذاتى » .. يكفى خيره شره .. وان يبتعد عن الناس . والستر هو الا يمد يده للناس .. فعنده ما

يكفيه .. أيا كان كم وكيف الذى عنده .. وهذا يعزله عن الناس .. وهو أراد أن يبتعد عن الناس لكى يأمن شرهم .. ولكى يحقق لنفسه نوعا من الأمان .. ولكن البعد يضاعف عدم الشعور بالأمان .. فهو فى خوف دائم من الناس ، وعلى نفسه ..

ولذلك فالانسان المعاصر عنده هذا الشعور بالغربة والاغتراب واليأس من الناس .. ومن الحياة !

فالانسان : هو موظف .. له خانة .. نقابى .. قطعة غيار .. وهو انسان معدوم الانسانية ..

فاذا فكر هذا الانسان أن يشعر بوجوده .. أى أن يكون موجودا واعيا حرا .. فلابد أن يكسر هذه الاطارات .. أن يفلت من هذا الانضباط .. ان ينزع هذه اللافتات التى انطبعت على جلده وتحت جلده .. فليس كل صفاته انه سائق .. ولا كل صفاته أنه أب .. أنه زوج .. أنه أخ .. هذه بعض صفاته بعض الوقت .. ولكنه انسان .. من حقه أن يكون له حق . من صميم حريته أن يختار بحريته .. أن يخرج من الطابور .. أن يخرج على الصف .. أن يدير ظهره لهذه الآلية البشعة !

والانسان ليس فى حاجة الى « نظرية » أو فلسفة لكى يعيش حياته .. انه يعيشها فورا دون جدول أعمال .. دون مرشد سياحى .. دون نصائح .. دون منطق !

الحب مثلا .. كيف تنشغل ليلا ونهارا بشخص ؟ ويكون غيابه عنك فى قوة حضوره أمامك وربما غيابه أقوى .. والفيلسوف مارسيل يذكر أمه التى ماتت لكل الناس . ولم تمت بالنسبة له . فهى موجودة هنا وهنا وخصوصا هنا فى الخيال ..

الفتاة التى انشغل بها اسمها « رادا » .. ما هذا الذى حدث .. كيف كان اللقاء ؟ صدفة ! كيف كانت الصدفة أقوى من ألف ميعاد ؟ كيف تصادف أنه فى حاجة اليها ؟ كيف تصادف أنها كانت فى حاجة إليه ؟ كيف كان اللقاء : الصوت .. النظرة .. اللمسة .. كيف أن هذه اللمسة كانت نقطة تحول فى حياته العقلية والوجدانية .. كيف تؤدى لمسة مثل ملايين اللمسات الى كل هذا الذى حدث ؟ .. ما الذى فى « رادا » ؟ .. جميلة ؟ ملايين مثلها .. مثيرة ؟ ملايين مثلها أيضا .. ما الذى تقول وما الذى لم تقل قبل ذلك ؟ .. ما الذى يقول هو وما

الذى قاله قبل ذلك ؟ .. عيناها .. شفتاها .. شعرها .. قوامها .. ما الذى فيها ؟ ليس فيها الا الذى يحتاج اليه : هذا القلق .. هذا الخوف .. هذا اليأس .. هذا الضياع .. هذا العقاب الآلهي .. عاقبها بجمالها وعاقبها باحساسها .. عاقبها بخوفها بقلقها بفزعها .. بهذا اف لوجدانى الذى تنقل هي عدواه الى كل الناس حولها .. بركان له حمم ودخان ؟ نعم .. زلزال يهز الأرض والسماء ؟ نعم .. بؤرة سامة تنتقل فى الجسم توجع وتهدد وتخيف ؟ نعم .. هل هى أكبر دليل على أنه ليس بالعقل يعيش الانسان وليس بالمنطق تكون أجمل لحظات حياة الانسان ؟ ان الحب أكبر دليل على ان الانسان لايستطيع أن يكتفى بذاته . لا يستطيع أن يكون وحده سعيدا .. وانما بالآخرين .. بحب الآخرين .. بأكثر الآخرين قدرة على اشباع احتياجاته الفريدة الشخصية ..

وعندما يتحول الحب الى استعباد للانسان فان الانسان يرفض هذه العبودية .. وهو فى نفس الوقت لا يطيق ألا يكون عابدا عبدا .. فليس محبا من لا يتعبد .. وليس محباً من لا يلف بيديه خيوط الحب حول عنقه وينتظر الموت فيمن يحب !

ثم الموت أيضا .. أمه ماتت وهو صغير .. والناس أمام الموت مواقف . واحد يرى أن الموت طبيعي . كل انسان سوف يموت .. فليس غريبا هذا الذى قرأ عن وفاة فلان ..

وواحد يرى أن الموت نهاية طبيعية للمرض .. فالميت كان مريضا فمات . منطقى .

وواحد ينظر الى الميت على أنه نهاية ذكرى .. وانكسار حلقة فى سلسلة الوجود .. ولن يبقى من الميت إلا ذكراه . وذكراه هى السجل الباقى لافكاره وأعماله .

وواحد ينظر الى الميت على أنه اختفاء .. غياب .. ولكنه سوف يبقى فينا .. بصورته بأثره .. ولا أحد يموت لمن يحب .. فأموات المحبين ، أحياء .. بل أن الحب نفسه نوع من الموت . فالمحب يفنى فى محبوبته .. يموت فيها .. فإذا مات المحبوب . فالمحب ميت رغم انه غاب عنه .. فهو ميت حاضرا وغائبا ..

سؤال : ما الذى يجعل محبا عاشقا يقول للمحبوبة : كل الذى بيننا انتهى .. أو يجب أن ينتهى الآن . ولن أنتظر قرارك . أنا الذى سوف اقرر . فليس عندك إلا القليل الذى أريد .. جمالك .. شبابك .. حيويتك .. طعمك .. عطرك ..

ألوانك .. صوتك .. كل ذلك موجود عندى .. فقط أسوأ ما عندك هو الذى أريده وأكره : قلقك .. خوفك . وفزعك .. عدم شعورك بالأمان .. بالضبط هذا هو الذى عندى وأراه فيك وأسمعه أقوى وأعمق .. فقط عذابى هو الذى يجعلنى أحرص على عذابك لى ؟ لابد أن أبعدك عنى .. ابعدى حتى لا أراك واحدة مثل مليون .. وفى ذلك سقوط لك .. فأنت واحدة مثل أية واحدة . وهذه هى مشكلة زماننا .. ان الناس « عاديون » .. يجب أن يكونوا عاديين .. متضبطين .. فى الصف فى الطابور .. قطع غيار .. لايتفوق أحد ولا يمتاز ولايبدع ؟ ما الذى يجعل انسانا يقول ذلك للمحبوبة .. أو التى من الممكن أن تكون المحبوبة والقيمة الحقيقية للوجود ؟!

أنا أقول لك ـ والكلام للفيلسوف الوجودى جبريل مارسيل بعد استبعاد كل المصطلحات الفلسفية : أنت جميلة . أعرف ذلك . أنت مثيرة . ألمس ذلك . أنت أمنية كل رجل .. أحسد نفسى على ذلك . أنت حالة نموذجية لكل طبيب أمراض نفسية وعقلية . ويحزننى ذلك . ولكنى أرى نفسى فى نفسك . وعقلى فى عقلك . ومرضى فى مرضك .. وعينى فى عينيك وشفتى المرتجفتين فى شفتيك .. ان الذى أراه فيك بالضبط هو الذى يدعونى لأن أتركك .. أنك تضاعفين عدم شعورى بالأمان . أنك تجسدين خوفى . أنت أجمل صورة ليأسى من الناس ومن الحياة ومن فهمى لكل الذى بينك وبينى .. وبيننا وكل الناس . غيرى أحسن .. أفضل . أسلم . لقد كنت أنظر الى نفسى على أننى « مشكلة » .. ولكن بك ومعك وحرصا عليك وهربا منك لقد أصبحنا معا : اشكالية .. معضلة .. فزورة فى لغز فى علامتى استفهام وتعجب !

وفى القصص القديمة يطلب السلطان من أحد رجال حاشيته أن يقتل نفسه اظهارا للطاعة والولاء والتضحية من أجل السلطان .. فيأخذ الرجل عدة سيوف .. ويظل يقلبها .. وينتقى أكثرها حدها وأقواها وأقدرها على قطع الرقبة بسرعة .. وبسرعة يمسك السيف وينهال به على رقبته ويموت دون ألم ـ امعانا فى اظهار الوفاء والاخلاص حتى الموت !

شىء من ذلك يا سلطانة أو يا قرصانة ـ هل عرفت كم يكون الحب مجرما ؟ نعم هو كذلك . وكم يكون الحب سفاحا ؟ .. نعم هو كذلك . ولكن ما هى ضحية هذا السفاح وهذا المجرم ؟ انه هو الضحية !

* * *

وكان الفيلسوف جبريل مارسيل يعرف الموسيقى .. وعن طريق الموسيقى عرف أن هناك وسائل أخرى للتعبير غير الرسم والنحت .. وان بعض المعانى النبيلة يمكن أن يعبر عنها أجمل بالموسيقى .. وان هذه المعانى تستعصى على الاحتواء فى نقط أو فى مساحة أو بقع أو عدد من الخطوط او كتلة من الحجر أو الحديد .. وكما ان الموسيقى لا تستطيع أن تحتوى كل المعانى .. ولا يوجد رمز واحد يحتوى على كل المعانى .. والرمز هو العلامة الموسيقية أو الكلمة أو الخط أو المساحة اللونية . فكذلك الحياة كلها .. الوجود كله لا يمكن احتواؤه فى صيغة .. فى نظرية ..

ولذلك فالفيلسوف من سن مبكرة وهو لا يعرف ماذا يعبد .. وكيف يعبد أى دين .. ولكن عندما تقدمت به السن لم يجد الراحة إلا فى الايمان .. فأمن .. وفى الايمان وجد حلولا كثيرة للمشكلات العملية والوظيفية .. ووجد أن « سر » الوجود .. أو روح الوجود هو الله .. وعليه يجب أن يلقى كل موجود بهمومه ويتوكل عليه .. فالانسان وحده لا يستطيع أن يجد الحلول .. لانه هو مشكلة .. فكيف يكون مشكلة وحلالا لكل المشاكل .. ثم ان الانسان بعد ذلك لم يفهم بعد : من هو ! ولماذا هو ؟ وكيف هو ؟ واذا كان الحب مشكلة ، فالكراهية مصنع مشاكل ..

مسكين الانسان ؟ نعم .. معذب الانسان ؟ جدا .. عندك حل لكل ذلك ؟ نعم . الحب .. هل هو الحل : هو الحل الذى يلد كل يوم مشكلة تلد مشكلة .. فيقوم الحب بدور الراعى والغنم والذئب !

هل نعيد ..
قراءة الوجودية !!

يجب أن أخفف من وقع كلمة « الوجودية » على القراء مرة أخرى ..

فالوجودية هي النظرية الفلسفية والأدبية التي تهتم اهتماما بالغا بمعنى وجود الانسان .. أى بمعنى ان يكون الانسان موجودا .. أى يكون واعيا لوجوده .. وأن يكون انسانا .

ولكى يكون انسانا يجب أن يكون حرا .. وأن يكون حرا معناه أن يكون مسئولا عن كل قرار ورأى يتخذه لنفسه ولغيره من الناس .

وقد يبدو هذا كلاما عاديا ..

ولكن عندما يؤكد الانسان لنفسه انه انسان ، وانه لذلك حر .. فلابد ان يكون هناك سبب قوى يجعله يؤكد هذه المعانى ..

أما السبب القوى فهو ان هذه الفلسفة الوجودية قد ظهرت فى أعقاب الانهيارات النفسية والقومية .. بعد الحرب السبعينية وبعد الحرب العالمية الأولى والثانية وبعد الحروب العربية الاسرائيلية ..

■ ففى أعقاب هذه الحروب أحس الانسان ان كرامته أهدرت .. انه لم يعد حرا ، ولا قادرا على ذلك .. فقد انهارت كل المثل العليا للحياة الاجتماعية والسياسية والعسكرية والاخلاقية .. فعلى أنقاض هذه الانهيارات راح يقيم لنفسه بيوتا وأكواخا صغيرة .. وكهوفا أيضا مثل البارات والحانات والنوادى الليلية .. أو انه لم يعد قادرا على ان يبنى ما انهدم .. ولذلك قرر ان يبقى انقاضا تعيش على انقاض ..

اذن هذه النظرية الوجودية جمعت خيوطها والوانها واحجامها واوزانها من انقاض كل الاحلام الجميلة التى صنعها الانسان لنفسه . فى الفلسفة وفى الأدب وفى الفن .

فكانت هذه الفلسفة مثل قوس قزح الذى يلمع كلما ازداد - السحاب سوادا وقتامة ..

فهى اولا تعبر عن الحاضر الأليم ..

وهى ثانيا تحاول ان تتجاوز هذا الحاضر وذلك بوصف الحاضر وتحليله واعطائه الشرعية الواقعية .. اى تهوينه على الناس .. او بان تجمله وتزفه للناس .. كأنه شيء جديد .. لعل الناس يتقبلونه ويتقبلون انفسهم ايضا .. فهو نوع من زفاف الحاضر بملابسه وموسيقاه .. ثم دفنه بعد ذلك .. تماما كما كان الفراعنة يفعلون فى اعياد « وفاء النيل » يجملون فتاة صغيرة ويزفونها للنيل .. بالقائها فى احضانه لعله يفيض سعادة على الناس .. فقد اعطوه بعضهم ، ليعطيهم كله .. فهم اذن يجملونها بقصد القضاء عليها .. وهذا هو جوهر المسرح .. فالمسرح يعرض للناس حال الناس .. ويضحكهم على انفسهم أو يبكيهم .. ومن هذا التاثير القوى على الناس يتخلص الناس من عيوب الناس .. وهذا هو الذى يسمى فى المسرح بالتطهير .. اى تطهير الناس من عيوبهم بتصويرها لهم .. والمبالغة فيها .. فيشعر المتفرج بالخجل امامها .. وفى الوقت نفسه يشعر الناس بانهم اقوى من الالم .. وبهذا الشعور يتجاوز الناس عيوبهم ويتخطونها .. فكأن الفن يجمل العيون املا فى القضاء عليها ..

وكذلك فعلت الوجودية فى أعقاب الكوارث الانسانية : عبرت عنها وعبرتها ايضا . عبرت عن عذاب الانسان ، وعبرت بالانسان فوق الالم ..

* * *

وكان ذلك أقوى ما يكون بعد الحرب العالمية الثانية ..

فى ألمانيا ظهرت اصول الفلسفات المعاصرة كلها .. المثالية والماركسية والظاهريات والوجودية ..

والفلسفة الوجودية ظهرت فى ألمانيا .. التى اشعلت معظم الحروب الاوروبية ، فكان عليها ان توضح ماذا حدث .. وماذا اصاب الناس فى ألمانيا وفى فرنسا وفى ايطاليا واسبانيا وروسيا .. وفى مصر ايضا ..

وانتقلت الوجودية إلينا فى مصر وعندما جاءت كنا طلبة صغارا . بهرتنا معانيها ومراجيها .. واختلفنا حولها . فذهب بعضنا الى اقصى اليسار ، وبعضنا الى اقصى اليمين .. وبعضنا آثر ان يتوقف فى الوسط يعلق الحكم على كل شيء ..

فلم تكن معانيها واضحة لدينا تماما . واشياء اخرى كثيرة لم تكن مفهومة ولا كنا قادرين على الاحاطة بها ..

والفضل فى الدعوة الى الوجودية يرجع الى د . عبد الرحمن بدوى استاذنا فى ذلك الوقت .. فهو الذى قدم الفلسفة الوجودية الالمانية وهو الذى ترجم كل مفرداتها الصعبة .. وراح ينحت لها الكلمات ، أو يجد لها مرادفات فى الفلسفة الاسلامية القديمة ..

وهذه الفلسفة الوجودية التى درسناها فى اواخر الاربعينات ودرسناها فى الجامعة فى الخمسينات والستينات ، كانت أنسب النظريات المعاصرة فى التعبير عن الحيرة التى غشيتنا واستغرقتنا واغرقتنا ، وقد صورت هذه الحيرة والقلق حيرتى وقلقى وجيلى كله فى بعض كتبى : وداعا أيها الملل ..

طلع البدر علينا ..

فى صالون العقاد ..

والإ قليلا ..

فكتابى عن العقاد ، كان فى الحقيقة عنى وعن جيلى فى مواجهة العقاد وطه حسين والحكيم ولطفى السيد وسلامه موسى وغيرهم .. واذكر ان الاستاذ الحكيم كان يكتب مذكراته فى مجلة « اكتوبر » التى انشأتها ورأست تحريرها .. وفى الوقت نفسه بدأت اكتب فى حلقات صالون العقاد ـ وفوجئت به قد توقف عن نشر مذكراته . ولما سألته قال : لقد أضحكتنى على نفسى .. فانا اعبث واداعب القراء .. وانت تسجل اعماق العذاب والقلق فى جيلك .. انت جاد وانا هازل .. العقاد عملاق وانا بهلوان !!

ولم أفلح فى اقناعه بان يعود الى الكتابة حتى مات !

وعلى الرغم من ان الاستاذ العقاد قد هاجم الفلسفة الوجودية .. وسخر كثيرا منى ومن غيرى من الأدباء الوجوديين .. فلم نغضب منه . فهو أستاذنا وله مدرسة فى النقد والأدب والفلسفة مختلفة . وليس من الضرورى ان نكون من مدرسة واحدة .. ولم نتفق .

واصدرت أول كتاب لى عن الفلسفة الوجودية فى سنة ١٩٥٠ . وقبل هذا الكتاب اصدرت عددا كاملا من مجلة « الرسالة الجديدة » التى كان يرأس تحريرها الاستاذ يوسف السباعى . ونفد هذا الكتاب فى ساعات .. اكثر من خمسين الف نسخة . فقد جاء كتابى هذا ، تبسيطا شديدا للنظرية الوجودية

عند الفلاسفة الالمان والفرنسيين والاسبان والايطاليين والروس ..

وفى ذلك الوقت كان المثقفون ينظرون الى الوجودية على أنها « موضة » أو تقليعة ..

ولما جاءت المطربة الفرنسية جولييت جريكو الى القاهرة ، ورأى الناس انها ترتدى الملابس السوداء وتنكش شعرها وتشرب وترقص وتدخن وصوتها غليظ ظنوا ان هذه هى الوجودية فاصبحت ملابسها وشعرها موضة بنات الذوات .. وساعدهم على ذلك العديد من الشخصيات التى ظهرت فى روايات ومسرحيات الفلاسفة الوجوديين الفرنسيين : جان بول سارتر وسيمون دى بوفوار والبيركامى وجبريل مارسيل والفيلسوف الاسبانى أونا مونو .. والنماذج الادبية التى اختارها عميد الفلسفة الوجودية الالمانية : مارتن هيدجر .. والتى ظهرت فى روايات الأديب البرتو مورافيا ..

ولكن النماذج ظهرت فى أعقاب الحرب .. فكما أن هناك بيوتا قد انهدمت فهناك عقولا وقلوبا أيضا .. وكما أن اللون الاسود هو الذى يعقب الغارات الجوية والحرائق ، فكذلك الظلم والظلام واليأس والرغبة فى الموت والخوف اللذين يلازمان كل المحاربين القدماء والمشوهين والأسرى والجرحى واليتامى والأيامى والأرامل .. فهى - إذن - ليست دعوة لأن يكون الناس كذلك .. ولا أن تكون البيوت والقرى والمدن .. وانما هو تصوير عميق لما حدث ، أملا فى ألا يحدث .. وأملا فى تعميق الشعور بالذنب والخطيئة ، فلا تشتعل حرب .. وحتى لا يموت عشرات الملايين وتتشوه مئات الملايين جسميا ونفسيا .

فنحن لا نصف طبيبا بأنه انهزامى لأنه لا يلتقى إلا بالمرضى والمتوجعين والباكين .

ولا نقول للقمر وللنجوم فى السماء أنها تريد الليل ان يستمر حتى تظل لامعة متألقة .

يقول مصطفى صادق الرافعى :

يامن على البعد ينسانا ونذكره

لسوف تذكرنا يوما وننساكا

إن الظلام الذى يجلوك ياقمر

له صباح متى تدركه أخفاكا

وفى بريطانيا وامريكا اتخذ التعبير عن الالم شكلا آخر ـ وان كانت كل هذه الاشكال الادبية « تسقى من ماء واحد » ـ هو كرامة الانسان أو اهدار كرامة الانسان .. فالانسان كرامة . وإذا اهدر الانسان فلا كرامة له .. ولكن لأنه انسان فهو لن يقبل الظلم . وهو من اجل ذلك يقيد حريته من أجل ـ أن يحصل على مزيد من الحرية كالذى يحرم نفسه من الطعام ليزداد رشاقة وقدرة على الحركة .. فهو يجوع ليصح ..

فالتاريخ الانسانى كله ليس الا مسرحا للحرية .. أى لنشدان الحرية فالانسان حريص على ان يضاعف نصيبه من التحرر .. التحرر من الخوف ومن الجوع والظلم والجهل والمرض . فالانسان هو الحيوان الوحيد الذى له تاريخ .. لأنه الوحيد الذى له حرية .. والانسان يجلس على تاريخه كما يجلس الكانجرو على ذيله .. وتاريخه هو حريته .. ومزيد من حريته ..

ففى بريطانيا ظهرت مدرسة ادبية هى فرع على شجرة الوجودية اسمها مدرسة « الشبان الساخطين ».. وهذه المدرسة ترفع شعارا : ان الانسان هو الحيوان الغاضب من نفسه ومن أجلها .. فهو يغضب من ضعفه ومن عزلته ومن قهره ، حتى يكون اقوى واكثر مسئولية واسمى كرامة .. أما الوحوش التى تلتهم الانسان فهى المؤسسات والهيئات والمنظمات والشركات .. انها الوحش الذى يبتلع حرية الانسان .. وفرديته ..

وهذه المؤسسات هى « الحوت » الذى ابتلع يونس عليه السلام .. ابتلعه ولم يقتله .. ولم يقض على لحمه وشحمه ودمه .. فالله سبحانه قد انقذ يونس عليه السلام .. وقد أنقذه لأن يونس قد نادى ربه .. أى اختار القيم والمبادىء الرفيعة .. فهى طوق النجاة الذى أنجاه من الموت ومن الماء الى الشاطىء وهى المظلة الواقية التى هبطت به الى الارض سالما .. وفى القرآن الكريم « وذا النون إذ ذهب مغاضبا فظن أن لن نقدر عليه ، فنادى فى الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين . فاستجبنا له ونجيناه من الغم وكذلك ننجى المؤمنين » .

ولكن الشبان الغاضبين الساخطين طلبوا النجاة . ولكن لا نجاة .. ولا عاصم اليوم من أمر ربى .. فطوفان المشاكل الانسانية والسياسية والاقتصادية التى اجتاحت العالم كله ، من الصعب ان ننجو منها بطوق أو مظلة أو فى بطن الحوت ..

وفى امريكا ظهر شبان آخرون اتخذوا لهم اسما آخر هو « الشبان الصاخبون » وكانت ثورة الأدباء الامريكان أساسها : أن الفرد ضائع فى الدولة العظمى الغنية فهو ليس إلا مسماراً صغيراً فى آلة جبارة .. لابد أن ينضبط وأن يرتبط .. وأن يكون عضوا له رقم وخانة ودوسيه وملف فى هيئة ما .. واذا لم يفعل مات جوعا وهوانا .. فهو وحده لاشيء .. وهو فى مؤسسة ما شيء ما .. فالمجتمع جهاز قوى والفرد ليس إلا قطعة غيار .. والحياة للجهاز وللشركة والمؤسسة ، أما الفرد فهو يجيء ضمنا .. وكل إنسان قطعة غيار ، تظل فى موقعها مادامت تؤدى دوراً فإذا عجزت عن هذا الدور اتوا بقطعة غيار اخرى .. ولذلك كانت ثورة الادباء على هذه الميكانيكية والآلية .. وعلى أن يكون الانسان لا إنساناً .. وأن يقبل ذلك والا مات جوعا .. فلكى يعيش لابد ان ينكر ذاته .. وألا يكون انسانا ..

وعرفت اوروبا وآسيا وامريكا اشكالا والوانا من الاحتجاج على القديم المستمر فكانت الخنافس وغيرها من الاسماء الاخرى .. التى احتجت على السلوك والزى التقليدى .. وانا اول من اطلق كلمة الخنافس هذه فى الستينات . وهى ترجمة خاطئة وقعت فيها .. ولكن حاولت أن اصلحها بعد ذلك فلم افلح .. وظهرت موسيقى واغانى الخنافس التى كانت احتجاجا على سيطرة الموسيقى الامريكية على اوروبا وظهرت الفساتين فوق الركبة وانتشرت من بريطانيا الى العالم كله ، وكان ذلك احتجاجا على سيطرة فرنسا على الاناقة فى العالم ..

وكانت لى جلسات طويلة مع الأديب السويسرى ديرنمات ..

والأديب الايطالى مورافيا ..

والفيلسوف الالمانى هيدجر .. فما وجدت أنا أيضا تفسيرا مريحا ، ولا حلا عاجلا لما كنا فيه فى مصر ـ اننى اتحدث عن شباب المفكرين والادباء .. وكانت الردود كأنها تقول : احمدوا ربنا على ما انتم فيه .. يكفى انكم تشعرون وتقلقون وتعبرون .. وعندكم أمل فى الحل ..

وتحيرنا بين المذاهب فى الفلسفة وفى الادب وفى الدين .. وتحيرنا بحثا عن وجهة .. وعن طريق .. وطال البحث وتعددت الطرق ، وسرنا كل واحد فى طريق ..

وتعذبنا عذاب الملك الاسطورى تنتالوس .. ذلك الملك الغنى العظيم الذى احبته آلهة الاغريق .. غير انه ضاق بالآلهة فقد وجدها سعيدة ـ بتعذيبها

للانسان ـ وهو انسان . فراح يفشي اسرار الالهة الى الانسان لعل الانسان أن يقف في وجهها وان يكون كريما على نفسه .. وان يكون قادرا على أن يتحرر من ربقة القيود الجامدة لآلهة الاغريق أو من ضعفه وعجزه وعمره ـ المحدود .. فانتقم من الآلهة .. وكان انتقام الالهة أشنع وأبشع فقد وضعوه في نهر من انهار جهنم .. وكلما ارتفع الماء الى شفتيه وحاول أن يبل ريقه ، انحسر الماء الى قدميه .. فاذا رفع رأسه تدلى غصن شجرة تفاح ولامست التفاحة شفتيه فاذا حاول أن يأكلها ارتفعت التفاحة بعيدا .. فاذا اغمض عينيه جاء حجر كبير يهدر من قمة الجبل وينحط بسرعة هائلة وسط دوى عظيم ويقف فجأة ملامسا لشعر رأسه .. ويعود الماء والتفاح والأحجار .. والى الأبد .. وكذلك حاول الانسان أن يعرف سر ضعفه وسر قوته .. حاول ـ وظهرت عشرات الاجتهادات .. ومد يده ولم يجد شيئا يريح العين والأذن والعقل والقلب .. فكل شيء عنده ، وكأن شيئا ليس عنده .. وسط الماء ولا يشرب ، تحت الثمار ولا يأكل ، في مهب الصخور ولا يهدأ ..

ووقف الانسان حائرا عاجزا ..

يقول الفيلسوف الوجودى هيدجر وهو يصف حيرته وصبره الطويل أمام الحقيقة : لقد وقفت حانى الرأس أمام سيدتي ، وانتظرت ان تجود على بشيء فلم تفعل !

فالناس امام الحقيقة ثلاثة :

واحد ينتمي اليها ..

وواحد لا ينتمي ..

وواحد يدور حول نفسه .. حتى لا يرى ولا يسمع ولا يفكر .. او يهرب منها أو يغيب عنها ..

أو بعبارة اخرى : ان الانسان في مواجهة اية مشكلة :

اما ان يدخل فيها

واما أن يخرج منها

واما ان يتسلل اليها

والناس إما مع الجديد .. وإما ضد الجديد وإما يتسللون لصوصا اليه .. أو إما يتقدمون الحقيقة .. وإما يسيرون الى جوارها .. واما يمشون وراءها ..

المهم ان تظل الحقيقة على مرأى ومسمع منهم ، لا يتجاهلونها ، وانما

يحاولون ان يروها من زوايا مختلفة . لعلهم ان يفهموا ويحللوا . فاذا عرفوا قالوا .. واذا قالوا عرفناهم ..

وكان الفيلسوف العظيم سقراط اذا وجد واحدا من تلاميذه لا يسأل ولا يتكلم قال له : تكلم حتى أراك !

فالذى له رأى له رؤية !

فالرأى والرؤية والنظرة والنظرية بمعنى واحد ..

* * *

ويضيع من قدمى الطريق - قالها الشاعر كامل الشناوى ..

والشعراء أسبقنا الى الحس العميق والمعنى الجميل ..

وقد ضاعت من اقدامنا الطريق .. وضاعت اقدامنا ايضا ..

وسادنا شعور بانه لا معنى لشىء ولا قيمة ولا هدف ولا أمل فى أحد أو شىء وهذه جميعا مفردات لمعنى كلمة فلسفية واحدة هى : العبث .. فالعبث ليس هو اللعب ..

لان اللعب له قواعد .. فكرة القدم لعب .. لها قواعد وأصول واجتهادات ولها قضاة والجمهور هم المحلفون .. ومباريات كرة القدم هى محاكمات علنية وهى لعب .. ولكنه له قواعد ونظريات وتاريخ ككل الفنون الجادة ..

أما العبث فمعناه الفلسفى : ألا يكون هناك معنى لشىء .. ألا تكون قاعدة .. وألا تكون جدوى لشىء أو من شىء ..

وانتقل الينا العبث من المسارح الفرنسية بصفة خاصة ..

فالمسرح الفرنسى عندما عرض عشرات من مسرحيات العبث .. كان يقصد أنهم فى فرنسا قد فقدوا الامل فى أى شىء .. فالناس ينتظرون فى المحطات ولكن قطارا لا يجىء .. ينتظرون الرحمة ، ولكن أحدا لا يرحم .. والالفاظ فى القواميس تنتظر المعانى ، والمعانى قد رحلت .. ومادامت الالفاظ بلا معنى فلا لغة .. ولا تعبير .. لان التعبير معناه أن أجعل المعنى يعبر منى اليك فالتعبير والعبور بمعنى واحد .. ومادمنا لم نتفق على معنى كلمة واحدة ، فاننى لا أستطيع أن انقلها اليك .. فلا لغة .. ولا حوار .. ولذلك جاءت مسرحيات العبث تضم اناسا يتكلمون ويسمعون بعضهم البعض .. ولكنهم يكلمون انفسهم على مسمع من الآخرين ..

وظهرت مسرحية « ياطالع الشجرة » لتوفيق الحكيم .

وكما سخر الاستاذ العقاد من الوجودية .. سخر طه حسين من مسرح العبث .. فقال لى طه حسين : ان توفيق الحكيم لم يأت بجديد .. فالأدب الفرنسي عرف شعراء مثل فيرلين ولوتريامون ورامبو .. وهم جميعاً كانوا يهذون بكلام له وزن وقافية وهو هذيان موسيقى .. وكذلك توفيق الحكيم :

وبقى العقاد وطه حسين فى ابراجهما العالية التقليدية .. أما توفيق الحكيم فكان معاصرا ، وكان اسرعهم تعبيرا عن الواقع المصرى بعد الهزيمة العسكرية التى عصفت بامال واحلام الناس .. وكأنها سحبت الغطاء الذهبى لكل عملاتهم ومعاملاتهم .. ففلوسهم ورق .. وثراؤهم افلاس .. مادى وروحى !

وكان العبث المسرحي فى الستينات حزينا مؤلما قاتما .. فالاشخاص على المسرح غاية الحزن والهم والغم .. يحدثون انفسهم ولا احد يرد ولا احد يسمع .

فالذى يقولون لا معنى له ..

والذين يسمعون لا يفعلون شيئا . فقط يرون حالهم ويزدادون حزنا على ما اصابهم .. مرة خارج المسرح .. ومرة اخرى فى المسرح ..

ويشعرون كأنهم على باب جهنم التى وصفها لنا الشاعر الايطالى دانتى .. فكتب على بابها هذه العبارة : ايها الداخلون اتركوا وراءكم اى امل فى النجاة ..

وكأن هذه العبارة كانت منقوشة على باب كل مسرح وكل بيت وكل ضمير ..!

ولكن انتقلنا فى السبعينات والثمانينات الى نوع آخر من « العبث ».. انه العبث الضاحك فكل المسارح تضحك على المتفرجين .. وهى فى الوقت نفسه تضحك على نفسها .. عندما تفضح عيوبنا محكومين وحاكمين .. وتتسابق المسارح فى المبالغة فى عيوب المتفرجين .. والمتفرجون راضون عن كل ذلك .. فهم يسمعون ويضحكون . ولكنهم لا يذهبون الى ابعد من ذلك .. اى ان الذى يسمعونه لا جدوى منه .. لا فائدة .. وكأنه كلام بلا معنى .. وكأنه ليس مطلوبا من احد ان يعمل شيئا فكأنه لا سمع ولا رأى .. او كأنه عندما سمع ورأى لم يفهم ..

فكأننا فى العشرين عاما الماضية اتفقنا على أن نذهب الى المسارح فى حالة اغماء شديد .. فالذى يبكينا كالذى يضحكنا .. كلاهما عاجز عن ان يجعلنا نفعل ماهو اكثر من ذلك فى اصلاح حالنا ..

وفى العبث الحزين والعبث الضاحك يتعذب المتفرج بالبكاء على نفسه وبالسخرية منها .. فهو فى الحالتين قد بالغ فى إهانة الانسان .. وكرامة الانسان واغراق المشاهد فى دموعه ، باكيا أو ضاحكا ..

وقد طال بكاء الانسان على نفسه ، وطال أيضا احتقاره لها ..

ولابد من أن يتوقف وأن يلتفت الى نفسه والى الذين حوله .. وان يتدارك نفسه .. وأن ينتشل نفسه من أساه ومن هوانه ومن بهلوانيته ..

والا طال هذا الحال .. وتجمدنا .. وتقدمتنا الدنيا كلها ..

وعند الجرمان أسطورة تانهويسر الذى عاش فى احضان الآلهة فينوس طويلا وانشغل عن اداء ما طلبته الآلهة منه .. وطال سهره وسكره ولهوه . وضاق بنفسه واستشرى فيه الملل .. فخرج الى سطح الارض يطلب العفو من البابا .. ولكن البابا قال له : لن اغفر لك الا اذا ازهرت هذه العصا التى فى يدى !

ونظر تانهويسر الى عصا البابا الذهبية المرصعة بالماس ورأى ان هذا هو المستحيل .. ولكن بعد يومين ظهرت الزهور فى عصا البابا .. معجزة .. فجعل البابا يبحث عنه .. ولكن اليأس كان قد أعاد تانهويسر الى حيث كان .. الى مباذله فى أحضان فينوس تحت الأرض!

فلابد أن نصدر عفواً عن انفسنا وان نتسامح وبسرعة حتى لا نعود الى ماكنا فيه .. او نبقى على ما نحن عليه ..

وهذا العفو هو رد اعتبار الانسان لنفسه وبيده وبقلمه وباغانيه ومسارحه وكان توفيق الحكيم ينظر وراءه فى غضب وأمامه فى يأس ..

اما الغضب فنعم . وأما اليأس فلا ..

فى سنة ١٨١٨ ظهر فى المانيا كتاب للفيلسوف الالمانى شوبنهور . الكتاب اسمه « العالم كارادة وفكرة ».. والفيلسوف فى هذا الكتاب يحتقر ايمان الانسان بالتقدم .. فهو يرى ان الانسان حيوان يحاول أن ينسى أنه حيوان .. وأن غريزة الحياة قد سخرته من أجل أن تمتد الحياة .. فلا حب ولا كرامة .. وانما جنس يدفع الذكور لان تخدع الاناث من أجل أن يجىء الاطفال باسم الحب وتمتد الحياة .. هذا كل ما هناك !

وعندما أعطى الفيلسوف كتابه هذا لأمير شعراء الألمان جيته ، وأعاده فى اليوم التالى قائلا له : اذا اردت ان تجعل للدنيا قيمة ، فاجعل لنفسك قيمة !

والشاعر يقول :
ومن لا يكرم نفسه لا يكرم .
فان لم نسترد كرامتنا بايدينا وباحلامنا واقلامنا وافلامنا ، سوف نظل هكذا .. موتى بلا قبور ..
وقد كان المزاج العام فى أوروبا فى أوائل القرن التاسع عشر حزينا كئيبا فانتحر ادباء وشعراء أو ماتوا وهم يحلمون بذلك :
شيلى وبيرون وكيتس ونوفاليس وتيك وارمنتوف وليوبردى وبوشكين .. ولكن الحضارة الغربية بما فيها من حيوية وقوة ابداعية ، انتشلت نفسها بنفسها باصابع العباقرة من ابنائها : هيجو وهينة وابسن وذكنز وتولستوى ودستويفسكى وداروين وغيرهم ..
فلم يطل عذاب الضمير الاوروبى .. ولكن بسرعة شخصوا الداء ووجدوا الدواء استعدادا لمغامرات فكرية وسياسية وعسكرية وعلمية جديدة ..
ولكن داءنا نحن طال واستشرى واستقر .. والذى يبكينا بالامس هو نفسه الذى يضحكنا اليوم ..
وأذا كانت الوجودية قد أسرفت فى الكلام عن الفردية والحرية والقلق والموت فلأن هذه المبالغة دليل على عمق هذه المعانى .. ودليل على احساسنا بخطورتها على مسيرتنا .. وعلى افتقادنا لكل ما يضىء ويريح .. افتقادنا الى الحرية والفردية والى الحل والى الطريق .. والى ان نجد أنفسنا والى اقدامنا وان نجد الطريق تحتها والهدف فى النهاية ..
فكلما اكثرنا من الحديث عن الحرية والفردية ، كان ذلك دليلا على حاجتنا اليها وخوفنا على القليل منها الا يكون ، واملا فى الكثير منها ان يحقق لنا وبنا وجودنا الانسانى ..
وعندما قيل للأديب الانجليزى برنارد شو : انك تتحدث كثيرا عن المال بينما يتحدث صديقك هـ . ج ويلز عن الاخلاق ، أجاب كل واحد منا يتحدث عن الذى ينقصه !..
فنحن نتحدث كثيرا وطويلا وعميقا عن الذى ينقصنا ..
وفى الاساطير الاغريقية ان الفتاة اريان قد انقذت حبيبها من المتاهة بان امسكت خيطا وتبعها الى خارج الوف الحجرات .. الى الحرية ..
ولم يعد ينقصنا الا ان نجد هذا الخيط .. وأن يصح العزم وتصدق الرغبة فى

النجاة من اليأس ومن فقدان الامل فى الخروج .

اننا فى مصر نحاول أن نملأ أيدى الشباب بتراب مصر .. بواقع مصر فنعطى كل اسرة شابة مساحة من الارض .. موقعا على خريطة الوطن .. قطعة من الواقع .. قطعة من الملكية .. قطعة من الكرامة .. قطعة من الوجود .. ولكن قبل هذه المساحة من الواقع يجب أن نؤكد لكل شاب أن الاصابع التى يمسك بها أرضه ، هى اصابعه هو .. وأن ذراعه هى ذراعه هو .. وأن الذى يملكه حق له .. فليست الارض هى التى تملكه .. ولكنه هو الذى يملك الأرض .. فهى أرضه وهى عرضه ايضا .. ونحن بذلك نعالج مشكلة جوهرية فى مصر .. فقد جاء علينا حين من الدهر كان فيه الذين لا يملكون هم الذين يدافعون ويحاربون ويموتون عن الذين يملكون .. فنحن الآن نريد للكل أن يملك ، وللكل ان يدافع عن الذى يملكه من ارضه ومن وطنه ومن شرفه الذى هو رأسماله .. وفى الوقت نفسه مبرر هذا الوجود ..

فلننظر وراءنا فى غضب .. فليكن .. فقد كان فى ماضينا ما يستوجب الغضب عليه وعلينا .. ولكن بعد أن عرفنا ماذا حدث وكيف .. يجب أن نرفع الجلسة التاريخية .. ونغلق الملفات القديمة .. وأن نوقف الماضى عند حده .. حتى لا يزحف على حاضرنا كما تزحف الصحراء على الأرض المزروعة ..

وان ننظر الى الامام فى أمل ..

ففى ايدينا وفى عيوننا ما يستحق ان نسعد به .. وان نحرص عليه .. وفى هذه الدنيا دول أدمنت المستقبل : امريكا وروسيا واليابان ولذلك تقدمت كثيرا وتفوقت .. ولا نعرف حدودا فى انطلاقها الصاروخى الى الغد .. والى الكواكب الاخرى ..

واتخذ الماضى صورا فنية واستقر فى المتاحف .. اما المستقبل فله قلاع أخرى هى المصانع والمعامل والحقول .. وهى البيوت الشابة وهى الاسواق والمنافسة المتجددة ..

وكما ننظر الى طفولتنا ونبتسم فكذلك يجب ان ننظر الى ماضينا .. لقد انتهى وتحولت الوانه الصارخة الى الوان باهتة ، أو لابد ان تكون .

ويجب ان نتواصى بان نترفق بانفسنا وان نحترمها وان نقيل انفسنا من عثراتنا .. والا ننظر وراءنا طويلا فيصيبنا ما اصاب زوجة لوط عليه السلام ..

حذروها الا تنظر وراءها ولكنها نظرت فتحولت الى تمثال من الملح .. كما تحدثنا التوراة ..

أو ما حدث للبطل الاسطورى اورفيوس .. فقد ماتت زوجته بلدغة ثعبان فراح يتوسل الى الالهة ان يراها .. فوعدوه وكان لهم شرط الا ينظر وراءه حتى يخرجا من تحت الارض .. ولكنه لم يستطع فنظر وراءه فاختفت الزوجة ..

أنها دعوة للأدب والفلسفة والدين أن نقدم العون لننقذ جيلا من جيل، ونستخرج الحياة من هذا الموت .. والمستقبل من براثن الماضى .. ولنتوقف عن التهام شبابنا وقوداً لماضينا .. وقد آن الأوان .. اليوم وليس غدا ..

يا أستاذ : اعطها
آخر خيط حرير !

عندما استوقفوا الاديب اوسكار وايلد فى جمارك نيويورك سألوه : هل معك شيء ممنوع ؟

قال : نعم . عبقريتى !

* * *

إن الشعوب تغفر للانسان أى شيء إلا أن يكون عبقريا !

* * *

اكبر دليل على وجود عبقرى ، ان ترى الناس جميعا تقف ضده !

* * *

قال الفيلسوف ارسطو : عبقرى ؟ إذن لابد أن يكون به شيء من الجنون !

* * *

تصور رأس انسان وضع على كتفى فأر ، كيف يتوازن ؟!

* * *

من الذى يحاكم العبقرى؟ من هو ؟ وبأى قانون .. وما اسم هذه المحكمة وفى أى عصر .. وما تهمته ؟

* * *

إذا كنت أمام حيوان يمشى على ساقين ، ويطير بجناحين ، ويغوص فى الماء .. ويبتلع الشمس فى الصباح ، والقمر فى المساء ، ثم يجلس ليعبر عن كل ذلك ـ فما اسم هذا الكائن !

* * *

تريدين أن تحبى عبقريا ؟ إنها غلطتك .. كيف تمسكين الاشعة بأظافرك ،

وكيف تحسين العواصف فى قلبك .. وكيف تضعين المحيطات فى معدتك ثم لا تقولين : آه .. ليست غلطتك .. وانما هو قدرك !

* * *

على باب أحد الاديرة وقف الفيلسوف النمساوى فتجنشتين يستمع إلى إحدى الراهبات ..

قالت : أحبك ياأستاذ !

قال : أنت لا تعرفين ما تقولين ياآنسة .. يكفى أن تحبى انسانا لتغلطى فى فهمه !

قالت : فهمتك أولا ثم أحببتك ياأستاذ !

قال : الذى يفهم لا يحب . والذى يحب لا يفهم ياآنسة !

قالت : أنت الذى تقول ذلك ؟ ولكننى أرى غير ما ترى ياأستاذ .. أنت ترى أنك شخص لا يطاق ولا يحبه أحد .. أنت الذى تقول .. وأنا أرى غير ذلك .. أنت لا ترى وجهك .. وجهك .. أعماق المحيط . عيناك .. اشعة النجوم .. شعرك .. حدائق الكرز .. شفتاك .. انت الكمال ياأستاذ ..

قال : الكمال هو كل شىء خلقه الله ياآنسة .. الذبابة كمال الله .. والبرغوث كمال الله .. والجبال كمال الله .. وأنت كمال الله أما أنا فليست لى ميزة ياآنسة ..

قالت : أنت الذى تقول ذلك ؟!.. أستطيع أن أعيش من غيرك ياأستاذ ..

قال : وأنا مثلك ياآنسة لا استطيع أن أعيش من غيرى !

قال : ما الذى يغرى راهبة ؟

قالت : كل ما حرم الله !

قال : الله حرم عليك إنسانيتى .. وحرم ملائكيتك ايضا .

قالت : لا تخف ياأستاذ .

قال : بل أخاف عليك .

قالت : منك ؟

قال : أخاف عليك منك !

قالت : إن هذا الخوف هو الذى يغرينى .. يغرينى أن أظل فى حالة من الخوف .. خوف القمم والسقوط منها .. خوف الاعماق والموت تحتها .. خوف النار والاحتراق بها .. اننى وقود العبقرية ياأستاذ .. والنساء اشكال والوان

من الوقود .. هذه خشب وهذه بنزين .. وهذه أشعة .. وكلها فى النار .. انا الفضيلة .. أنا اعظم : لا .. وانت العبقرية .. انت أعظم : نعم .. ماذا تقول ياأستاذ ؟

قال : انا لا اقول بمثل هذه السرعة وبهذا الجمال .. انا احتاج الى بعض الوقت .. فطواحين الفكر عندى بطيئة .. وهى تطحنى ان لم تجد ما تحطنه .. فافكارى مثل الدقيق .. مطحونة .. مثل نشارة الخشب مسحوقة .. اما انت فافكارك مثل زهور الغابة .. مثل اسماك البحر .. مثل نجوم السماء .. انا احسدك على هذه النعمة .. على نعمة الحياة .. أنت فى غاية الحيوية وكل ما حولك يفيض بالحياة .. انا ميت .. وكل ما حولى قطع من الحجارة والزجاج والجليد .. انت تلدين الافكار وانا احنطها تمهيدا لدفنها .. هناك شىء واحد يجمع بيننا ..

قالت : ماهو؟ أرجوك قل لى بسرعة ياأستاذ ..

قال : انت مختلفة عن كل النساء .. وانا مختلف عن كل الرجال .. نحن نموذجان للعاجزين عن الحياة وحدهم .. وعن الحياة معا .. اغلقى الباب .

قالت : لا يوجد باب .. نحن نقف على الشاطىء عند اطراف غابة .. لا باب ولا شباك لهذا العذاب ..

قال : سعادتى فى هذا العذاب !

قالت : وعذابى فى هذه السعادة !

* * *

هذا هو الفيلسوف النمساوى لودفيج فتجنشتين ليس له نظير بين الفلاسفة ، افكاره جديدة . فهو قد الف نظريتين فى الفلسفة والمنطق .. أحداهما ترفض الأخرى .. وكان على الفلاسفة بعد ذلك ان يعقدوا صلحا بين النظريتين ..

ابوه رجل غنى جدا . وورث منه الكثير . ثم تخلص من هذا الكثير حتى يصادقه الناس لشخصه وليس لماله .. وتعذر عليه بعد ذلك ان يجد الصديق أو يجد المال ..

كان يترك القصور ويأوى الى الشاطىء بين الصخور .. يريد ان يعيش فى عزلة وان يفكر وحده ... حتى مرض .. ثم عاد يهرب من الحياة فى بريطانيا التى عاش فيها معظم حياته ، الى النرويج .. ليعيش وحيدا .. ثم يعود الى لندن ..

ابوه موسيقار الى جانب انه صاحب مصانع للحديد والصلب ، وامه ايضا .

وهو كان يستخدم الكلارينيت فى التأليف والاداء . وكان بارعا لدرجة ان بعض السمفونيات كان يؤديها عن طريق النفخ فى الكلارينيت ..

وكان يعيش فى احد الاديرة عندما تلقى خطابا من احدى اخواته تطلب اليه ان يبنى لها قصرا فى فيينا .. فاقام لها قصرا تحفه فى الجمال .. قال احد المؤرخين : ان هذا القصر يشبه نظرياته الفلسفية فى الوضوح والقوة والجمال والبساطة ..

لم يذهب الى المدرسة الا فى الرابعة عشرة من عمره .. تعلم فى البيت وكان يريد ان يتعلم الهندسة الميكانيكية .. اكمل تعليمه فى برلين .. ثم سافر الى بريطانيا ليكون مهندسا ميكانيكيا . ولكنه انشغل طول الوقت بالتفكير الفلسفى .. ودلالة هذه الالفاظ التى تستخدمها . وكيف نستخدمها . ومن اين تجىء المعانى . وكيف عن طريق الفاظ تجىء بعضها وراء بعض يمكننا ان نفهم ما يقال .. وكيف ان جملة جديدة من اولها لاخرها تسمعها لاول مرة ، ثم نفهمها .. ماالذى يجعلنا نفهم .. وماهى شروط الفهم ؟..

وعندما التحق بالجيش فى الحرب العالمية الاولى ، كان فى سلاح المدفعية .. وادخل تعديلات على المدافع التى استخدمها .. ثم نقل الى الجبال الايطالية .. وبعد ذلك الى الجبهة الروسية .. وكان طول الوقت يكتب مذكراته .. وبعد نهاية الحرب ارسل هذه المذكرات الى الفيلسوف الانجليزى برتراند رسل .. قال رسل : لم اصادف فى حياتى او حتى فيمن قرأت لهم او عنهم مثل هذه العقلية الفريدة .. المتوهجة بالافكار الجديدة ..

ولما التقى به الفيلسوف رسل لكى يوضح له نظريته هو قال رسل : كل الذى كان فى نيتى ان اعلمه له قد فهمه بسهولة . ولم اجد عندى ما اقوله .. بل هو الذى لديه الجديد الذى سوف يقوله .

اما المذكرات التى كتبها فتجنشتين فكانت فى ٧٥ صفحة وباللغة الالمانية ولم يتمكن من نشرها الا فى سنة ١٩٢١ ..

وطلبت اليه الجامعات البريطانية ان يدرس بها الفلسفة .. وعينوه أستاذا للفلسفة فى جامعة كمبريدج ..

وضاق بالتدريس فى الجامعة .. وقال : من الصعب ان يكون الانسان استاذا جامعيا ، واميناً فى الوقت نفسه .!

وذهب الى القرى يعلم الاطفال فى المدارس الابتدائية .. ثم اتجه الى رياض

الاطفال . واختلف مع المدرسين . وترك التدريس .. وعاد الى الجامعة يحاضر فى الفلسفة والمنطق ..

واتجه الى الهندسة الميكانيكية وفكر فى صنع محرك نفاث للطائرات .. وكان اول من صمم مصل هذا المحرك . وراح يطلق بالونات وراء السحاب .. يحاول ان يدرس اتجاه الريح .. وادى به الاهتمام بالطيران الى ضرورة دراسة الرياضيات . وفى وقت قصير جدا فهم فلسفة رسل الرياضية وادخل عليها كثيرا من التعديلات ..

وينصح تلامذته الا يشتغلوا بالتدريس . وخاصة بالفلسفة . يقول : من المستحيل ان يكون الانسان حرا ومدرسا فى الوقت نفسه .. اذ كيف يكون حرا ويفرض على تلامذته أن يفكروا على نحو معين .. كيف يغضب ان يخالفوه .. كيف يتضايق اذا دخل القاعة فلم يجد طالبا واحدا .. ان الاستاذ الذى لا يجد طالبا يجب ان يسعده ذلك .. فقد رفضه تلامذته لا كانسان وانما كدجاجة لا تبيض الا قطعا منتظمة الشكل من الحجارة .. مربعة .. مستديرة .. مستطيلة .. المهم عند الاساتذة ان يكون للكلام شكل .. ان تكون للمعانى مسميات .. لايهم ان تكون دقيقة .. فكل معنى هو طفل عريان يجب ان يتغطى بالملابس .. ضيقة او واسعة .. المهم ان تكون هناك ملابس .. والمدرسون « ترزية » المعانى .. وهم يفضلون ان يكون انتاجهم بالجملة .. وان تكون الملابس من مقاس واحد .. اما ان تكون الملابس « مكسمة » على كل طفل ، فهذا ليس شأنهم .. كل واحد يأخذ بدلته .. ويضيقها او يوسعها هذا شأنه .. وان يكون ذلك بعيدا عن الجامعة .. فالجامعة لا تعرف الا اليونيفورم ـ اى الزى الموحد المقاسات والالوان والنسيج !

تساءل : الفيلسوف فتجنشتين لماذا تكون الفلسفة صعبة .. معادة .. تجعل التفكير مرتبكاً .. وتوجع الدماغ ؟

وكان جوابه : الفلسفة ليست صعبة .. ولكن العقل الانسانى ملىء بالافكار المشوشة .. والمعانى المضطربة .. هذه الافكار هى التى تجعل تناول الفلسفة صعبا ..

تماما كما يمتلىء فمك بالطعام ثم تريد أن تضيف إليه طعاما آخر أفضل والذ .. وانت فى الوقت نفسه لا تريد أن تتخلص من الذى فى فمك ..

أو بعبارة اخرى إذا أنت رأيت السيارات فى الشارع لا تتحرك إلا بصعوبة

ويتصاعد منها الدخان ويكون لموتوراتها صوت عال ويطلق السائقون أجهزة التنبيه .. فليس ذلك لعيب في السيارة أو الموتورات في السائقين .. ولكنه الزحام الشديد في الشارع هو الذى يجعل الحركة أبطأ .. فليست السيارة ولا السائقين ولا الموتور . ولكنه الزحام والفوضى والهواء الملوث في الشارع .. وكذلك عندما يتخبط الناس والسيارات في الشارع فليس سبب ذلك أن السائق أعمى وأن السيارة بلا فرامل .. ولكنه الضباب الكثيف في كل مكان .. فليست الفلسفة وإنما الزحام والتشويش والضباب في عقول الناس !

وأثناء الحرب العالمية الثانية طلب أن يؤدى أى عمل .. فعرضوا عليه الاعمال التى تناسب مركزه وسنه .. فاختار أن يكون بواباً لاحد مستشفيات لندن .. وكان الناس يتضايقون عندما يرونه ينهض يفتح الباب لسيارات الاسعاف .. ثم يجلس أمام الباب والجليد ينزل فوقه .. حاولوا منعه ولكنه رفض !

وكانوا يلجأون الى حيل مختلفة حتى لا يرهقوه .. وذلك بأن فتحوا بابا للمستشفى من الخلف حتى لا يرهقوا الفيلسوف .. فاتجه هو إلى الباب الجديد .. وفي اللحظات القليلة للراحة كان يكتب مذكراته الفلسفية العميقة البديعة ..

وفي هذه الاثناء اكتشف أنه مصاب بالسرطان .. ولم يتضايق لذلك . فهو أراد أن يموت فعلا .. فعنده إرادة الموت .. ولكنه لم يعرف كيف يجيء الموت . ورفض أن يعالجه احد . فهو الذى اختار أن يموت .. ووجد أن هذا الموت هو تصفية حسابه مع هذه الحياة .. فالحياة لم تعطه شيئا مريحا .. لا عقلا ولا زماناً ولا نظرية ولا أهلاً ولا صديقاً .. وحتى البنت الوحيدة التى اقتربت منه وهزت أعماقه ، لا هو عرف لماذا اختارته .. ولا هي عرفت ما الذى جذبها فيه .. إنها اتجهت اليه .. وهو استراح إلى ذلك ..

ما الذى تستطيع أن تعطيه ؟ ما الذى يقدر أن يعطيه ؟ إنها هي الاخرى في غير مكانها من الجميلات .. كما أنه في العظمة .. عظمة الاختلاف عن الناس ، أراد الله لها ذلك ، وله أيضا ..

والتقى الاثنان .. وكان سعيداً بأن يجد له شبيهاً .. جمالها كله في خارجها ، وجماله كله في داخله .. بل ان في هذه الراهبة نوعين من الجمال .. خارجها جميل ، وداخلها رائع .. كيف ؟

ف مرة أخرى التقى بهذه الراهبة .. أو بواحدة شبيهة بها فقال لها : لا أعرف إن كنت المقصودة بالذى سوف أقول .. أو أنها كانت واحدة مثلك .. فلتكن واحدة مثلك شغلتنى من عشرين عاما .. أنت أجمل مخلوقات الله .. وأكثر من عذب ايضا .. أنت نموذج لجمال الجسم وجمال الوجدان .. أنت صورة للعذاب .. النار تخرج منك .. تحرقك جلدا وقلبا .. يجب أن ترفعك فوق .. فوق .. فيكون لك جهنم الجمال وجليد العزلة .. جليد القمم .. فكيف تتفجر النار من الجليد ؟.. إننى شاهد على عصرك .. كما أنك شاهدة على عصرى .. ماالذى يمنعك أن تقتلينى وما الذى يمنعنى أن اقتلك .. مدى يديك .. المسينى .. فالنار لا تحرق النار .. والجليد لا يذيب الجليد .. منتهى القسوة من السماء أن تخلقنا ف عصر واحد .. ولذلك فموتك حياة ، وحياتى موت .. هل فهمت ؟

ولم يقل لنا الفيلسوف فتجنشتين ماذا قالت إن كانت قد قالت ..!

وفى إحدى الجامعات بعد أن استقال من « أستاذية الفلسفة » فى كمبريدج التقى بالطلبة ، وقال لهم : اسألونى : أريد أن أعرف إن كان عقلى مايزال ف موقعه من رأسى وإن كان رأسى مايزال على كتفى .. وإن كنت ماازال واحدا منكم .. اسألونى !

قال طالب : لم يعد عندك أمل ياأستاذ !

فأجاب : لم يكن عندى أمل ف أى وقت .. لقد أردت أن أضع نظرية لتوضيح هذه الالفاظ التى تستخدمها . لم انجح أنا طالب فاشل ياولدى .. كل حياتى هى مراحل متنوعة من الفشل .. فلا انا اخ ولا أب ولا زوج ولا صديق ولا شىء من الذى تعلمته نفعنى .. ولا أنقذنى .. إننى لا أعرف كيف أجرى حوارا مع احد .. كل الناس يتكلمون أحسن وابرع .. كل الناس عندهم حجج قوية .. فلو صفعنى احد على وجهى فان عقلى لا يسعفنى كيف اتصرف ف هذا الموقف .. إن أى طفل يرد بسرعة .. ويكون الرد هو أعظم اجابة واقوى حل . وأنا اندهش حقا كيف يستطيع الطفل ما أعجز أنا عنه .. فالتعليم اذن هو الذى يفسد الطفل ، ويبلبل الشاب ، ويشل الشيخ .. إن العصفور ينقر الدودة .. والدودة تقاوم وينقرها وهى تقاوم .. إننى لا أملك قدرة دودة ولا إصرار عصفور ولا سرعة طفل .. ف سن مبكرة طلبت منى احدى اخواتى ان اتزوج .. وقدمت لى فتاة جميلة الوجه ساحرة العينين .. ممشوقة القوام .. جلست اتفرج عليها ..

ياأستاذ .. وكل زملائي يعرفون ذلك .. أنت وحدك الذى لا تعرف .. فنحن تعلمنا ومضى وقت دون ان اتكلم .. ولكنها اقتربت منى اكثر .. واحتضنتنى وقبلتنى وهى تقول : انما اردت ذلك فهل تريد ايضا ؟ لقد اضعت هذه اللحظة الجميلة التى تلتقى فيها الارادة والرغبة والعقل والكرامة .. انتظرت ماالذى يقوله عقلى .. لطعنى عقلى ولم يرد .. وسألتنى هى : مابك ؟.. فلم اعرف ماالذى اقوله لها .. كيف جمعت هى مشاعرها وفكرها ورغبتها فى قرار واحد مختصر .. ولم افلح فى ان احقق هذا القرار .. اليس هذا فشلا ؟ قمة الفشل ! ولذلك ارى ان الله اعطانى فرصة ان اعيش ، فاضعت الفرصة .. ولا اظن الله سوف يعطينى فرصة اخرى .. ولذلك فانا اضعت الوقت والفرصة .. فقررت ألا حياة لى .. وأنا الآن اموت يوماً بعد يوم كما يعرفون ..

فسألته طالبة : نحن تعلمنا أن كلمة الفلسفة معناها : محبة الحكمة .. أى الحق والبحث عنه .. وحب العدل وتحقيقه .. وحب الجمال وتذوقه .. أى حب كل هذه المعانى . وفى الوقت نفسه كراهية الانسان .. فالفيلسوف هو الذى يحب الفكر .. وأن يكون فى حالة تفكير ، وينشغل بذلك عن الحياة والاحياء .. فلا يحب أحدا من الناس .. لا رجال ولا نساء .. إذن فالفلسفة هى إفساد لأجمل ما فى الحياة .. وأكثر المعانى ضرورة لاستمرار الحياة .. إن الفيلسوف ــ إذن ــ شخص يتعلم كيف ينتحر يوما بعد يوم .. ولكن قل لى ياأستاذ كيف تفسر حياة فلاسفة اخرين احبوا وتزوجوا مرة ومرتين وكان لهم اطفال ؟.. وكيف تفسر سلوك المرأة التى تحب وتعشق وسعيدة أو تعيسة وهى لم تسمع فى حياتها عن فيلسوف واحد ؟! ولا وجدت من الضرورى ان تعرفه او تناقشه .. أو توقف حياتها حتى تراه وتفهمه ؟

قال لودفيج فتجنشتين : والله ياابنتى كنت اتمنى ألا أراك وألا أسمعك .. وألا تريني أو تسمعيني .. ولكن لا حيلة لى فأنت تدرسين الفلسفة .. ولا راد للقضاء والقدر .. قضاء ان نكون معا .. وقدرى أن تقولى وأن أرد عليك . من أجل هذا أقول لك ياابنتى اننى انسان فاشل .. انا وحدى .. اننى لا ادعوكم الى ان تمشوا فى جنازتى . اننى ميت وانا اخترت الموت .. وانا اخترته لاننى استحقه .. لاننى اصنع سلعة يجب الا ابيعها والا يشتريها احد .. واذا اشتراها فمن الواجب ان ينظر فيها ثم يلقى بها على الأرض .. وان يصدر قرارا واحدا يمنع التعامل معى .. وقبل صدور هذا القرار فقد أوقفت انا التعامل ..

اعرف لماذا رفضتني السماء .. كل الذى كنت احتاج اليه طول عمرى هو : المعجزة .. المعجزة .. المعجزة التى تنقذنى من نفسى .. وكنت اعتقد ان المعجزة امرأة ذكية .. امرأة تقترب منى وتقبل كل هذا الغريب العجيب فى سلوكى . وترى ان من واجبها المقدس أن تعايش هذا الحيوان الذى له انياب واظافر .. لا انا اطلقت اظافرى .. ولا انا صنعت انيابى ، ولا اطلت ريشى .. ولا سويت حوافرى .. المرأة فقط هى هذا المخلوق الفريد فلديها القدرة الفذة على أن تنفذ باحساسها الى اعمق اعماق الفيلسوف .. فاذا هى فى لحظة واحدة تفك الالغاز فى اعماقه .. وتعرف من هو ؟ وبسرعة تقول لنفسها : هذا هو الانسان .. هذا هو الهدف .. هذا هو الذى أردت وأراد الله .. كيف تستطيع المرأة المعجزة أن تصل الى كل ذلك .. اية قوة لديها ؟ اى ذكاء ؟.. اية غريزة ؟ إن الله أراد أن يخلق المرأة لكى يسخر من جبروت الرجل .. إن الرجل يستغرق سنوات حتى يعرف حقيقة واحدة .. أما المرأة المعجزة ففى لحظة واحدة تعرف ألوف الحقائق .. ويكون إحساسها صادقا . كيف ؟ هذه هى المعجزة ، عندما تقول المرأة لنفسها .. ليس أسهل من ان اكون واحدة مثل بقية النساء .. ولكن ليس سهلا أن أكون لهذا الرجل بالذات .. أما أن أكون واحدة مثل بقية النساء ، فهذه إهانة لذكائى .. اما ان اكون لهذا الرجل ويكون لى ، فهذه اعظم انحناءه من السماء للأرض .. قليلات يابنتى فى التاريخ من يظن ذلك .. وقد انتظرت واحدة من القليلات .. وأنت ترين انها لم تأت .. وطبعا لن تأتى ..

قالت الطالبة : بل انها قد جاءت ياأستاذ .. جاءت ووقفت بعيدا .. وراحت تفتش فى نفسها عن اللغة التى تتحدث بها اليك .. إن اللغة التى تعلمتها منك تمنعنى من استخدام كل الكلمات .. فلو قلت : إننى أحبك ياأستاذ .. أو أننى أحببتك ياأستاذ .. أو قلت أننى كنت اتخيل الرجل الذى أحبه هو مثلك تماما .. أو هو انت بالضبط .. مع أننى لم اكن قد رأيتك .. أو عرفتك انها مجرد صورة فى دماغى .. لا أعرف من أين جاءت .. ولكنها صورة .. رأيتها قبل ذلك .. فلما وجدتك .. كنت أنت مطابقا للصورة .. شىء عجيب أن تكون الصورة هى الاصل ، وأنت صورة الصورة .. ان هذا التطابق هو الذى اطلق شرارة الحب .. كما يحدث عندما تلتقى سحابتان فى السماء ..

واحدة سالبة والثانية موجبة .. فيكون البرق والرعد .. الحب هو البرق والرعد شىء يبرق فى العين ويهز القلب .. هذا ما حدث ياأستاذ .. فقد أحببتك

فلم اعد اقول شيئا .. وانا اشتغلت بالتدريس عدة مرات .. وهربت الى الشواطىء . والى الحرب .. وكان املى ان اتعرض للقنابل لعلى اموت .. ولا منك ان كل هذه الالفاظ لا معنى لها « كل هذه الكلمات » انا .. اننى .. أحب .. وكذلك حرف الكاف الذى يجىء فى نهاية كلمة احبك .. فكيف اتحدث اليك .. كيف أصارحك .. وأنت ترفض الحديث وتستنكر الحوار .. وتحتقر الاصرار على هذه الكلمات الغامضة .. أما أنا فعلى يقين من مشاعرى .. وأنت لست على يقين من شىء أو من أحد .. أنا أخذت ما استحق . وانت أخذت ما تستحق .. اخذت السعادة بما أشعر به وانت التعاسة .. انت دودة القز التى تنسج لنفسها كفنا ونعشا من خيوط الحرير ثم حرصت على أن تسد الكفن بإحكام حتى تموت دون ان يتدخل احد لانقاذها .. إننى اتحدث اليك الآن قبل أن تسد بآخر خيط هذا النعش على عبقريتك المعذبة .. وعذابك العبقرى .. كل ما اطلبه منك ان تعطينى الخيط الباقى .. اتركه لى وأنا وحدى سوف اسحب وراءه كل الخيوط .. سوف اجعل للنعش طاقة وللكفن نافذة .. دعنى اقم بتسريب الحياة التى رفضتها .. دعنى اقم بتهريب الامل الذى يئست منه .. دعنى حياة فى موتك .. دعنى أنسا فى وحشتك .. دعنى باسم الارض اعتذر للسماء .. دعنى ارفع رأسى اليك .. دعنى أسجد فوق .. أسجد على جبهتى على شفتى على ذقنى .. على صدر .. هل جئت متأخرة ياأستاذ ؟.. المهم اننى جئت .. اننى اتشبث بكل خيط حرير .. بكل لحظة .. بل كلمة تقولها .. أنت تريد الموت .. وأنا اريد الحياة لى ولك .. ممكن والله ممكن ياأستاذ .. إن فلاسفة الاغريق هم اعظم الفلاسفة .. كانوا يتزوجون ويعملون فى التجارة .. وآلهة الاغريق أعظم صورة لزواج العبقرية من الانسان .. لقد كان الآلهة جميعا يعشقون .. يحبون .. ويحقدون على الانسان .. ينافسونه .. فكانوا يجعلون انفسهم بشرا وحيوانات .. فهم فى صراع وسباق مع الانسان والحيوان .. إنهم يرون أن الحياة اعظم من الفكر .. وأن المرأة اعظم من الرجل .. وأن احساس المرأة أصدق من فكر الرجل .. إننى جئت لانقذ بقاياك منك .. فأنا أحبك ياأستاذ .. ولذلك سوف أطيل عمرك .. وفى ذلك أعظم دور لى وقيمة لحياتى .. وأروع تحية اقدمها من نفسى لنفسى على مرأى منك ومسمع من زملائى .. هذه لحظة تاريخية .. إنها أعظم اللحظات وأروع التحديات .. لا تقل شيئا ياأستاذ .. أنا قلت من زمان .. وسوف اقول اليوم وغدا ..

ولم يقل لنا الفيلسوف فتجنشتين بماذا أجاب على هذا الحكم التاريخى لفتاة جميلة ذكية قررت ان تقوم وحدها بتصحيح اوراق امتحان هذا الفيلسوف العظيم .. فهى وحدها وضعت الاسئلة وكانت اللجنة ورئيس اللجنة .. ثم سحبت من فمه اخر خيط حريرى ينسجه لقبره .. لكى يعيش .. إنها وحدها التى قررت له أن يعيش بعد أن اقام لنفسه النعش والكفن والقبر الزجاجى ورسم عليه العبارة التى كتبها الموسيقار الالمانى باخ عندما أهدى احدى سيمفونياته للامبراطور : (لله ولأى جار طيب !)

وكانت هذه الفتاة هى الجار الطيب ، وأجمل وأذكى مخلوقات الله !

١ ـ فشل : غزو مصر
نجح : وصف مصر

نابليون وصل ميناء الاسكندرية يوم أول يوليو سنة ١٧٩٨ . وتأجل زحفه إلى القاهرة ثلاثة اسابيع بسبب الاسهال الذى اصيب به الفرنسيون . فقد أسرفوا فى أكل البطيخ .. وقد اضطر نابليون الى ضرب البطيخ بالمدافع حتى لا تمتد اليه أيدى الجنود .. واستولى على القاهرة وهربت قوات المماليك الى الصعيد ..

ورأى نابليون الأهرامات لأول مرة فبهره هذا الذى رأى وقال لجنوده عبارته الشهيرة ان أربعين قرنا تنظر اليكم من فوق هذه الاهرامات . وليس صحيحا أنه اطلق المدافع على رأس أبى الهول ـ فنابليون هو ابن الحضارة وواحد من عباقرتها . وهو الذى ادرك من أول لحظة أن العلم ابقى من الحرب . وأن قواته لن تبقى طويلا فى هذه البلاد .. ولكن العلم والفن ابقى .. ولم يكد نابليون يلتفت الى مصر .. حتى بهرته الآثار والثروات ولم يبهره الشعب !

وفكر بسرعة فى أصلاح ادارة هذه البلاد : الحكم والزراعة والصناعة والرى ..

وفى عيد ميلاده التاسع والعشرين يوم ١٦ اغسطس سنة ١٧٩٨ وفى ضوء القمر وفى ظلال الاهرام اتخذ قراره التاريخى بانشاء « معهد القاهرة » لجمع المعلومات التاريخية والاجتماعية والاثرية عن هذه البلاد وتنظيمها وتوثيقها وكانت هذه مهمة « اللجنة » التى جاءت معه مكونة من ١٦٥ من العلماء والفنانين الشبان مهندسين ورسامين وحفارين ومصورين ومترجمين ..

ومن أول لحظة اعلن نابليون فى منشورات باللغة العربية انه مسلم وان الشعب الفرنسى كله مسلم مثل المصريين تماما .. وقد طلب من جنوده احترام

الاسلام وشعائره وان يجعلوا القضايا الدينية بعيدة عن مناقشاتهم ما استطاعوا الى ذلك سبيلا . وفى الطريق الى مصر انشغل نابليون فى مناقشات طويلة مرهقة مع كل العلماء عن الشرق وعن الديانات وعن الاسلام وعن مصر . وفى كثير من الاحيان كان العلماء يقولون له : لا نعرف بالضبط .. ولكن فى مصر سوف نتحقق من هذه المعلومات ..

وفى مصر لم يجدوا لها خرائط ولا نظما لضبط الرى والصرف ولا قواعد للزراعة . ولا بيانات عن اثارها وعن الحيوانات والنباتات والطيور والبذور .. ولا معنى هذه الأحجار المتناثرة فى كل مكان .

فقبل الحملة الفرنسية على مصر كان العالم كله ينظر الى الاهرامات ولا يعرف ما هى .. والى النقوش على المعابد ولا يدرى معنى هذه الزخارف . حتى الفرنسيون انفسهم عندما نقلوا النقوش الموجودة على جدران المعابد والتماثيل ، لم يكونوا يفهمون معناها .. حتى جاء العالم الفرنسى شامبليون بعد نابليون بثلاثين عاما وفك رموز هذه الكتابة الهيروغليفية .. هنا فقط انفتحت علينا ابواب التاريخ .. مصر القديمة تكلمت ومصر الحديثة اخذت تجنى ثمار ذلك .. لقد استطاع نابليون بعبقريته الفذة ان يسلط الاضواء الباهرة على الماضى ، وان يدفع مصر دفعا الى المستقبل فى وقت واحد .. وبنفس القوة ..

وعندما جاء نابليون الى مصر وحوله حشد من العلماء الشبان ، كان مثله الاعلى الاسكندر الاكبر .. عبقرى الحضارة القديمة .. كان ينتقل بقواته فى اوروبا وفى آسيا ومعه عدد من المؤرخين والفلاسفة والعلماء ..

وقد عرفنا فيما بعد ان تحتمس الثالث من الاسرة الثامنة عشرة كان اسبق الجميع فقد ترك فى معبد الكرنك سجلا دقيقا للنبات والحيوان بعد حملته الثالثة على سوريا وفلسطين !

وبعد شهر واحد من نزول القوات الفرنسية جاء الاميرال البريطانى نلسون واحرق الاسطول الفرنسى !

ومنذ تلك الهزيمة احس نابليون ان المغامرة المصرية قد انتهت . وانه لابد ان يفكر بسرعة فى الخطوة التالية .. فى مصر وفى اوروبا . فى مصر انتهى كل شىء . انتهت الحملة عسكريا ولم يبق الا هذه الحملة العلمية التى هى من مفاخر نابليون وفرنسا . وفى نفس الوقت حاول نابليون ان يواجه المصريين بشدة وعنف .. فالاسطول الفرنسى هو الذى تحطم ، لا فرنسا ولا نابليون .. ولا

علاقة لما حدث فى الاسكندرية بما يجمعه العلماء الشبان فى كل مكان من احجار وعينات لكل ماينمو ويزحف على سطح مصر .. وكل ما يضعه المصريون على أجسادهم وفى أفواههم وعيونهم .. وكل ما يعملونه عند ولادة طفل أو موت رجل .. ولا ما تقوله الراقصات والمطربون فى الحفلات والأدوات الموسيقية التى يستخدمونها .. أو كانوا يستخدمونها .. والمذاهب الدينية الاسلامية والمسيحية واجناس سكان مصر .. ولا يعرفون كيف يتزايدون وما هى القاعدة ..

وقد تبين نابليون أن أول ما اهتمت به « اللجنة » هو الهندسة المدنية والمعمارية ورسم الخرائط .. فاذا به يطلب اليهم الاهتمام بالانسان بعلاقاته وحياته وآماله ومخاوفه وتفسير هذه الظاهرة التى ادهشته : هذا الهدوء والقناعة .. وكيف ان الثروة كثيرة والايدى قصيرة ؟ !

وتساءل نابليون : كيف ينظر المصرى الى النيل ولا يتدخل فى مجراه .. وكيف ينظر الى الصحراء ويقف عندها .. كيف يرى الاحجار ويبنى بيته من الطين .. كيف يفضل أكل اللحوم على الأسماك .. وكيف لا يزرع الفاكهة .. وهل المصريون يأكلون البطيخ لانه نبات شيطانى ؟ !

ولما قيل لنابليون : ان المصرى يتزوج بغير أختياره .. امه وابوه واخوته يختارون له العروس !

وكان تعليقه : اذن عند الطلاق يذهب الاولاد للدولة .. لان الأم لم تختر الزوج والزوج لم يختر الزوجة !!

فقيل له : هذه حكاية معقدة !

فقال : لماذا لا ننظمها ؟

فقيل له : انه الدين . وانت امرت بانه لا شأن لنا بالدين !

ولم يتوقف العلماء الشبان عن جمع المعلومات من كل مكان واختاروا لهم بيتا لاحد البكوات قد تركه وهرب مع قوات الزعيم المملوكى مراد بك الى الصعيد .. وهذه المواد والملاحظات من كل لون وحجم هى التى كانت المادة العلمية لكتاب « وصف مصر » وقد استغرق جمع هذه المواد ثلاث سنوات ، ليلا ونهارا .

وكان نابليون قد طلب الى العلماء ان ينشغلوا تماما بالبحث والا يتابعوا احداث المعارك فى مصر أو خارجها .. ولذلك فبعد ثلاثة ايام من انشاء المعهد زحفت القوات الفرنسية بقيادة الجنرال ديزيه الى الصعيد تطارد المماليك .. ولكن المماليك ظلوا يتراجعون الى الاماكن النائية من الصعيد .. حتى ارهقوا

الفرنسيين الذين لا يتحملون حرارة الصيف ولا يعرفون هذه البلاد ، فعادوا الى القاهرة ..

ومما يروى عن القوات الفرنسية ضباطها وجنودها انهم عندما رأوا روعة التماثيل الفرعونية القوا السلاح احتراما للعظمة واستسلاما امام روعة التاريخ !

ومع القوات الفرنسية ذهب مهندسون وفنانون . ومن بينهم المهندس دتريت الذى اصبح بعد ذلك مديرا لمتحف اللوفر .. وكان أول فرنسي يرى روعة التاريخ الفرعوني وعظمة الآثار القديمة .. واستطاع ان يرسم لوحات نادرة .. كان يرسم وقد وضع اللوحة على ركبتيه ، او هو على ظهر حصانه ..

وفى عيد ميلاده الثلاثين احس نابليون : ان المجد ينتظره فى اوروبا وليس فى مصر . لذلك عاد سرا الى فرنسا يوم ٢٢ اغسطس سنة ١٧٩٩ يرافقه بعض اتباعه من الضباط والعلماء .. وآخر قرار اتخذه نابليون هو أن « لجنة الفنون والعلوم » يجب ان توسع نشاطها فتنتقل الى جنوب مصر ، حيث عظمة مصر .

كان نابليون قد اعد كل شيء « لغزو » مصر .. وهو الآن قد ترك كل شيء « لوصف » مصر ..

وبسرعة هائلة اجتمع العلماء الشبان .. واتفقوا على خطة العمل .. اى كيف يكتبون وينشرون كتاب « وصف مصر » .. وهو اعظم انجازات الحملة الفرنسية من الخرائط وتسجيل كل الفنون والصناعات والازياء والجيولوجيا والنبات والحيوان . وقد رسموا ٩٠٠ لوحة .. هذه اللوحات ، فى عصر ما قبل الكاميرا ، هى انجاز تاريخي فريد . وكان اكثر الرسامين والحفارين موهبة ذلك الرسام العظيم دتريت وهو الذى كان مسئولا عن تصوير مراد بك نفسه وهو صاحب اللوحة المشهورة عن القساوسة الاحباش ولوحة معبد فيلة والكرنك واسيوط والمنيا وميدان الازبكية .

وهو الذى طالب « معهد القاهرة » بانشاء مدرسة للفنون يتعلم فيها المصريون ترميم الآثار ورسمها وهو صاحب فكرة ترميم معبد كوم امبو ودندرة .

أما المهندسون الفرنسيون الذين ذهبوا الى الصعيد.فقد وضعوا نظاما للرى وتحسين الصرف ..

اما المهندس كونت فهو الذى رسم اللوحات الفنية كلها . وهو العقل المحرك وراء «لجنة الفنون والعلوم» .. وهو الذى اقترح على نابليون فيما بعد إذا اراد

غزو بريطانيا ان يستخدم البالونات لنقل الجنود عبر المانش ! وهو الذى صمم الميكروسكوب والعدسات لعلماء الحملة الفرنسية .. وهو الذى صنع لهم الاقلام التى استخدموها فى الرسم .. وهو ايضا الذى صمم انواعا واحجاما من الورق لم يستخدمها احد من قبل كتاب « وصف مصر » .. وهو الذى ابدع انواعا من المكابس فى المطابع ، لم تكن معروفة قبل كتاب « وصف مصر » .

وعندما استأذن نابليون فى ان يتزوج مصرية قال له نابليون : ليس قبل ان يكون وجودنا مشروعا فى مصر .. اما زواجك من مصرية الآن فهو نوع من الاغتصاب .. ولكن بعد ذلك يشعر المصريون بالامتنان لك لانتزوج !.

وبعض العلماء تركوا مصر فى سبتمبر سنة ١٨٠١ بعد هزيمة الانجليز لهم وقد ظل هؤلاء العلماء يعملون ليلا ونهارا ، حتى اخذهم الانجليز أسرى .. وقرروا ان يحملوا ابحاثهم واكتشافاتهم معهم .. وقالوا : تفضل ان نعطيها للعدو على ان نتركها فى مصر ..

وقد اعادت بريطانيا معظم هذه الأبحاث الى فرنسا .. وان كانت قد ملأت متاحفها بكثير من الذى استولت عليه .. ثم ان الانجليز استولوا بعد ذلك على حجر رشيد الذى اكتشفه العالم الفرنسي شامبليون .. ولا يزال حجر رشيد فى المتحف البريطانى حتى الآن .. وان كانوا قد اعطوا الفرنسيين نسخة منه !

وقد تولى العالم الكيميائى الفرنسى برتوليه رياسة لجنة نشر كتاب « وصف مصر » .. ولكنه عاد مع نابليون ..

ولم يشعر العلماء الفرنسيون بمرارة الهزيمة فى مصر .. ولكنهم شعروا بالكبرياء لانهم فتحوا سدودا تفيض بالمعلومات من التاريخ القديم .. فنابليون لم يفتح مصر الحديثة وانما فتح مصر القديمة .. واقبل العالم كله بعد ذلك يتفرج بعيون واعية ترى الامجاد الفرعونية التى كانت ينظر اليها ولايراها ..

ومثال واحد يمكن ان نتخذه دليلا على عبقرية نابليون ابن التاسعة والعشرين : اختياره شبابا فى العشرين .. وفى السابعة عشرة ايضا .. كلهم جاءوا مع القائد العظيم وبحرارته وحماسته وذكائه وخياله يعيدون الى مصر ذاكرتها التاريخية وحسها ومجدها .. مثلا : العالم الشاب جومار وكان فى التاسعة عشرة فهو الذى رسم لوحات بنى حسن والفيوم وهو الذى نسخ كل النقوش ابتداء من الشلال الأول حتى القاهرة !!

× × ×

وعند طبع كتاب (وصف مصر) كان عدد الذين يعملون في الرسم والنسخ والحفر والاعداد له أكثر من ألفي عامل ومهندس . وجاءت الطبعة الأولى على نوعية من الورق لم يعرفها احد من قبل - لا طولا ولا عرضا ولا مادة ولا حبرا ولا طباعة .

وذاعت سمعة هذا الكتاب ، وان لم يكن في متناول كل الناس .. وانما تنافس الملوك والنبلاء وكبار المثقفين على اقتنائه .

وبدأ طبع كتاب وصف مصر سنة ١٨٠٩ في تسعة مجلدات :

مجلدان : في التاريخ الطبيعي : حيوانات ونباتات وأسماك وحشرات وطيور ..

واربعة مجلدات : عن مصر القديمة .

وثلاثة مجلدات : عن تاريخ الدولة الحديثة من الفتح الاسلامي حتى الحملة الفرنسية .

وقد ظهر على غلاف المجلد الاول : انه طبع بأمر الامبراطور العظيم نابليون ..

اما المجلدات الثمانية فقد ظهرت بعد اختفاء نابليون .. ولذلك جاءت هذه العبارة عليها : طبعت بامر من الحكومة .

وعلى الرغم من روعة هذه الطبعة الاولى ، فقد اكتشف العلماء ان بها اخطاء كثيرة .. فقرر الملك لويس الثامن عشر اعادة طبعها فيما بين ١٨٢٢ و ١٨٢٩ . فظهر المجلد الأول عندما اكتشف شامبليون حجر رشيد .. الذى ادى إلى تدفق التاريخ المصرى القديم .. وكان حجر رشيد هو قمة الاكتشافات التى قامت بها الحملة الفرنسية .. وبعد أكتشاف هذا الحجر بمائة عام تماما اكتشف الانجليزيان : كارتر واللورد كارنر فون مقبرة توت عنخ أمون ..

وجاءت الطبعة الثانية في ٢٦ مجلدا .. احد عشر مجلدا للوحات والصور والنقوش والاطلس الجغرافي لكل قرية في مصر .. كما ان اللوحات كانت لكل بيت وحارة في القاهرة ..

وكانت الطبعة من ورق صغير ، ولذلك زاد عدد مجلداتها ..

وقد ظهرت عيوب الطبعة الأولى بعد اكتشاف حجر رشيد.. فالفرنسيون عندما نقلوا النقوش .. نقلوها بامانة ودقة وهم لا يفهمون معناها ..

ومجيء شامبليون الى مصر سنة ١٨٢٨ كان نقطة تحول كبرى في التاريخ

القديم .. وشامبليون عبقرية اخرى للذكاء والصبر والاصرار والخيال والموهبة العظيمة .

* * *

* * *

وأهم ما يمتاز به كتاب « وصف مصر » هو الدقة في الرسم والحفر والتسجيل .. ثم ان الفرنسيين كانوا متعاطفين مع المصريين .. ولم نجد عبارة واحدة فيها سخرية بأحد أو بعادة او تقليد .. وانما كان مثلهم الاعلى هو : ما جاء في الموسوعات الفرنسية التي صدرت قبل ذلك : التسجيل الدقيق الامين .. اما التحليل والتفسير فهذا من اختصاص آخرين ..

وقد سجل الفرنسيون ايضا كيف ان المواطن المصرى كان مرهقا باعباء الحياة والضرائب .. وأنه كان صابرا ينتظر .. ولم يتحسن حال المصريين حتى ايام محمد علي عن الذى كان عليه أيام مراد بك وابراهيم بك .

وكان الفرنسيون يعتقدون ان المصريين اذا عرفوا عيوبهم فليس اسهل من اصلاحها . وكان ذلك وهما عظيما ؟ ! فقد عرف المصريون .. ولكن المسافة كبيرة جدا بين الذى يعرفونه ويألفونه وبين الذى يجب ان يثوروا عليه ..

وفي كتاب « وصف مصر » اخطاء بسبب السرعة وضيق الوقت وضرورة تنفيذ خطة الكتاب في الوقت المحدد له بالضبط .. ولم يكن الخطأ عن سوء نية أو كان عمدا في أى موقع من مواقع الكتاب .. بل ان الفرنسيين كانوا حذرين وفي غاية الدقة العلمية .. فقد حذرهم نابليون كثيرا وطالبهم أن يكون الصدق والدقة والامانة هي منطلقهم ولا شأن لهم بما يجرى في ساحة الحرب - هزيمة أو نصرا .. وله عبارة مشهورة .. وهي ان أبا الهول لن يدير ظهره للمصريين لانهم لم ينتصروا !

مثلا ما جاء في كتاب « وصف مصر » عن « سحرة الثعابين » أكبر دليل على النظرة العلمية الموضوعية الامينة في تناول كل ما رأى علماء الحملة الفرنسية في حياة المصريين .. فقد وقفوا أمام « الحاوى » الذى يدخل أى بيت ليستخرج الثعابين والعقارب منه .. الحاوى يمسك عصا وسلة .. ويقف عند احد اركان البيت .. ثم يتمتم بكلمات غريبة ويمطها .. ويمد عصاه فيخرج الثعبان من احد الاركان ملتفا على العصا .. ومن المؤكد ان هذا الثعبان لم يكن قد احضره ثم اطلقه في البيت ! .. لقد تاكد الباحث الفرنسى من ذلك تماما ..

ويحاول الباحث الفرنسى ان يفسر هذه الظاهرة الغريبة فيقول : ان هذا الحاوى لكثرة ممارسته الطويلة قد عرف بالضبط ما هى الاصوات التى يطلقها فتخرج لها الثعابين .. ويقول اننا فى حياتنا العادية نطلق اصواتا مختلفة للكلاب والقطط وبقية الحيوانات .. فلماذا لا تكون هذه الاصوات التى يطلقها هى التى عرف بتجربته الطويلة انها التى تستدعى هذه الزواحف من اوكارها ؟ !

ويقول الباحث الفرنسى ايضا أن علماء الحملة الفرنسية قد اكتشفوا ان الثعابين لها رائحة .. وهذه الرائحة تنبعث من سائل تفرزه .. فلماذا لا يكون الحاوى قد عرف هذه الرائحة . فاتجه الى مكان الثعبان من البيت .

اما ان الحاوى قد نزع اسنان الثعابين التى حملها معه ويلفها حول رقبته ، فقد تأكد الباحث الفرنسى من ذلك فوجد الثعابين باسنانها .. ثم العقارب التى يلتقطها ويخفيها فى طربوش العمامة ، ثم يضع الطربوش فوق رأسه ، هذه العقارب لم ينزع فكيها .. وانما تنشط هذه العقارب وهذه الثعابين فورا اذا اطلقها على اى انسان آخر .. لاخدعه مطلقا فى كل هذا الذى يفعله الحاوى فى قرى ومدن مصر .. ويقول : انه لشىء مخجل حقا ان يستعين الجيش الفرنسى بهؤلاء الحواة ـ اى انهم لجأوا الى هؤلاء الناس دون أن يفهموا بشكل علمى واضح ما هذا الذى يفعلونه ..

ويقول الباحث الفرنسى ايضا : ان الحاوى يستطيع ان يجعل اناسا آخرين لديهم « مناعة » ضد الثعابين والعقارب .. ولذلك بأن يجعلهم يشربون سائلا من اعداده هو : ماء وعليه نقطة زيت وسكر ثم يبصق هو بعد ذلك فى هذا السائل ويتمتم بكلمات طويلة .. ثم يعطيه لاى انسان .. فيشربه .. وبعد ذلك يعلق من اذنيه ثعبانين لمدة ربع ساعة .. وهذا هو ما يسمونه فى الريف المصرى « بالعهد » اى ان هناك عهدا واتفاقا بين الحاوى وبين اى انسان آخر الا يقتله الثعبان او العقرب ..

ويفسر الباحث الفرنسى هذا الذى يحدث بقوله : ان هذا السائل ربما جعل الذى يشربه اكثر شجاعة واقل خوفا .. والثعابين تشعر بالانسان الخائف او الذى يريد ايذاءها .. فان كان لا يريد ، فهى لا تؤذيه ..

(ومن ايام رأيت فى القناة الثالثة فى التليفزيون مروض الوحوش ابراهيم الحلو يروى كيف انه لا يخاف من الاسد فقال : ان الانسان عندما يخاف فان

الغدة فوق الكليتين تفرز مادة الادرنالين .. والاسد يشم رائحة هذا الافراز فيعرف ان كان الذى امامه خائفا او غاضبا ؟ !) .

فالباحث الفرنسي لم يستنكر اى شيء مما رأى .. وانما حاول أن يراها بنفسه وان يتأكد من انه لاخداع .. وفى نفس الوقت حاول ان يجد لها تفسيرا مؤقتا . واعترف بأنه لا يستطيع أن يفسر كل العادات الشاذة فى مصر ، فذلك يحتاج الى وقت طويل .. ولكنه يكتفى بالتسجيل الدقيق وبمحاولة الفهم ، حتى تتاح فرصة أوسع لمن يجيء بعده ـ غاية الصدق والامانة !

٢ ـ الأحجار التي وجدوها :
الأهرامات والوجوه المصرية
ثم حجر رشيد !

قرار جرىء جدا أن يفكر أى انسان فى ترجمة بعض فصول كتاب « وصف مصر » .. فالكتاب اذا وجد فى مكتبة عامة ، فانهم لا يسمحون بخروجه لأنه ممزق .. أو خوفا من أن يزداد تمزقا . فعلى الذى يترجمه أن يذهب اليه وأن ينكفىء على حروفه الصغيرة وأن ينفخ فى الصفحات ليتم تقليب الصفحات بالهواء خوفا من استخدام أصابعه .. ثم أن لغة الكتاب قديمة وحاجة المترجم مستمرة الى قواميس لغوية وعلمية واقتصادية .. أما الصبر والمثابرة والاصرار فلابد من أن تكون مواردها لا تنفد لا ليلا ولا نهارا ..

ولا أعرف كيف اتخذ المرحوم زهير الشايب قرار ترجمة كتاب « وصف مصر » . لابد أن زهير الشايب حديدى الارادة . أو انه انسان انتحارى . أما إن ارادته من حديد فلاشك فى ذلك ، أما انه انتحارى فلم يكن كذلك .. وانما عاجله الموت فى سن صغيرة وهو لم ينشر من هذه الموسوعة التى وضعها علماء الحملة الفرنسية ، الا تسعة أجزاء ـ وهى تعادل مجلدا واحدا من مجلدات الموسوعة التسعة .. وان كان الأستاذ زهير الشايب قد نقل بعض فصولها من مواضعها وأثبتها فى مكانها الأنسب من ترجمته ..

وكان الأستاذ زهير الشايب ، زميلى فى مجلة « اكتوبر » شابا متواضعا . فلا أذكر انه تحدث مرة واحدة عن ترجمته لهذه الوثيقة التاريخية ، إلا بكثير من الخجل . ولما اهدانى المجلدات التى ترجمها ادهشنى ذلك .. فالكتاب صعب . وليس جذابا . ولا هو يستهوى القارىء . ولم يكن يتوقع هو ـ ولا انا ـ اية

شعبية لمثل هذه الكتب التاريخية .. ولابد أن الناشرين قد جاملوه كثيراً جداً حين رأوا صبره وتواضعه وجديته وقناعته بأى مبلغ من المال يقدمونه له ..

وذهب الرجل دون أن يلقى ما يستحقه من تقدير علمي وأدبي .. فهو أيضاً أديب - ما فى ذلك شك . وكانت له قصص قصيرة ورواية وترجمة لمسرحية « موتى بلا قبور » للفيلسوف الوجودى سارتر وكتب أخرى فى التاريخ ومجموعتان قصصيتان هما : « المطاردون » و « المصيدة » ورواية عن الوحدة والانفصال عن سوريا اسمها « السماء تمطر ماء جافا » .. وترجم كتاب « تطور مصر » (١٩٢٤ - ١٩٥٠) لمارسيل كولومب وكتاب « فصول من التاريخ الاجتماعى للقاهرة العثمانية » لاندريه ريمون ..

أما لغة المرحوم زهير الشايب فمتينة التركيب قوية البناء فصيحة وعباراته طويلة ، فنفسه طويل أيضاً . ثم أنه يتذوق جميل الكلام وهذا واضح فى اختياره لألفاظه . وقد فشلت كل محاولة لأن يكون صحفيا بحتا ، أى يضع « الخبر » تاجا فوق رأسه وبعد ذلك يفعل له ما يشاء : يغنى يرقص يتشقلب . فالخبر هو صاحب الجلالة الصحفية . أبدا ! لقد ظل زهير الشايب مفكرا ومحللا سياسيا فهو جمهورى التفكير لا يكتب إلا بعد استفتاء شعبى حر .. وليس ملكى الأداء ، يكتب بالأمر وعلى السمع والطاعة - عاش فنانا ومات مفكرا !

وقد قابلت السيدة زوجته أكثر من مرة ونسيت أن أسألها عن كيف ترجم هذه الفصول الصعبة خارج البيت - فأنا شخصيا لا أعرف كيف أكتب سطرا واحدا خارج البيت .. كيف استطاع هو أن يظل تلميذا يقرأ ويكتب ويترجم فى المكتبة العامة - لعلى أسألها يوما !

وعندما يتحدث عامة المثقفين فى الوطن العربى كله عن « وصف مصر » سوف يذكرون المفكر الوحيد الذى استطاع أن يفعل شيئا عظيم الاحترام سوف يذكرون زهير الشايب كما يذكرون الاستاذ محمد بدران الذى ترجم مع آخرين « قصة الحضارة » - ٤٢ جزءا - للكتاب الأمريكى العظيم وول ديورانت ويذكرون ابراهيم خورشيد الذى ترجم مع آخرين « دائرة المعارف الاسلامية » والتى لم تكمل مع الأسف .

ويقول الأستاذ زهير الشايب أنه فكر فى ترجمة موسوعة « وصف مصر » بعد الهزيمة العسكرية ١٩٦٧ عندما أحس الناس بالصدمة .. وبدأ الناس يتشككون فى تاريخهم وأمجادهم وبعد أن تزعزعت ثقتهم بأنفسهم .. فاستداروا

يبحثون عن مصر وما هي ومن هي .. وكيف كانت وكيف ينبغي أن تكون .. وراح الناس يبحثون عن الذات .. ذواتهم وذات مصر وحاضرها وماضيها الحزين ومستقبلها المجهول .. فهذا الاهتمام بمصر هو الذى دفعه الى أن يقدم صورة لما كانت عليه مصر فى القرن الثامن عشر وباقلام عدد من الشبان المخلصين .. جاءوا مع جيوشهم . انهزمت جيوشهم وانحسرت أمجادهم ، ولكنهم ظلوا يكملون بالصبر والوعى والثقة بالنفس ، المهمة التى كلفهم بها القائد العبقرى نابليون ..

وقد اختار زهير الشايب ما كتبه العلماء الشبان الفرنسيون عن مصر المعاصرة لهم . وجاءت ترجمة زهير الشايب فى تسعة أجزاء :

١ ـ المصريون المحدثون .
٢ ـ العرب فى ريف مصر وصحراواتها .
٣ ـ دراسات فى المدن والأقاليم المصرية .
٤ ـ الحياة الاقتصادية فى مصر فى القرن الثامن عشر .
٥ ـ الحياة الاقتصادية فى مصر ـ النظام المالى والادارى فى مصر العثمانية .
٦ ـ الحياة الاقتصادية فى مصر ـ الموازين والنقود .
٧ ـ الآلات الموسيقية المستخدمة عند المصريين المحدثين .
٨ ـ الموسيقى والغناء عند المصريين المحدثين .
٩ ـ الموسيقى والغناء عند قدماء المصريين .

ولم يشأ زهير الشايب أن يغير معنى أو عبارة . فاذا قرر أن يضيف أو يحذف ذكر ذلك . مثلا . يقول :

١ ـ حذفت من الجزء الخاص بالأقباط نصف جملة ـ فقد وجدتها لا تليق !
٢ ـ حذفت هامشا كاملا أثار عند نشره فى مجلة « الثقافة » ردود فعل لم أكن أتوقعها . الهامش أربعة سطور .
٣ ـ حذفت آخر عبارة فى الكتاب ـ سطرا ونصفا ـ حتى لا يفسد مذاق الكتاب على لسان القارىء ، فالمؤلف كان دقيقا منصفا ..

* * *

لقد كان سكان مصر على أيام حملة الفرنسية مليونين و ٤٢٢ الفا ـ هذه الأرقام أخذوها عن سجلات الضرائب العقارية الممسوكة بأيدى الاداريين الأقباط .

وعدد القرى ٣٦٠٠ ومتوسط سكان القرية ٥٢٤ نسمة .

أما عدد سكان القاهرة وحدها فكان ٢٦٠ ألفا من المماليك والتجار والأجانب .. المماليك : ١٢ ألفا .. وأصحاب الأملاك : ستة آلاف .. والتجار ٤٠٠ .. والحرفيين ٢٥ ألفا .. والخدم ٣٠ ألفا .. والشيالون ١٥ ألفا ـ عدد الذكور ٩٩ ألفا وعدد الاناث ١٢٦ ألفا و٧٥ ألفا من الأطفال و ٢٦ ألفا من غير المتزوجين ..

أما عدد الحمير التى تنقل المواطنين فعددها ٣٢ ألف حمار .. فالمصريون لم يكونوا يعرفون العربات .. ولذلك ينتقلون على ظهور الحمير وكذلك بضائعهم ..

وكانت التقاليد فى ذلك الوقت اذا كان أى مصرى على ظهر حمار ، ورأى مملوكا أيا كانت قيمة هذا المملوك فلابد أن ينزل فورا احتراما له ..

وكذلك يفعل اليهود والأروام .. أما مصر القديمة فعدد سكانها ١١ ألفا وعدد المسيحيين فيها ٦٠٠ نسمة ..

وأكثر المصريين عرب استقروا فى هذه البلاد وارتبطوا بالأرض .

أما العربان فقبائل تنتقل بخيامها فى الصحراء . وهؤلاء العربان لا يخضعون لأى قانون ، إلا قانونهم ومشايخهم ، بل ويتجاهلون سلطة الباشا والبك . وعددهم أربعون ألفا ..

وقبائل العربان فى المنصورة اسمها : درنه والبوارشة وحسن طوبار.

وفى البحيرة : الهنادى وأولاد على وهى أقوى قبائل مصر .

وفى الشرقية : نلى ورفاعات وسموانى وأولاد على والحيوان وجميلة وجميلات .

وفى قليوب : الصوالحة وجهينة والحويطات والعبابدة وطرايق .

* * *

وعلى الرغم من أن علماء الحملة الفرنسية كانوا من الشبان الصغار ، وانهم قد رأوا مصر والشرق كله لأول مرة ، فان ملاحظاتهم دقيقة نافذة وتبعث على الدهشة والاعجاب . ومن أجمل الدراسات ما كتبوه عن المصريين : تكوينهم النفسى والعقلى وعاداتهم وأسباب تخلفهم وكيف يمكن دفعهم الى الامام .

ففى مصر شعوب كثيرة وعادات متضاربة ومختلفة .. ولذلك « ساحت » هذه العادات بعضها على بعض .. فاتخذت ملامح المصريين هذه الصورة « المحايدة » ـ اى عدم التأثر بشىء حولهم .. فالمصرى لا يظهر عليه الضيق او

الفرح .. فأنت لا تعرف ان كان مهموما أو سعيدا .. صبورا أو متحفزا .. لا شيء من ذلك يبدو على وجهه .. فملامحها عموما جامدة ..

ويحاول الباحث الفرنسى ان يجد تفسيرا لذلك .. فيقول : لعله الطقس المعتدل على الدوام . الثابت . الهادىء . الذى لا يتغير ولا يخفى أية مفاجآت من أى نوع .

أو لعله ايمان المصرى بالقضاء والقدر . والرضا بما قسمه الله له .. فكل شيء يبعث به ربنا خير . وليس فى الامكان ابدع مما كان ومما هو كائن ومما سيكون .. أو لعله قد تعرض كثيرا لنزوات الطغاة والظالمين .. يحاسبون على أقل اشارة أو كلمة .. ولذلك فهو لا يبدى شيئا بالاشارة أو الكلام . فهو قد أطبق شفتيه ، وأطفا نور عينيه خوفا من الظالمين .. ولذلك يتفادى أن يبدى شعوره .. وقد اعتاد على الظلم ، واعتاد على أن يواجه ذلك بالصمت أو بهذا « التلسين المستعذب » . كما يقول الباحث الفرنسي .. أى بالاستسلام مع الرضا ، كأنه يجد متعة فى هذا العذاب .. تعذيب نفسه بالسكوت ، وتعذيب ظالمه بعدم التألم أمامه .. فلا فائدة من البكاء والصراخ أمام ارادة الطغاة .

فالمصرى يتعذب كثيرا ولا يقول : آه ـ لأنها ارادة الله . والله أكبر .. ثم أن الله يمهل ولا يهمل .. ثم هو غفور رحيم .. وهذه هى الكلمات التى يقولها المصرى عندما يخلو الى نفسه يجتر هوانه وعذابه ويأسه من فرج الله .

والمصرى انسان خجول .. ولكن يجب ألا يتصور الأجانب أن هذا المصرى أبله أو معتوه لأنه يفعل كل شيء بغير اكتراث . فالمصريون تجدهم طول النهار مقرفصين أمام بيوتهم .. أو جالسين على الأرائك فى خمول وبلادة لا يشغلون انفسهم الا بالتدخين . كل الناس تدخن النارجيلة .. فهم فى حالة من الخدر والدوخة ، فلو صدر على الواحد منهم حكم بالاعدام ، فلن يندهش !

ولكن الصمت والهدوء يجعلهم فى غاية النشاط والحيوية والجرأة اذا أرادوا . وقد اكسبهم الصمت الطويل قدرة فريدة على الانتباه والمتابعة وكذلك ذاكرة قوية . حتى لتندهش كيف أن هؤلاء الناس النائمين على روحهم قد لاحظوا وفهموا كل شيء رغم أنهم فى حالة من هذا السبات العميق ..

ونصف ملذات المصريين يقضونها فى الحمامات الشعبية التى فيها الماء الساخن والبخار والدخان ومن يدلك القدمين والظهر والبطن مستخدما الأحجار الملساء أو الفوط الخشنة الساخنة ـ وهذا يتناقض تماما مع المجتمع الأوروبى

الذى لا يطيق اضاعة كل هذا الوقت فى بلادة وكسل .

ويضاف الى كل ذلك : غياب القانون .. لا قانون .. ولذلك فكثير من النشاط الانسانى معطل .. وكذلك الصناعة والتجارة ..

ثم تجيء حرارة الجو فتضيف الى كل ذلك مزيدا من التراخى والكسل واللامبالاة !

واذا نظرت الى الفلاح فى الريف فستجده اتعس مخلوقات الله على هذه الأرض ، ولكنه فى صحة جيدة . نحيف وملامحه الطف من ملامح أبناء المدينة . شديد العناية بلحيته وتنسيقها . ولكن كيف ينشط هذا الفلاح وهو يزرع ويقلع ويجني ، وكل خيرات الأرض لغيره .. فكل جهوده القليلة لا تعود عليه بشيء .. فخيرات الأرض للسادة وللدولة .. أما هو فعليه أن يجمع الفتات ـ ان استطاع ـ من أى مكان ..

ثم ان هذا الفلاح : خائف دائما .. متواكل راض بالقليل .. وهكذا فان هذا الانسان التعيس يروى بقطرات عرقة أرضا لا تعطيه الا القليل جدا .. أما الباقي فهو يحمله على ظهره مثل الحمار تماما الى السادة فى المدن .. فلماذا يعمل ؟

ويقول الباحث الفرنسى أن كل الصناعات فى مصر فريسة الاستبداد .. أما التجارة فهي النشاط الانساني الوحيد المزدهر فى مصر .. لا بتشجيع الدولة ، وانما لأن مصر لها موقع جغرافى فريد .. ولذلك فليس أمام المصريين إلا أن يتاجروا .. أما السبل الأخرى فقد انسدت فى وجوههم : لا مراكز ولا مناصب ولا مجد ..

وسوف تتعاظم المصائب والكوارث فى هذا البلد مادام الشعب مقهورا ساكتا على الظلم سلبيا خاملا . وربما كانت « نعمة » من عند الله الا يتعذب هذا الشعب بالآلم والمحن التى تتناوبه يوما بعد يوم .

ومما يبعث على الدهشة حقا أن الفلاح لا يتعب من العمل . وكذلك العامل .. وانك لترى السايس يجرى ساعات وراء وأمام حصان السيد المملوك . ولا يظهر عليه التعب ..

أما القاهريون فهم اعداء الحركة . فالواحد منهم لكي ينتقل من بيته الى دكانه فانه يركب حماره .. وتكون المسافة قصيرة ولكنه يفضل ان يظل جالسا : أمام البيت .. أمام الدكان .. على ظهر الحمار ..

وكل شيء مجهول فى مصر : إلا الحدائق ! والحدائق ملحقة بكثير من البيوت . مساحات صغيرة غير منسقة . فالمصرى لا يزرع الحديقة ليتأمل جمالها . أبدا .. وانما لكى يزرع فيها الخضراوات ليأكلها على مدار السنة . ولذلك فهى « هوجة » من الأشجار والأعشاب بلا ذوق !

والفلاح رغم كل ذلك بشوش وشديد التناقض . فبرغم الذل والجوع والهوان الذى يعيش فيه تجده باسم الثغر قويم العود .. ينام تحت الأشجار فى جو شديد الحرارة وعلى أرض ساخنة ساعات طويلة .. ان دقائق فى هذا الجو تكفى لقتل أكثر الأوربيين صلابة وصبرا !

* * *

ومن أوجاع المصريين : آلام الأسنان . وليس سببها افراط المصريين فى الأكل . ورغم انهم يغسلون أفواههم بالماء والصابون بعد كل طعام ، فان أسنانهم شديدة التسوس .. وقد لاحظ المؤرخ هيرودوت ذلك عندما جاء الى مصر . فتحدث عن الأطباء وقال أن من بينهم اطباء تفوقوا فى علاج الفم ..

ولابد أن يكون السبب هو بعض أنواع الطعام (طبعا لم تكن الحملة الفرنسية تعرف أن تسوس الأسنان من الممكن أن يكون لسبب نقص الفيتامينات والكلسيوم أو من حالة العصبية أو الدخان الردىء جدا الذى يتعاطاه معظم المصريين) .

* * *

ومن عادات المصريين الغريبة انهم اذا قصوا شعورهم ، فأنهم لا يلقون بالشعر فى الزبالة . وانما يلفونه بورقة ويضعونه بعناية فائقة فى شقوق الجدران !

والحلاق المصرى هو انشط صنايعى فى مصر وأبرع حلاق فى العالم كله . وخصوصا اذا حلق لك راسك بالموس !

* * *

ومن عادات المصريين الزعيق فى الشوارع فى كل أوقات الليل والنهار .. وتجد اناسا ممزقى الملابس يتلاحمون بالأيدى ويهدد الواحد الآخر بالعصا أو السكين .. ثم لا يذهب أحد الى أبعد من ذلك .. وتنفض الخناقة كأن شيئا لم يحدث !

* * *

أما « السقاء » فهو رسول الغرام بين المحبين .. وهو الذى يحمل الرسائل الغرامية والأسرار ويتقاضى أجرا على ذلك !

* * *

ومن عادات المصريين أن الرجل لا ينام الى جوار زوجته .. هو فى غرفة وهى فى غرفة أخرى .. أما الفقراء فينام الرجل عند ركن وتنام الزوجة عند الركن المقابل له !

* * *

أما التقاليد والعادات فى مصر فهى « غليظة » خشنة .. وسبب ذلك أن المرأة ليس لها دور فى الحياة الاجتماعية .. ولذلك فسلوك المصرى : عنيف متهور خليع خشن .. ولن تتغير هذه العادات إلا إذا دخلت المرأة فى الحياة الاجتماعية ، وكان لها رأى فى البيت ايضا .

* * *

المصرى يتفادى الخطر بأى شكل . ولكن عندما يكون مضطرا فانه يصبح قويا . شجاعا .

ولذلك يقول الباحث الفرنسى أن اصلاح أداة الحكم فى مصر سوف تغير من عادات المصريين .. وسوف ترد اليهم كل الفضائل التى فقدوها وكل القوى الكامنة فيهم ولا يعرفون انها موجودة جاهزة للعمل فى أى وقت .. وسوف يتمرد المصرى على كل هذه الانظمة الشيطانية التى نكست رأسه وأذلت كرامته .. سوف توقظ فيها كل مشاعر النبل والهمة وعظمة الروح التى يستمتع بها .. ان أنظمة البكوات والباشوات قد أفسدت معنويات المصريين ..

* * *

فالمصرى ذليل منكسر لأنه مرغم على أن يجارى الأقوياء وهو يحتقرهم . أما اذا أصبح المصرى غنيا فانه ينقلب هو الآخر شيطانا لعينا ينتقم من الفقراء ويصفى حسابه معهم !

* * *

والفلاح أو العامل لا يستحى أن يتسول .. ليظهر ضعيفا مسكينا أمام الاغنياء والأقوياء .. فاذا أعطيته عشرة تسول منك واحدا .. لماذا ؟ لاتفهم .. وقد حدث ان طلب أحد الأغنياء من ضابط فرنسى خمسين جنديا بسلاحهم .. فوافق الضابط .. فاذا بالمصرى يقول له : طيب خليهم واحدا وخمسين علشان

خاطرى .. يعنى ايه واحد كمان .. مش حاجة !

وضحك الفرنسيون لهذا السلوك الغريب .. ولكن التسول عادة مصرية على كل المستويات !

* * *

ومن النادر أن نسمع عن سرقة بيت .. أى بيت .. بل ان التجار يضعون بضائعهم الغالية على الأرصفة فلا يتقدم لنهبها أحد .. ويتركون دكاكينهم مفتوحة فلا يسرقها أحد .. شيء عجيب !

وربما كان السبب هو قسوة العقوبات التى يوقعونها على اللصوص !

* * *

* * *

وآخر ما أنقله عن الجزء الأول من كتاب « وصف مصر » الذى ألفه ج دى شابرول (٢٩ سنة) وترجمه زهير الشايب : عن خوف المصريين والنوبيين من رسم الصور الانسانية .. يقول السيد شابرول أن المصريين يجهلون كل ما يتصل بالفنون الجميلة .. وهذه حادثة تدل الى أية درجة هم جاهلون بذلك . يقول شابرول أن فناننا جلس فرسم أحد النوبيين .. وكان النوبى سعيدا برؤية الخطوط .. ولكن عندما بدأ الرسام يضع الألوان انزعج النوبى وهرب وهو يصرخ : لقد قطع رقبتى ووضعها على الورق !

وكأن هذا النوبى يطلب الى زملائه أن يتفرجوا من بعيد على مجموعة اللوحات التى رسمت عليها رؤوس وسيقان .. وكانوا يرون فى ذلك شيئا مرعبا .. ثم جاء الرسام الفرنسي وأجلس أمامه سيدة ورسمها أيضا .. فقالت له : ولماذا قطعت رأسى وذراعى ؟ !

ويقول شابرول ان المسيحيين فى مصر يعتقدون أن كل الصور هى للقديسين فقط .. ولذلك فهم يركعون أمامها فى كل مرة يدخلون مرسم هذا الفنان .. وكانوا يقبلونها فى خشوع شديد !

* * *

* * *

عندما جاء الفرنسيون الى مصر وجدوا ما لا نهاية له من الاحجار : الأهرامات والوجوه المصرية . وحجر رشيد .. وحاولوا قراءتها جميعا .. ونجحوا فى ذلك !

٢ ــ الأرض الزراعية هي أعظم مصانع مصر !

أروع الدراسات التى كتبها علماء الحملة الفرنسية كانت عن الأرض الزراعية فى مصر : عن الأرض طولها وعرضها وعمقها ومساحتها ومدى احتياجها للماء وعن الترع والمصارف ـ أو نقص الترع والمصارف وعن جميع الحاصلات الزراعية وسبب ضعفها ..

فقد درس علماء الحملة الفرنسية كل ورقة خضراء على أرض مصر وكل الحيوانات وماذا يأكل ويشرب المصريون وماذا يستوردون ويصدرون وثمن كل ذلك .. ودرسوا الموازين والمكاييل .. لقد أدخل الفرنسيون كل شيء فى معادلات حسابية اقتصادية .

وبمنتهى الذكاء والصدق انتهى علماء الحملة الفرنسية الى انه لن تتطور الأرض الزراعية إلا إذا قام المصريون بثورة فى نظام الرى والزراعة . وهذا لن يتحقق إلا إذا قامت فى مصر حكومة عاقلة مستنيرة . هذه الحكومة تفتح عيون المصريين على أرضهم فيعرفون ما فيها من خامات وخيرات وفتح عيونهم على أنفسهم فيعرفون ان من حقهم أن يزرعوا وأن يحصدوا وأن يتحرروا ..

ويؤكد علماء الحملة الفرنسية من معايشتهم للمصريين أن هذا التطور قادم لا محالة . فقد لاحظوا ان اختلاطهم بالمصريين قد جلعهم يتعلمون بسرعة . وهذا التعلم يعيد اليهم احترامهم لأنفسهم . ولكن مادام الفلاح المصرى لا يحتاج الى مجهود كبير فى الزراعة أو الصناعة ، اى مادام لا يجد مشقة فى الذى يتعلمه ، فلن يفكر فى البحث عن أساليب تخفف عنه هذه الأعباء . وهو لن يبحث عن أساليب تخفف عذابه ، إلا إذا كان هو المستفيد الأول من الأرض والزراعة والصناعة .. وترى الحملة الفرنسية ان أهم نقطة تحول فى حياة الفلاح

المصرى هو أن يملك هذه الأرض !

هذا باختصار ما اهتدى اليه هؤلاء العلماء الشبان بذكاء وصدق وموضوعية . ولم يذهبوا بعيدا عن الحقيقة التاريخية التى عرفها الفلاح وتعذب بها ، ثم تخلص أو حاول ذلك ، حتى تحققت له السيادة على أرضه وعلى يده وعلى عقله وعلى ماله ..

لقد كان نابليون (٢٩ سنة) عبقرية فريدة فى التاريخ عندما أدرك بعد أيام من اقامته فى مصر ان الأرض الزراعية هى أعظم مصانع مصر !

بدأ علماء الحملة الفرنسية دراساتهم الدقيقة بأن ركبوا الزوارق فى النيل وساروا على أقدامهم فى عز الصيف . وتساقطوا من الاعياء . ولكنهم لم يتوقفوا ولم يتراجعوا .

أما معلوماتهم فكانوا يجمعونها من مشايخ القرى ومن الفلاحين انفسهم ومن كل واحد يستضيفونه ليركب معهم الزوارق .. وإذا حصل الباحث الفرنسى على معلومتين متناقضتين كتب المعلومتين ثم أبدى رأيه .

ولكنه كان حريصا على تسجيل كل ما يقال له من حكايات .. أما الذى يدرسه بنفسه ويحلله فانه يؤكد لنا انه وحده المسئول عن ذلك !

وعندما أصبح الجنرال كليبر قائدا للحملة الفرنسية اصدر أوامره لكل رجال الجمارك فى الموانى المصرية بكتابة كل شىء وتسجيله .. كميات وأسماء ومستحقات كل ما يرد الى مصر وكل ما يصدر عن مصر .. حتى جمارك روض الفرج كانت تسجل بالضبط عدد القلل والبلاليص الواردة من الصعيد وعدد قفف الملوخية التى تدخل مصر وأوزان « زبل الحمام » أيضا ؟ ! وعدد البرادع التى يصنعونها فى الصعيد ويبيعونها فى مصر كل شىء مكتوب ومسجل بمنتهى الدقة . وقد اعتمد علماء الحملة الفرنسية على هذه البيانات الدقيقة فى تسجيل الميزان التجارى لمصر . وكانت أوامر الجنرال كليبر واضحة : لا تسجلوا إلا ما سجله المصريون . ولا تنقلوا إلا ما كان مكتوبا . دون تدخل من اى أحد !

ومن تعليمات الجنرال كليبر ايضا : نحن هنا فى مهمة على درجة عالية من الاحترام . ولذلك يجب أن نكون محترمين لأنفسنا وغيرنا لتحترمنا الأجيال من بعدنا !

ونحن اليوم نكن لهم عظيم الاحترام .. فقد درسوا وتعبوا وسجلوا وقدموا وحللوا وعللوا . أما توقعاتهم فقد حققتها الأيام !

وعلماء الحملة الفرنسية الشبان الصغار لم يرفعوا عيونهم عن الفلاح المصرى .. عن الذى يعمله فى الحقل . وكم يبذل من الجهد يومياً .

وكم يرفع من الماء . وما هى احتياجات مصر كلها من الماء . فقد درسوا الشادوف دراسة علمية دقيقة وكذلك الساقية ذات القواديس وذات الثقوب والقوة الانسانية والقوة الحيوانية لرفع المياه .. فحسبوا بالدقيقة كمية المياه التى يرفعها الانسان إذا استخدم جردلا واحدا أو اثنين أو ثلاثة .. فلاحظوا أن الفلاح يجذب الماء من الترعة الى ارتفاع ٢٨٨ سم وفى ٢٧ من مائة من الدقيقة . وفى كل مرة يرفع ٤٩ لترا فى الدقيقة . أى ما يعادل ٥٥ لتراً فى الدقيقة . وحسبوا كم يرفع فى اليوم .. وما هى ساعات العمل وساعات النوم .. وقارنوا ذلك بالعامل الفرنسى ..

ثم وصفوا النورج .. وانشغلوا كثيرا جدا بكيفية تطوير هذه الآلات البسيطة .. وماذا لو استخدم الفلاح المصرى طواحين الهواء لرفع الماء ولطحن الغلال وتبييض الأرز ..

وقالوا : ان الفلاح المصرى إذا لم يجد مصدرا آخر للطاقة فإن الزراعة والصناعة لن تتطور أبدا ، كما تطورت فى أوروبا !

والفلاح المصرى ليس لديه أى استعداد للتطور . ولذلك احتفظ بهذه الأدوات البسيطة : المحراث والنورج والشادوف والساقية .. والمحراث لا يشق التربة وانما يخربشها فقط ..

وفى ذلك توفير لطاقة الفلاح وطاقة الحيوان أيضا . ومادام يزرع ويقلع على وجه التربة فقط فانه يرهق هذه التربة .. والأصح هو ان يتعمق التربة .. أى يخرج طبقات منها لتتعرض للهواء والشمس ثم ان الفلاح المصرى إذا اراد أن يسوى التربة فانه يأتى بجذع نخلة ويجلس فوقه وتجره البهائم ..

وإذا أراد ان يفصل حبات القمح عن السنابل ، فانه يأتى بالبهائم لتمشى ذهابا وايابا فوق سيقان القمح .. أو انه يستخدم النورج ليحول سيقان القمح إلى تبن ، ثم ليفصل حبات القمح عن السنابل أيضا ..

والفلاح المصرى مسكين حقاًوليس لعذابه نظير فى الدنيا . فهو يزرع ويحصد لغيره من أصحاب الأراضى ومن البكوات والباشوات اما هو فمثل الحمار وسيلة نقل من القرية الى القاهرة حيث يعيش السادة فى النعيم المقيم .. ولذلك فهو يرى الأرض مصدرا لعذابه وتعاسته ..

ولم يكن البكوات والحكام فقط الذين ينهبون الخيرات وانما هناك نوع من « الجراد » يأكل كل شيء .. هذا الجراد هم « العربان » الذين يعتدون على الفلاح المصرى من الشرق والغرب .. يخطفون ويسرقون ويقتلون ويستولون على أرضه بالقوة .. وهؤلاء العربان الذين يعيشون فى الصحارى الشرقية جاءوا من اليمن .. والذين يعيشون فى الصحراء الغربية جاءوا من تونس من حوالى ٢٥٠ عاما ، واستقروا فى مصر . وهم يتعالون على الفلاح المصرى الذى انكسر ظهره على الأرض يعمل بيديه .. اما هم فلا يعملون انما يركبون الخيول ويستخدمون السيف والنار .. وهؤلاء العربان يقاومون سلطة الدولة .. وهم دولة داخل الدولة .. حتى ان واحدا من قبائل الهوارة اسمه الشيخ همام حكم صعيد مصر كله واقام حكومة عاصمتها فرشوط . وكان يجمع الاتاوة من الفلاحين : مائة وخمسين أردب قمح سنويا يقدمها للبكوات والباشوات فى العاصمة .

وكان الشيخ همام رجلا عادلا معتدلا .. ولذلك احس الفلاح المصرى معه بالامان والاستقرار

.. وقد أرسل المماليك جيشا من ٣٠ الف جندى بقيادة محمد ابو الذهب لمحاربة الشيخ همام . وأعد الشيخ همام جيشا من ٢٥ الفا وقاوم ولكنهم انتصروا عليه . وهرب الشيخ همام الى مدينة اسنا وتوفى فيها سنة ١٧٦٩ . ولكن الفلاحين الصعايدة يحتفظون للشيخ همام بالسيرة الخرافية لقوته وعدالته . وعندهم قصص عن الشيخ همام مثل قصص أولياء الله الصالحين .. ولا توجد قصة واحدة تدل على ان الشيخ همام قتل أو سجن .. أو اغتصب .. أو سكت عن ظلم وقع على أى فلاح .. حتى البكوات الذين كانوا يختلفون مع زعماء المماليك كانوا يهربون الى الصعيد كانوا يلوذون بالشيخ همام شيخ مشايخ هوارة ..

ولم يترك علماء الحملة الفرنسية نشاطا لأى فلاح لم يسجلوه بدقة علمية .. فتحدثوا بتفصيل تام عن « المكامير » اى الغرف التى يكمرون فيها البيض حتى يفقس كتاكيت .. وهى عبارة عن بيوت من الطين من طابقين وبها من ١٢ الى ١٦ غرفة . وفى هذه الغرف يضعون البيض ..

البيض فى الطابق العلوى . ثم هم يقلبون البيض حتى يفقس .. وهذه المكامير يملكها الحكام .. وهى تنتج فى السنة ٢٠٠ الف كتكوت . والقاعدة هى ان كل فلاح يقدم ١٦ بيضة يسترد أربعة كتاكيت .. وثمن الكتكوت يعادل عشرة أمثال ثمن البيضة .. ومن كل ١٢ بيضة يفقس ٩ بيضات ..

وهذه المكامير قد توارثها الفلاح المصرى عن اجداده من الفراعنة . وهم لم يغيروا فيها شيئا على الاطلاق ..

ومن حين الى حين يتلقى موظفو الجمارك فى الموانى المصرية على البحرين الأبيض والأحمر وعلى النيل تعليمات من قائد الحملة الفرنسية بمراعاة الدقة والجيدة التامة وتسجيل كل شىء حتى يمكن الرجوع اليه فى عمل الميزان التجارى والدخل القومى للبلاد ! !

وكانت مصر تستورد من الموانى الفرنسية والايطالية كل احتياجاتها من فرنسا وبقية الدول الأوروبية .. تستورد : الجوخ والمنسوجات والذهب والفضة .. وكذلك ورق التغليف والصابون والعطور والحلوى والمجوهرات والماس غير المصنع .. والأسلحة الألمانية ونصال السيوف والرصاص والحديد والصلب من السويد ومن موسكو .. ومن انجلترا تستورد القصدير والزنك والجلود والقرفة والفلفل والمستكة والزنجبيل وكل انواع المشغولات الذهبية والفضية .

وقد أقام الفرنسيون مصانع للطرابيش فى مرسيليا لكى تصدر اجود منتجاتها الى مصر . ولكنها كانت أقل جودة من الطرابيش التونسية . وكذلك السكاكين والشمعدانات والاقفال والأمشاط والدبابيس . أما المجوهرات فكانت الساعات السويسرية والاقراط والأساور من باريس .

وكان الفرنسيون يسيطرون تماما على صادراتهم لمصر فلا تدخلها إلا السلع الجيدة . فقد اقاموا فى مرسيليا مكاتب لمراقبة جودة البضائع . ويقومون بتفتيش دقيق وفى غاية القسوة على كل صادرات فرنسا . ولابد ان تحصل كل الصادرات على « شهادة جودة » .

ومن غير هذه الشهادة لا تتحرك الى الاسكندرية . لأنهم فى ميناء الاسكندرية اقاموا مكاتب لمراقبة هذه السلع أيضا . ويشرف على هذه المكاتب القنصل الفرنسى نفسه ..

ويقوم مرة أخرى بفحص جميع السلع بمنتهى الدقة . ومن حقه إذا وجد غشا فى هذه السلعة فانه يعيدها الى فرنسا على نفقة التاجر الذى صدرها الى مصر . ولم يحدث مرة واحدة ان دخلت سلعة من أى نوع بغير شهادة جودة ، وبغير كشف دقيق عليها !

وعندما كانت البضائع تضيع فى مصر بسبب السطو عليها ، أو النهب ..

فكانت الحكومة الفرنسية تدفع تعويضا للتجار . أما التجار أنفسهم فكانوا يدفعون الكثير لكي تدخل السلع الى الأسواق .. فيعطون قروضا لا ترد ، ويتركون أدوات دون ثمن .

أما الصادرات من مصر الى فرنسا فكانت الأرز والقمح والزعفران وملح النوشادر والصودا والقطن المغزول . والأقمشة وجلود الجاموس والأبقار والجمال .. وتصدر مصر الكثير من السلع الواردة اليها من أواسط افريقيا مثل الصمغ العربى والعاج وريش النعام الوارد إليها من السودان والحبشة .. وكذلك الصبر والكركم . وهذه الصادرات الى فرنسا لم تكن ذات صفة منتظمة فهى تتغير فى الكم والكيف حسب الظروف ..

وإليك مثالا واحدا على دقة الجمارك المصرية ، تنفيذا للتعليمات الصارمة للجنرال كليبر :

فى ثلاث سنوات تلقى جمرك روض الفرج :

٣١٩ مركبا محملة بزبل الحمام الذى يستخدم فى تسميد التربة .

و ٥٦٠ مركبا من قصب السكر .

وأنثى ببغاء واحدة واردة من اعالى النيل .

و ٢١٥ قفة ملوخية ١٢٥٠٣ قلال فخار .

و ٢٧٠٦ خلايا نحل .

و ٢٤٣٢٣ بردعة حصان .

ومن « بلاد النصارى » قوائم بأسماء الواردات من اوروبا ..

ومن سوريا : تبغ وشرانق وخيوط دودة القز ..

ودهشة الفرنسيين لا تنتهى أمام ظاهرة غريبة جدا : ان الفراعنة قد حققوا المعجزات فى الصناعة مستخدمين أدوات من الحديد ومن الصلب فى الحفر وفى نفس الأحجار والمعادن . ومع ان الفراعنة كانوا يستوردون الحديد من الخارج ثم يحسنون استخدامه .. فلابد انهم كانوا متطورين الى أقصى درجة .. ولم يبق من هذه الصناعات أو الأدوات شىء فى مصر الحديثة .. بل ان الانسان لينظر الى روعة الاهرامات والمعابد والتماثيل ويندهش كيف ان المصرى الحديث لم يرسم صورة واحدة .. لم يقم تمثالا واحدا .. بل أنهم يخافون من رؤية الصور .. ان المصرى الحديث يبدو وكأنه قد خرج فورا من عالم الوحشية عاريا من كل زى ومن كل سلاح ومن كل ثقافة .. أما القصور المصرية التى يسكنها الأغنياء

والتى نشاهد فيها أعمدة من الرخام ، فهذه الأعمدة مسروقة من الآثار القديمة !

والمدن المصرية ليست إلا قرى كبيرة لا يعمل فيها إلا عدد قليل من الاقباط في صناعة المعادن أما اليهود والأرمن فيعملون في المجوهرات ..

والتفت علماء الحملة الفرنسية الى ما يمكن عمله في مصر ، وتطويرها حتى تلحق بالحضارة الاوروبية ..

أما صناعة الاقمشة من الكتان والقطن فسوف تبقى مصر متأخرة كما هى مالم تدخل تعديلات على ادوات الصناعة .. ولذلك سوف يصدرون هذه المواد الخام لتعيدها فرنسا ملابس واقمشة أفضل ..

وفي أستطاعة مصر ان تطور صناعة الصابون ففيها كل عناصر هذه الصناعة . وتاريخها طويل ..

ومن أهم النتائج التى وصلت اليها الحملة الفرنسية : ان سهولة الأداء عند العامل المصرى ، هى أول ما يعوق تقدمه .. لأن الصعاب والتحديات هى التى تشحذ الهمة وتدفع الى التطور .. ولذلك فلن يطور بهذه السهولة .. ومادامت الارض ليست في حاجة الى تخصيب مستمر : فالهواء والشمس تقومان بكل العمل ..

ومما اهتدت اليه الحملة الفرنسية في مصر ان المصرى إذا اختلط بالأوروبى فانه يتغير بسرعة . وعندما يتغير فان الخوف يزول . والثقة بالنفس ترتد اليه .. وتخف وطأة الخرافات التى يعيش بها ولم يفلت من قبضتها ..

ويقول علماء الحملة الفرنسية : بعد هذه الحملة الفرنسية سوف تتجه عيون الغرب الى مصر . وسوف تقع حروب كثيرة في هذه المنطقة . هذه الحروب هى التى سوف تكشف للمصريين أهمية ثرواتهم ، وخطورة موقعهم الفريد .. وهذا سيوقظ العزة والكرامة والحرص على الذات . وفي مواجهة هذا العدوان المستمر من الأجانب ، سيزداد المصريون صلابة وقوة . وهذه هى البداية الحقيقية للشعور الوطنى والرغبة في القوة والتقدم ..

ويقول العلماء أيضا : أن المصريين الآن أكثر استعدادا من أى وقت في تاريخهم كله ، لتطوير أنفسهم وأدوات حياتهم .

وخلاصة ما اهتدى اليه العلماء الشبان الأذكياء المخلصون : ان مصر إذا

حكمتها ادارة عاقلة مستنيرة فسوف يتعرفون على ثروات بلادهم وثروة أخرى هى طاقتهم وقدرتهم الفريدة على الصبر والمثابرة .. وأهم من كل ذلك ان يعرفوا كيف يكسبون من ظروفهم الفريدة فى التاريخ القديم والحديث !

٤ ـ المصريون أعظم الموسيقيين فى العصور القديمة

كلما قرأت فى كتاب « وصف مصر » ازددت اعجابا بهؤلاء الشبان الذين اتى بهم نابليون إلى مصر : هذا الصدق والاخلاص والصبر والاصرار والشعور بالعظمة ـ شعورهم بأن الذى يقومون به عمل جليل .. وأنهم أول من جاءوا وأول من رأوا وأول من حللوا وأول من أعجبوا وأول من نقلوا عظمة مصر إلى العالم كله .. وأن الحرب قد ذهبت بجنودها ، اما الذى بقى فهو السلام ورسل السلام وهم أبناء الحضارة الأوروبية فى صلاة دائمة للحضارة الفرعونية ..

وهؤلاء الشبان يؤكدون للقارىء أنهم تعبوا جدا .. ولكنهم يريدون أن يعرفوا .. ولذلك سجلوا كل الذى سمعوه .. كل صغيرة وكبيرة من أفواه الناس من كل لون ونوع ودين ولهجة .. ثم بعد أن سجلوا راحوا يناقشون ويحللون .. ولم نقرأ لهم كلمة غير مهذبة .. ولا عبارة واحدة فيها استهانة أو استخفاف بأحد .. وأنما هم مجموعة من العلماء اهداهم نابليون إلى مصر .. فكانوا عند المكانة التى وضعهم فيها نابليون

ولا أظن أحدا حتى من المتخصصين قد قرأ مثل هذه الدراسة التى كتبها شاب اديب عالم موسيقار مثل « فيوتو » الذى درس وارخ للموسيقى الفرعونية والقبطية واليهودية والحبشية والارمنية والنوبية .. وقد رجع إلى النصوص القبطية واليونانية والعبرية والحبشية فى كل الذى كتب وقد استغرقت الموسيقى تاريخا وأداء وشعرا وتراتيل ونوته وسلالم وطبقات ، ثلاثة أجزاء من الاجزاء التسعة التى ترجمها المرحوم زهير الشايب

أما العناء الذى واجه المترجم فلا يمكن أن يوصف لقد عاد إلى المشتغلين بالموسيقى ووضع كل الكلمات الصحيحة ونقل النوتة الموسيقية كما هى ـ وما

اصعبها وما أعقدها .. ولم يكن زهير الشايب موسيقيا ولا مشتغلا بهذا الفن الرفيع .. وهذا يؤكد صبره واصراره وصدقه وأمانته ..

وهذا الشاب فيوتو هو أعلم علماء الحملة الفرنسية أجملهم عبارة وأوسعهم أفقا وأكثرهم تعمقا فى اللغات القديمة وأحساسا بجمالها وعمقها وهو أيضا صاحب منهج فلسفى وهو يقف وراء المعلومات والنصوص .. أى أنها هى التى تسبقه إلى عيوننا .. هو الذى يدفعها ويحركها .. ولكنه لايفرض عليها المعانى ولا التطور التاريخى الذى يطرأ عليها جيلا بعد جيل ـ منتهى الاخلاص ..

وهذه الاجزاء ان لم تكن من أمتع ماظهر بالعربية ، فهى من المؤكد أروعها وأصعبها وهى تؤكد استاذية الكاتب وبراعة المترجم .. !

* * *

لاتوجد نصوص موسيقية .. ولا كتب تاريخ عند الفراعنة ولا نوتة .. فقط رسومات للالات الموسيقية هنا وهناك .

أما الذى يحدثنا عن الفراعنة وموسيقاهم فهم الاغريق .. وفى مقدمتهم الفيلسوف العظيم افلاطون .. فهو الذى حدثنا عن العلاقة بين الموسيقى والتربية الوطنية والاخلاقية والدينية عند الفراعنة .. وقد احتقر افلاطون موسيقى الاغريق ورأى أنها تساعد على الانحطاط والانهيار .. وأن الذى يتحكم فى الموسيقى والغناء والطرب هو الذى يحكم الشعب وهو الذى يعبىء الجماهير إلى الخير والشر .. ولذلك كان أعجاب افلاطون بالفراعنة .. وهو يؤكد أن الاغريق هم تلامذة المصريين فى الموسيقى والغناء والانشاد والتأليف الغنائى أيضا ـ وأن لم يكونوا تلاميذ مخلصين ـ وهذا واضح فى الشعر والفلسفة والفيزياء والرياضيات والفلك والطب والعمارة والنحت ـ وكل هذا كلام الفيلسوف افلاطون .

وقد عرض أفلاطون للموسيقى المصرية فى كتابه الشهير المسمى « القوانين » وفى كتابه العظيم « الجمهورية » .. وكان فى ذلك شاهدا عبقريا صادقا على العصر .. وكان شاهدا مفتونا بالموسيقى الفرعونية ..

وقد اهتزت الموسيقى فى مصر الفرعونية ، كما اهتز الشعب كله عندما اجتاحت القوات الفارسية أرض النيل .. فقد نقل الفرس إلى مصر الموسيقى الاسيوية .. وهذه الموسيقى هى التى افسدت الموسيقى المصرية التى تتسم بالطابع الصوفى الرجولى ..

أما البطالمة فقد جاءوا من الغرب وبسطوا حمايتهم على الفن وكان اهتمامهم به بالغا .. وقد تأثر بهم المصريون .. وتذوقوا الموسيقى الغربية ولكنهم فى نفس الوقت طعموها بالذوق المصرى الرفيع حتى أصبحت الموسيقى المصرية هى أعظم الفنون فى العالم كله ..

أما المؤرخ ديو دور الصقلى فيرى أن المصريين يكرهون الموسيقى الناعمة الرخوة المخنثة لأنها ترهق الروح إذا استسلمت لمشتهيات الجسد .. وهى بذلك تحط الاخلاق .. ولذلك نفر المصريون من كل أنواع الموسيقى الوافدة من الشرق والغرب ، إذا هى جعلت الانسان كسولا خاملا ، أو حيوانا يشتهى فقط .

يقول أفلاطون : إن الموسيقى المصرية هى أروع صورة لكمال الفن ، وذلك لرفعتها وسموها وحيويتها وجمال تكويناتها ..

والآثار الفرعونية لاتساعدنا كثيرا فى بيان هذه المعانى التى يحدثنا عنها الفيلسوف أفلاطون .. ولكنه جاء إلى مصر ورأى وسمع وناقش وحلل وقارن ومن انطباعاته وتحليلاته اهتدى إلى أن موسيقى مصر وغناءها هى أعظم ماأبدع فى كل العصور القديمة .. ومعنى ذلك أيضا أن الفنان المصرى القديم قد بدأ تطوره من عصور سابقة .. وأنه رغم الاختلاط والغزوات فإنه استطاع أن يبقى شامخا .. وهذا يؤكد عظمة الفنان وعظمة الشعب الذى يأخذ ويعطى ويستمر فى العطاء ..

يقول افلاطون أن المصريين لهم نظرية بسيطة فى مقياس حضارة أى شعب ، أما المقياس فهو : أن الشعب الذى يتذوق مباهج الحياة مهما كانت بسيطة أو صغيرة ، ويساعده ذلك على أن يتماسك اجتماعيا وأن يعمل فى سلام وعافية ، هو الشعب المتحضر .. والذين تساعدهم مباهج الحياة هم الذين يعرفون كيف يتذوقون .. وكيف يختارون هذا الذى يستطعمون .. فالبهجة غير السرور ..

فالبهجة أعمق : أنها السرور مضافا إليه الحكمة والتوازن الجسمى والنفسى والاجتماعى .. وكذلك كان المصرى القديم .. وهذه البهجة تجىء من الموسيقى وتجىء من تذوق الكلام البليغ .. كلام الخطباء او كلام الشعراء .. والفرق بين بلاغة الخطباء الشعراء : أن الخطيب الفرعونى كان ينتقى العبارات القوية وفى نفس الوقت تصاحبه الموسيقى .. فهو يخاطب والموسيقى تحوطه بأجنحتها وترتفع به .. أما الشاعر فهو الذى نقل الفرقة الموسيقية إلى كلماته .. فهو

الخطيب وهو الموسيقار معا .. فموسيقاه داخلية .. تخرج منه بينما الخطيب هو الشاعر بين الأروكسترا .. والشاعر هو الخطيب وقائد الاوركسترا والاوركسترا معا .. ولكن لابد من البلاغة والفصاحة والموسيقى .. فالشعب الذى يجد البهجة فى هذه الفنون معا ، هو الشعب المتحضر .. وكذلك كان الفراعنة ـ هكذا قال أفلاطون ..

ولذلك يقول الباحث الفرنسى فيوتو : أن اثر هذه الموسيقى والغناء واضح على وجه الفلاح القديم : هذا الرضا هذه البهجة تجعلك تحس كأنه يستمع إلى موسيقى داخلية وهو يحرث ويزرع وهو يجنى .. ثم يعمل وفقا لايقاع موسيقى داخلى .. راض عنه تمام الرضا ومن الرضا والتذوق واحتمال الحياة تتكون البهجة المصرية ..

وتقول أساطير المصريين أن اوزوريس هو الذى خلص المصريين من الحياة البدائية ومن الهمجية .. وهو الذى أعطاهم قوانين الفكر وقواعد الحياة .. وهو الذى ضبط أيقاع حياتهم النفسية والعقلية والاجتماعية والدينية .. فهو الذى علمهم الصلاة وأحترام المقدسات .. وهو الذى نقل المصريين من حياة البداوة إلى حياة الحضارة بلا عنف ولادماء .. كيف .. ؟

استطاع الاله اوزوريس تحصير المصريين وتحضيرهم ودفعهم إلى أعلى السلم الحضارى عن طريق تعميق مشاعر البهجة عندهم : وذلك بحلو الكلام نثرا وشعرا وبالموسيقى الداخلية والخارجية .

وأعتقد المصريون القدماء أن اوزوريس يدعوهم إلى الموسيقى بأسلوب خاص .. كان يرسل إليهم نداءاته مع أشعة الشروق والغروب ومع صوت البلابل ومع زهور الحقل .. فلم يكن اوزوريس صوتا ينادى وانما كان يستخدم الرموز .. هذه الرموز هى كل مفردات الجمال فى السماء والأرض .. وكان المصرى القديم إذا رأى شيئا جميلا واستوقفه هذا الشىء الجميل كان يقول : نعم يااوزوريس .. اى ان الاله قد ناداه فاستجاب النداء . أما الذى يفعله المصرى القديم بعد ذلك فهو يعزف أو يغنى أو يطلب من أحد أن يفعل ذلك .. ومن الاساطير الاغريقية أن المصرى القديم اذا استمع إلى الموسيقى كانت ملابسه تسقط عنه . والحشرات تبتعد عن طريقه . كل ذلك بفعل الموسيقى فهى تشفيه جسديا وعقليا ايضا وكما أن أشعة الشمس لاتنفصل عن الشمس ، والامواج لاتنفصل عن النهر ، والزهور عن الغصون ، فالموسيقى لاتفارق

المصرى القديم .. تصدر عنه ، أو يتلقاها .. فحيث يكون تكون الموسيقى .. وهكذا علمه أوزوريس

وهكذا ظل أوزوريس معبودا .. مبدعا للتذوق الموسيقى .. ولذلك أعتقد الاغريق أن أوزوريس هو الاله باخوس وأنه صورة منه .. وأن أوزوريس هو باعث الموسيقى وراعيها وحاميها وخالقها عند الاغريق ايضا .. ولكن أوزوريس عندما ظهر فى بلاد الاغريق قد جاء متأخرا عن موعده فالشعب الأغبريقى لم يكن مستعدا لتلقى رسالته بينما المصريون قد تهيأوا تماما لذلك ولديهم استعداد فطرى لأن يمشوا فى الطريق الفاضل .. طريق السلام واللذات الرفيعة .. ولذلك كان أوزوريس مصريا منبعثا من مصر إلى مصر .. ليبقى فى مصر ايضا ..

* * *

ويسجل التاريخ إن أول مستعمرة مصرية فى بلاد الاغريق كان اسمها « ارجوس » وينطقها المصريون : ارجو ومعناها : الموسيقار .. او المشتغل بالموسيقى وهذا يدل على مدى النضج الموسيقى عند الفراعنة .. بل انهم كانوا يرون ان أعظم لقب من الممكن ان يوصف به انسان هو : الموسيقى او الموسيقار .. انه اعظم من الملك ومن الكاهن . فليس اسهل من أن يكون الانسان ملكا أو كاهنا ، وليس أضعف من أن يكون موسيقارا .. فالملوك والكهنة أولاد الشعوب ، ولكن الموسيقار هو ابن الاله .. وكذلك المطرب او المغنى او المنشد هو ابن السماء .. والمطرب يتصدر الناس ـ هكذا كان الفراعنة واليهود ..

وكان المصرى القديم عندما يمتدح مطربا فانه يقول : هكذا يغنى العقل .. او ما اجمل العقل ..

وهذا معناه ان الموسيقى هى التى تتجه الى العقل .. الى السمو .. وكذلك الغناء فالمطرب المصرى كالمستمع المصرى كلاهما ينشد : الرجولة والاستقامة الفضيلة والبناء .. المتعة والاتزان ..

والخطيب البارع هو الذى يختار ادق الكلمات واكثرها جمالا فاذا صاحبته الموسيقى ايضا كان اثره على الناس عظيما ..

وكان الشعراء يبدأون قصائدهم بمثل هذه العبارة : اننى اترنم اننى انشد اننى اتغنى ..

والشعر الفرعونى قد ظهر قبل النثر .. لان الغناء أقدم من الكلام ولان

الموسيقى اقدم من مجرد الاسترسال فالانسان اذا فرح غنى ، واذا حزن غنى .. واذا انفعل لجأ إلى الموسيقى لتجعله أشد وقعاً إذا نقل إلى الناس مشاعره ..

والناس كانوا يتناقلون الموسيقى والاغانى شفويا من جيل إلى جيل .. فلما اخترع الانسان الكتابة « كانت الكتابة هى عربة العلاقات الاجتماعية البالغة الأهمية - كما يقول الباحث الفرنسى فيدوتو ..

ولولا الكتابة لضاعت كل القصص والخطابات والاغانى والتراتيل التى كان ينقلها الانسان من فم إلى فم .. ولولا الموسيقى ما استطعنا ان نحتفظ بالشعر والأغانى والتراتيل فى المعابد ..

ويروى لنا التاريخ الفرعونى حوارا دار بين احد الملوك وبين عالم مصرى اخترع حروف الكتابة .. الملك اسمه تحام .. قال الملك : ان هذه الكتابة تجعل الانسان يعتمد تماما على هذه الحروف وهذا يجعله يعتمد على العين . اكثر مما يعتمد على الاذن .. ويجعله يلغى الذاكرة .. فما حاجة الانسان الى ذاكرة مادام الورق قد احتفظ له بالكلمات وهذا يجعل الانسان ينشغل معظم الوقت بحروف الكتابة عن تذوق معانيها وموسيقاها .. فهذه الكتابة تستوعب الذاكرة ولكنها لن تقويها .. ثم ان هذه الكتابة سوف تحول التلاميذ الصغار الى « صمامين » لا إلى مفكرين سوف تحولهم إلى جهلة لا إلى متذوقين - ان هذا الملك الفرعونى قد تنبأ بما سوف يحدث بعد الوف السنين ، عندما تلغى العقول الالكترونية الكثير من نشاط العقل والذاكرة .. !

ومن المؤكد تاريخيا ان المصريين هم الذين اخترعوا فن الكتابة ولكن بعض الملوك قاوموها خوفا على موهبة الذاكرة ولذلك اتجه مخترع الحروف الى فينيقيا .. واخذ الفينيقيون حروف الكتابة .. وعندما انتشرت استردها المصريون .. وان كانوا قد كرهوها بضغط شديد من هذا الملك تحام . ولكن بعد ذلك اقبل عليها المصريون .. وطوروها .. وجعلوها اجمل واروع .. تحولت حروف الكتابة او صورها الى هذه اللوحات الجميلة التى نراها على المعابد .. فالكتابة الفرعونية هى صورة معبرة عن المعانى التى يريدها الكاتب المصرى .

* * *

نعود مرة أخرى إلى الفيلسوف أفلاطون

المفتون بالموسيقى الفرعونيةوباخلاقيات المشرعين المصريين ..

يقول افلاطون : ان المشرع والمربى والكاهن المصرى والحاكم جميعا كانوا مشغولين بضرورة كبح جماح المشاعر الانسانية ـ اللذة والألم .. اما الهدف فهو : الاعتدال .. التوازن .. فإذا كان المصرى سعيدا كان تعبيره عن ذلك معتدلا محترما وإذا كان حزينا كان تعبيره عن الألم محترما ايضا .. اى ان هدف الموسيقى هو ان يكون المواطن المصرى محترم الاداء فى اللذة والألم فمطلوب من المصرى ان يكون فى حالة من الانسجام والوئام .. لا يطغى الجسد على الروح ولا الروح على الجسم .

مطلوب الا يكون طفلا وانما ان يبقى رجلا شامخا .. فالطفل اذا توجع صرخ وتشقلب على الأرض أو مزق الأشياء .. وإذا فرح صرخ أيضا وجاءت حركاته سريعة عنيفة هذا الطفل هو الصورة التى يجب الا يكون عليها الرجل .

اذن لابد ان نبدأ التوازن من الطفولة ولذلك نجد ان المصرى القديم قد ألف الاغنيات كل ما يتعلق بحياة الطفل .. فكل شىء له اغنيه وكل شهر وكل الاعياد الدينية والوطنية واعياد الحصاد والمناسبات العامة فالطفل يغنى دائما او يستمع الى الغناء والموسيقى .. لان الموسيقى تربية جسدية روحية .. والغناء الموسيقى هما تربية رياضية ايضا .. فالهدف الاسمى : هو ان تتعادل قوى وطاقات وسلوكيات الانسان .. صغيرا او كبيرا ..

وهناك قواعد صارمة لا يخرج عنها مؤلف الاغنية ومؤلف الموسيقى حتى تكون الرقصات والتراتيل داخل المعابد هى السلم الطويل السامى نحو الخلق الكريم ..

والمصريون القدماء لهم رأى نهائى فى كل ذلك : من لا يعرف كيف يغنى ومن لا يعرف كيف يرقص ويكون محترما دائما . جاهل لم يتعلم شيئا ..

والفيلسوف افلاطون عندما اقام دولته المثالية الفاضلة طرد منها الشعراء لانهم اناس كذابون مفسدون . ولكنه كان على استعداد لان يفتح اوسع الابواب للشاعر والموسيقى والمطرب المصرى لانهم جميعا يتعاونون على تحقيق العدالة الاجتماعية والفضيلة والسلام والبهجة .. !

ويرى افلاطون .. ان المصرى القديم فاضل متوازن بطبعه فقد تدرب طويلا على احترام القيم وتطبيقها دون مجهود كبير .. ولذلك فالطفل الفرعونى ولد فاضلا .. كأنه تدرب على الصدق والشجاعة فى بطن امه .. ! !

وعندما نتحدث عن تنشئة الطفل المصرى فاننا نجد له برنامجا لا يتغير

ويجب الا يتغير .. والا يتدخل الاب أو الأم في تربية الطفل .. فالطفل المصرى يتعلم القراءة في العاشرة ولثلاث سنوات . بعد ذلك يمارس الالعاب الرياضية لثلاث سنوات ولا يصح ان يتدخل الاب في تربية ابنه . فاذا فعل فان المدرس او الكاهن يطرده من المدرسة لان التربية الرياضية والاجتماعية هي من اختصاص المدرس .. اما التربية الاخلاقية وواجب احترام المدرس فهي من اختصاص الاب والام .

* * *

ويتحدث العالم الفرنسي فيوتو عن تنشئة موسى عليه السلام باعتباره أميرا فرعونيا فيقول انه درس القراءة في العاشرة والحساب والهندسة والموسيقى والهارموني والايقاع والصوت ودرس العروض .. اى بحور الشعر والاوزان - ودرس الطب والعلوم الحديثة والعسكرية والفلسفة واللاهوت - بحروف هيروغليفيه .. وكان اللاهوت والفلسفة مقصورا على الامراء أو الذين سوف يصبحون ملوكا او كهنة ..

والمؤرخ استرابون قد وصف موسى بانه كاهن أو نبى مصر .. والتاريخ قد احتفظ لنا بانواع التراتيل التي نظمها ورددها موسى عليه السلام عندما عبر البحر الأحمر ثم قبل وفاته .

يقول موسى عليه السلام (سفر الخروج - الاصحاح ١٥) أغنى للرب فانه قد تعظم والفرس وراكبه طرحهما في البحر الرب قوى . ونشيدى قد صار خلاصي . هذا الهى فأمجده اله ابى فارفعه ..

والنشيد الثاني الذى نظمه موسى عليه السلام ورддه بنو اسرائيل وراءه : انصتى ايتها السماوات فاتكلم ولتسمع الارض أقوال فمى يهطل كالمطر تعليمى .. ويقطر كالندى كلامى كالطل على الطلاء وكالوابل على العشب ، انى باسم الرب انادى اعطوا عظمة لالهنا ..

وليس واضحا ما في هذه الأناشيد من جمال وموسيقى ولكنها في غاية الجمال في نصها المصرى القديم .. وفي اللغة العبرية ..

ويرى الباحث الفرنسي العظيم فيوتو ان الفراعنة مهما سيطروا على نزعاتهم ومهما تحكموا في عواطفهم .. فإن اهوالا نفسية عميقة تكتسح كل هذ العواطف في لحظة واحدة .. ويكون الاكتساح دليلا على عمق الشعور وصدقه . ويكون الاستسلام دليلا متجددا على رغبتهم في اظهار هذه المعانى .. كان يموت الملك

مثلا .. هنا يرى المصرى القديم ان يعطي لنفسه اجازة من كل الفرامل التى وضعها لمشاعره المضبوطة او احترامه الواجب لنفسه ..

فمصر كلها تكون فى حالة حداد ويمزق كل انسان ملابسه النظيفة الجديدة وتغلق ابواب المعابد وتلغى الاعياد وكل مظاهر السرور لمدة ٧٢ يوما ويرتاد الشوارع مائتان من الرجال والنساء يضعون الطين فوق رءوسهم حزنا عميقا على الملك الذى توارى او انتقل ويلفون حول صدورهم قماشا ابيض .. اما الاغنيات الجنائزية فهى تضاعف الحزن وتعمق الشعور بالاسى والاسف .. وتجىء النادبات يتحدثن عن اخلاقيات الفقيد وعن خسارة الناس بعد وفاته .. وانه لن يجىء واحد مثله .. ولذلك وجب ان يكون الحزن عليه هو حزن العمر كله .. فقد ضاع كل شىء والذى ضاع لن يعود .. والذى انكسر لا يمكن اصلاحه . انتهى كل شىء فالعالم من بعده الى زوال ..

* * *

يقول الفيلسوف العظيم افلاطون وهو يعيب على اهله من الاغريق انهم لم يتعلموا من المصريين ما يجب : ان غرورنا جعلنا لا نتعلم بدرجة كافية من اساتذتنا فى الفضيلة وفى الاعتدال والسلام والابتهاج .. فقد ظلت المسافة بيننا وبينهم اوسع كثيرا من هذا البحر .. الآن فقط عرفت من اين يجىء الرواء والصفاء على وجوه المصريين .. طبعا من موسيقاهم العميقة التى تملأ اذانهم وعيونهم ولم نفلح نحن فى سماعهم ..

٥ ـ شديد الأسف .. لأنه
لم يعرف ماذا تغنى
المرأة في الحمام !

أعظم شباب الحملة الفرنسية هو جيوم اندرية فيوتو (١٧٥٩ ـ ١٨٣٩) ، وعظمة هذا الشاب أنه حاول المستحيل أن يستوقف كل إنسان يراه ويسأله حتى ضاق به الناس . ولكنه ظل صابرا يحاول أن يفهم وأن يحلل وأن يسجل لأول مرة في تاريخ الموسيقى العربية مبادىء الموسيقى والألحان والطرب .. ذهب إلى المشايخ والعمد وطلب منهم أن يقولوا : ياليل ياعين .. آه يا سلام .. والنبى صلى .

فلم يجد فيوتو اثنين يؤديان لحناً واحداً بطريقة واحدة . على عكس المعروف في الغرب . فالناس جميعا يؤدون اللحن الواحد بطريقة واحدة .. لأن قواعد اللحن والنوتة الموسيقية مسجلة ومعروفة تماما مثل مبادىء الحساب ٢ + ٢ = ٤ .. لا خلاف عليها بين أحد من الناس ، صغيرا أو كبيرا إلا في مصر . ويقول فيوتو : أنك لا تكاد تسأل احدا حتى يتوهك .. ويحكى لك حكايات ويدور في هذيان ماله أول ولا آخر .. وتندهش لهذا التوهان والغيبوبة .. ثم يجد للناس عذرا هو أنهم فوجئوا بهذه الاسئلة .

وأنهم لا يعرفون لها اجابة .. ولم يخطر على بالهم ان هذا الذى يغنونه أو يقرأونه له قواعد .. فهم قد سمعوا ورددوا .. وتوارثوا ذلك مئات السنين .. ويحتقرون كل شيء لم يأت به القرآن .

ولذلك انحطت الموسيقى والغناء في مصر الحديثة ، بينما انتعشت الموسيقى وازدهر الغناء قبل ذلك أيام الرومان والاغريق .. أما هذه الموسيقى وهذا الطرب فشيء هزيل لا يهم المسلم بل يحتقره ويزدرى هؤلاء الموسيقيين والمطربين والراقصين ويراهم مهرجين .

وهذا العالم الشاب فيوتو قد لاحظ أهله انه يريد ان يتفرغ للموسيقى فادخلوه مدرسة للرهبان املا فى ان يكون قسا محترما .. ولكنه لا يريد .. فراح يعمل فى فرقة موسيقية متجولة .. وكان هو الذى يؤلف ويلحن .. ولكنه لم يكسب مالا ولا احتراما فعاد إلى أهله خائبا تائبا فادخلوه ديرا للرهبان .. وفى الدير استمر يؤلف الموسيقى وينظم الأغانى وانشأ فرقة موسيقى أوبرالية .

أما الذى لفت إليه الأنظار فهو علمه الغزير باللغات وبالتاريخ القديم وروحه المغامرة .. ولذلك اتخذه نابليون واحدا من العلماء الشبان .

وكانت دراساته التى قام بها فى مصر من أروع وأعظم ما تركت لنا الحملة الفرنسية .. فلم نعرف قبل فيوتو هذه الدراسات الرائعة فى كل اللغات : العربية والعبرية والحبشية والسومرية والقبطية والارمنية واليونانية واللاتينية والتركية والفارسية .. كل ذلك درسه وراح ينقب فى كنوزها عن مصادر نادرة لتدوين الموسيقى والمقامات والطبقات والتفريعات المختلفة على اللحن الواحد .. وكيف انتقل من لغة إلى لغة .. ومن بيئة إلى بيئة .

وكانت له دراسات انسانية واسعة ولكنه لم يفلح فى نشرها فى فرنسا .. ويقال احرقها حزنا على نفسه .. ثم أن آخر ما كتبه كان بعنوان « مذكرات حول امكانية وضرورة وضع نظرية دقيقة حول مبادئ الموسيقى » .

وكان الكتاب غامضا شديد التعقيد ، لم يستطع أحد فهمه . وازداد يأسه من الحياة . فلم ينل ما يستحقه من الاحترام والتقدير . ويقال انه انتحر بطريقة مبتكرة فقد أمسك احدى آلالات الموسيقية وحطمها وراح يأكلها هى وصفحات كتاب له بعنوان « قاعدة للتذوق الموسيقى فى كل الدنيا » !

ولابد أنه كتاب فلسفى مغرق فى الغموض . فكلما عرضه على أحد من اصدقائه اعاده إليه ، دون أن يتجاوز قراءة المقدمة وبعض الهوامش . ولم يترك لنا فيوتو من هذا الكتاب إلا هذه الورقة : لم أجد مكانا يستحق أن اضع فيه كتابى هذا الا هنا .. فابتلعته لنموت معا » .

لاحظ فيوتو أن كل العلوم قد أخذها المصريون من العرب . فيما عدا علوم الدين .. ولكن هذه العلوم التى انتقلت إليهم مع الفتح العربى ، قد سقطت فى غياهب النسيان . فالمصرى لا يهتم كثيرا بهذه العلوم لانه مقهور ذليل فى غيبوبة وفى خزى بسبب ضعف الحكام وبسبب طغيان المماليك الذين افلحوا فى أن يجردوا المصريين من الكرامة وأى أمل فى الخلاص .

يقول فيوتو : ولا تكاد تناقش هذا الوضع المهين للمصريين حتى يقولوا لك :
ربنا كريم .. اللهم الطف بنا .. كل شيء له آخر .. ربنا يهون علينا !
ثم لا يفعلون أكثر من ذلك ..

وتندهش كيف يمكن تغيير هذا الهوان .. لماذا لا يغضبون ؟ لماذا لا يسخطون لماذا لا ينحني أحد على الأرض يلتقط طوبه يضرب بها رأس واحد من المماليك .. ليتبعه آخرون .. لماذا يتوقعون من السماء ان تساعدهم دون أن يفعلوا شيئا ؟!

ويروى لنا فيوتو أشكالا والوانا من العذاب الشخصي . فهو يريد أن يسجل بالنوتة كل أغاني وموسيقى المصريين .. أنها صارخة زاعقة تخرم الأذن ومملة وسخيفة ومنفرة وقبيحة .. ولكنه اعتاد على ذلك .. أنها مثل شراب مر ، لا يجد سواه فلابد أن يتناوله كل يوم ويبلعه . ولكن لابد لكي يسجل هذه الموسيقى بالنوتة .. وكان يأتي بالمطرب بعد المطرب ويستمع منهما ومن غيرهما .. وكانت دهشة المصريين عظيمة جدا عندما يجدون فيوتو يردد لهم اللحن دون أن يعرف معاني الكلمات .. ولكن الذى لا يعرفه المصريون هو أنه قد سجل اللحن بالنوتة .. ولذلك اذا قرأ النوتة التى لا يعرفونها ، فإنه يؤدى اللحن بالضبط وبمنتهى الدقة ..

والمصيبة أنه رغم كل ذلك لم يهتد إلى أسس النغمات اللحنية من بين هذا الحشد الهائل من النغمات والزخارف المضاعفة والمتضاربة .

شيء عجيب أنه لم يجد مطربين يؤديان لحناً واحداً بطريقة واحدة .. بل أن المطرب يسرف فى التطريب والاضافة كأنه يريد أن يضلل كل من تسول له نفسه ان يؤرخ أو يضبط وقع أقدام المطرب على السلم الموسيقى ! .

ولا يسع القارىء إلا أن يعجب بهذا الشاب العظيم وبصبره الذى لا ينفد .. فقد سجل لنا أغنيات شعبية لم نكن نعرف عنها شيئا .. سجلها بالنوتة . مثلا :

يالا بسين الشيشكلى
ومحزمين بالكشميرى
حبيت جميل ينهود ما رأت
مثل الجميل ما رأت عيني

* * *

يا ابيض ويالون الياسمين
يالل على الصب لاحظ

وحياة عيونك والوجنات
أنا اسير اللواحظ ..

* * *

الخمر والورد الأحمر
بيتغزلوا فى خدودك
ناديت من عظيم وجدى
يا شبكتى من عيونك
قال لى غزالى اديني جيت
وافعل كما تختار فى
واركبك صدر برمان
وتحل دكة الفيه

* * *

يا عاذلى خليني
حب الجميل كاويني
ع الجمر لو يسليني
بالروح أنا ما اسلاه
يا تمر تمرتين
ياكويستو بونو (ومعناه بالايطالية كده كويس)
وجه الجميل بينور
جل الذى قد صور
وأنا عليه بادور
شرع الهوى وياه
ياتمر ..

* * *

الساق مثل اللولى
والسنتيان دابولى
لما سكر حله لى
ولعبت أنا وياه
يا تمر ..

ظهرت عليك صبابتى
من بعد كانت خافية
البستنى ثوب السقام
يلبسك ثوب العافية

xxxx ✱ ✱ ✱

محبوبى لابس برنيطة
ودكته عقد وشنيطة
طلبت وصلة قالى «أسبيطه»
(هى كلمة ايطالية معناها : انتظر)
ما أحلى كلامه بالطليانى
يا سلام من عيونه
عيون الغزلانى
واصلنى ياحلو الكلام
يا سلام

✱ ✱ ✱

ما احسنك يا فرط الرمان
لما تنادى بالامان
وفى يدك ماسك الفرمان
تبقى الرعية قلبها فرحان
ياسلام

★ ★ ★

محبوبى فايت على
كلمته مارد على
كشميرة بماية عددية
ما احلا قوامه فى لبس الهندية
يا أنا يا أنا .. آه يا حالى
ليلى ليلى يالى
محبوبى له خال على خده
والالحاظ تجرح مع قده

ولكن بتطريب مختلف راح يسأل ليعرف من اين جاء ..

وشغلته كثيرا جدا موسيقى ورقصات العوالم والغوازى . وقد اطال النظر الى الغوازى كيف يرقصن وكيف يخلطن الحركات الجسمية بالمعانى الجنسية الفاضحة . وانقل اليك الصورة الدقيقة الذى كتبها عن احدى الراقصات بعد ان سجل بالنوتة الموسيقية كل نغمة مصاحبة لحركاتها الجسمية .

يقول جيوم اندريه فيوتو :

« من الصعب ان نصف هذا النوع من الرقص فى لغتنا بدقة . اذ يأتى على نحو لا يستطيع احد ان يتخيل معه شيئا يفوق فحش حركاتها .. ويعبر هذا الرقص الذى لا تكاد تسهم فيه سوى القدمين واعلى الجسم ، بأكبر التبذلات جسارة ، عن الانتقالات الجامحة التى يمكن ان تحدثها الشهوة فى النفس ، والافعال التى يمكن ان تؤدى الى تصاعد عاطفة شبقية ودغدغة بالغة القوة لرغبة حسية ملحة .. وفى البداية لا يبدو ان حركات الراقصة بالغة الوهن ، لحد لا يمكن أن تفصح معه عن حقيقتها من غرض سوى التسلية البريئة ، ولكن حين تصبح هذه الحركات محسوسة شيئا فشيئا ، فان المرء لا يلبث ان يتعرف على صورة متوثبة لكل ما للخلاعة من عهر فتعبيرات وجه الراقصة ، وهيئة جسدها تعبر اكثر فاكثر عند ظهور الشهوة التى تنم عنها ، وتجسدها حركات الجسم الخليعة ، ويرى المرء تولد التوتر والشجن ، فتعاقب الاضطرابات وخفقات القلب ، وسرعان ما تعلن الرجفة التى تسرى فى الجسد كله عن الرغبة الجامحة والملحة فى المتعة والانتشاء ، بل يكاد تحاكى تشنجات العملية الجنسية ويظن المتفرج ان الرغبة قد اشبعت ، وسرعان ما ينقلب الامر الى وهن مصحوب بالخجل . لكن هذا الشعور العابر يأخذ فى التلاشى شيئا فشيئا ، لكى تتولد الثقة من جديد ، وتعود الشهوة اكثر جموحا عما كانت عليه فى المرة الأولى ـ وهكذا يستمر هذا التمثيل الصامت الخليع حتى يزهد الناس فيه فينسحب المتفرجون ، او حتى تزهق الراقصة فتتوقف .. وباختصار فان كل حركات هذه الراقصة ترمى الى التعبير عن مجاهدة العفة للشهوة ، وعن انتصار الشهوة وهزيمة العفة . ويحس المرء ان كانت المعركة اكثر او اقل تكافؤا او اذا كان الاكبر قوة هو الذى ينتصر ويجنى ثمار نصره ، وانه لا مفر من استسلام الاضعف والخضوع لمشيئة المنتصر .. وهذا يتضح من حركات الراقصة ورنين الصاجات ، برقة أو بعنف ، أو فى تهدجها أو رنينها .. » .

ولكن بتطريب مختلف راح يسأل ليعرف من اين جاء ..

وشغلته كثيرا جدا موسيقى ورقصات العوالم والغوازى . وقد أطال النظر الى الغوازى كيف يرقصن وكيف يخلطن الحركات الجسمية بالمعانى الجنسية الفاضحة . وانقل اليك الصورة الدقيقة الذى كتبها عن احدى الراقصات بعد ان سجل بالنوتة الموسيقية كل نغمة مصاحبة لحركاتها الجسمية .

يقول جيوم اندريه فيوتو :

« من الصعب أن نصف هذا النوع من الرقص فى لغتنا بدقة . اذ يأتى على نحو لا يستطيع احد ان يتخيل معه شيئا يفوق فحش حركاتها .. ويعبر هذا الرقص الذى لا تكاد تسهم فيه سوى القدمين وأعلى الجسم ، بأكبر التبذلات جسارة ، عن الانتقالات الجامحة التى يمكن أن تحدثها الشهوة فى النفس ، والانفعال التى يمكن ان تؤدى الى تصاعد عاطفة شبقية ودغدغة بالغة القوة لرغبة حسية ملحة .. وفى البداية لا يبدو ان حركات الراقصة بالغة الوهن ، لحد لا يمكن ان تفصح معه عن حقيقتها من غرض سوى التسلية البريئة ، ولكن حين تصبح هذه الحركات محسوسة شيئا فشيئا ، فان المرء لا يلبث ان يتعرف على صورة متوثبة لكل ما للخلاعة من عهر فتعبيرات وجه الراقصة ، وهيئة جسدها تعبر اكثر فاكثر عند ظهور الشهوة التى تنم عنها ، وتجسدها حركات الجسم الخليعة ، ويرى المرء تولد التوتر والشجن ، فتعاقب الاضطرابات وخفقات القلب ، وسرعان ما تعلن الرجفة التى تسرى فى الجسد كله عن الرغبة الجامحة والملحة فى المتعة والانتشاء ، بل يكاد تحاكى تشنجات العملية الجنسية ويظن المتفرج ان الرغبة قد اشبعت ، وسرعان ما ينقلب الامر الى وهن مصحوب بالخجل . لكن هذا الشعور العابر يأخذ فى التلاشى شيئا فشيئا ، لكى تتولد الثقة من جديد ، وتعود الشهوة اكثر جموحا عما كانت عليه فى المرة الأولى - وهكذا يستمر هذا التمثيل الصامت الخليع حتى يزهد الناس فيه فينسحب المتفرجون ، أو حتى تزهق الراقصة فتتوقف .. وباختصار فان كل حركات هذه الراقصة ترمى الى التعبير عن مجاهدة العفة للشهوة ، وعن انتصار الشهوة وهزيمة العفة . ويحس المرء ان كانت المعركة اكثر او اقل تكافؤا او اذا كان الاكبر قوة هو الذى ينتصر ويجنى ثمار نصره ، وانه لا مفر من استسلام الاضعف والخضوع لمشيئة المنتصر .. وهذا يتضح من حركات الراقصة ورنين الصاجات ، برقة أو بعنف ، أو فى تهدجها أو رنينها .. » .

ثم انه سجل حركات يديها ورجلها ونهديها .. كل ذلك بالنوتة الموسيقية !

وأطال الوقوف عند ابواب المساجد يسجل الاناشيد والاذكار فى مولد « ستى زينب » ..

وهذا أحد الاناشيد :

رضيت بما قسم الله لى
وفوضت امرى الى خالقى
كما احسن الله فيما مضى
كذلك يصلح فيما بقى
وقفت ببابك يا ذا الغنى
فقير وانت بحالى عليم
وحاشا وكلا يخيب الذى اتى
بانكسار لباب الكريم ..

وقد سجل موسيقى الاقباط وقال لعلها الموسيقى التى امتدحها الفيلسوف افلاطون .. ولكن اقباط مصر ليس عندهم اى اهتمام باى تقدم لهذه البلاد . فهم قرفانون ويشعرون كأنهم مواطنون من الدرجة الثانية ، وهم أكثر الناس جهالة فى مصر . ولذلك لا يساهمون فى اى شيء من الممكن ان يؤدى الى التطور .. وربما كانت موسيقاهم فى وقت من الاوقات احسن واجمل .. ولكن حالة الاقباط أسوأ من حال المسلمين .. فهم جميعا مقهورون بدرجات مختلفة . ولذلك كانت موسيقاهم سخيفة .. وكانت صلواتهم طويلة جداً .. نوعا من العذاب لا يقدر عليه الا الاشداء .. ولذلك يحمل الناس عكاكيز الى الكنيسة يستندون عليها اثناء الصلاة .

ودرس بالتفصيل موسيقى الارمن .. وموسيقى الاحباش .. وموسيقى اهل النوبة .. ولاحظ ان الراقصة النوبية ترقص بكتفيها بينما المصرية ترقص بساقيها ونهديها وردفيها ..

اما الموسيقى الفارسية فهى التى تستحق عظيم الاحترام لما فيها من جمال وجلال .. فى لغتها وشاعريتها وادائها وطلاوتها وسحرها . وفيها سمو للذوق . ولاشك ان الفرس هم اساتذة العرب فى كل شيء له علاقة بالذوق .

والالحان الفارسية والتركية هى التى طورت الذوق العربى والذوق المصرى بعد ذلك .

وعندما ذهب فيوتو مع الجنرال مينو إلى رهبان الدير اليوناني بالقرب من الاسكندرية وجد مخطوطة قديمة .. فيها المحاولات الاولى لتدوين الموسيقى بالنوتة .. والمخطوطة ناقصة .. ولكنها تدل على البداية العلمية للتدوين الدقيق ..

* * *

ومن الحوادث الغريبة التى رواها فيوتو لاصدقائه عندما عاد الى باريس انه حاول ان يسجل الاغانى التى تقولها الام وهى تهدهد طفلها . وقد لاحظ ان فى هذه الاغنيات كلمات يونانية وقبطية وفرعونية .. انه على يقين من ذلك .. ولما حاول تسجيل هذه الاغانى وجد مقاومة عنيفة من الرجال . فطلب ان يستمع الى الاغانى من وراء حجاب . ولكن الرجال رفضوا . وحاول ان يستدرج الخادمات الى ان يغنين امامه . ولكنهن ايضا رفضن .. فاقترح عليه بعض الاصدقاء ان الحل الوحيد هو ان يتزوج مصرية .. اما الصعوبة التى واجهته فهى انه لابد ان يسلم وبعد ذلك يتزوج . وقيل له : يكفى ان تقول : اشهد الا اله الا الله وان محمدا رسول الله .. لتكون مسلما .. حتى لو كنت كاذبا !

ولكنه رفض ان يكذب . لان الذى يكذب فى هذا الموقف الخطير كيف يكون صادقا فى كل الذى قام بتسجيله وتحليله . انه لم يكذب على أحد او على نفسه أو على التاريخ . فقد كان امينا الى اقصى درجة . وقد تكلف عناء ومرضا . رفض ان يتزوج مصرية وفضل ان يموت جاهلا بمعانى اغنيات الامهات ، على أن يعيش كاذبا ولو مرة واحدة !

ومما ادهش فيوتو فى مصر ايضا ان المرأة المصرية تغنى فى الحمام . وقيل له انها تغنى ايضا وهى فى دورة المياه . وتساءل كثيرا عن معنى ذلك ولكن لم يساعده أحد على معرفة مدى صحة هذه الحقيقة . وسافر الى الاسكندرية وسأل بعض الاجانب : أن كانت المرأة المصرية تغنى اثناء الاستحمام او اثناء جلوسها فى دورة المياه . وبالضبط ماذا تقول .. وما المعنى .. وهل فى هذه الاغانى ما يدل على الالم وانها تطلب من الله أن يسهل عليها .. وأن كانت هذه الاغنية تدل على الراحة والسعادة .. أو كانت هذه الاغنيات نهارا أو ليلا .. وهل هى مصرية أو فرعونية .. أو تناقلها المصريون عن الشعوب الاخرى .

وسمع فيوتو ان المرأة المصرية ترقص لعريسها فى الليلة الاولى لزواجهما .. ولكنه تأكد ان هذا ليس صحيحا على الاطلاق .. وقبل أن يرفض هذا الذى

سمعه ، سأل عشرين شخصا فى أماكن مختلفة من مصر ..

وسمع ايضا عن شخص ظل يغنى حتى مات .. وادهشه ذلك فراح يسأل فقيل له : بل كان مريضا يتأوه فقط .. وكان يضرع الى الله ان يشفيه معه وهو يتلو آيات من القرآن الكريم . !

اذن المصريون ليس منهم من يظل يغنى ويتأوه حتى يموت !

وفى يوم كان يمشى فى احد شوارع القاهرة فاذا به يجد منظرا غريبا ، فتوقف يسأل عن تفسير لهذا الذى له نظير فى اوربا فى العصور الوسطى .. فقد وجد شابا يغنى تحت شباك وكان واضح السعادة .. فظن أنه يغنى للمحبوبة . كأنه واحد من الشعراء « الطروبادور » فى اسبانيا وفرنسا الذين كانوا يغنون للمحبوبة تحت الشباك وتحت المطر .. ولكن اكتشف ان هذا الشاب اعمى وانه يلقن آيات القرآن لاحدى الفتيات .. وبعض الاناشيد وهى تردد ذلك .. فقد رفض ابوها ان يجلس الشاب معها مهما كان السبب .. وعلى الرغم من ان الشاب اعمى !

وجلس يدون ترتيل القرآن .. وكانت النتيجة المتوقعة : لا يوجد اداء يشبه اداء آخر .. فكل من يقرأ أو من يغنى يرتجل ويضيف من عنده ما يشاء .. ومادامت لاتوجد قاعدة واحدة سليمة قد اتفقوا عليها ، فلا لوم على أحد ولا امل سريعا فى وضع قواعد ومبادىء واصول لكل الموسيقى المصرية الحديثة !!

٦ ـ هدية للرئيس مبارك
عند افتتاح سميراميس

فى مقدمة الجزء التاسع من الترجمة العربية لوصف مصر تقول السيدة عفت شريف حرم الاستاذ زهير الشايب : كان المأمول ان تكون هذه المقدمة بقلم مترجم الكتاب زوجى واستاذى المرحوم زهير الشايب ، لاقلمى ، ولكن شاءت ارادة الله ان يجف المداد فى القلم ، وان يتوقف النبع عن الجريان وايضا ان يترك المترجم هذا المجلد مخطوطا ليكون خاتمة ذلك الجهد المضنى ، الدائب فى سعيه ، الصادق فى غايته ، الجليل فى فائدته .

وتقول : اما موقع ترجمة موسوعة وصف مصر بالذات فقد جاء فى اطار الروح العامة التى سادت البلاد فى اعقاب نكسة سنة ١٩٦٧ من البحث والتفتيش فى تاريخ مصر عن المقومات التى تؤكد صلابة الشعب المصرى ، وصموده فى وجه متحديه .

ويقول زهير الشايب : ان الهدف من ترجمتى هو اننى اردت ان اسهم فى أن تستعيد مصر اسمها الذى كادت ان تفقده باتخاذ اسم لا تاريخ له ولا مضمون (يقصد عندما سميت مصر الجمهورية العربية المتحدة ؟ !) وان اقدم لبلدى عملا هو من اخص خصوصياتها .

اما هذا الجزء التاسع فمن اشق فصول الكتاب .. عن الالات الموسيقية المستخدمة عند المصريين .. ولابد انه لقى عذابا ما بعده عذاب فى البحث عن الكلمات الموسيقية الفنية الرقيقة وعن العلامات الموسيقية ومدلولاتها الصعبة فى العربية وفى الفرنسية .

ومن المؤكد ان الاستاذ الاديب الفنان المؤرخ زهير الشايب يستحق عظيم وعميق الاحترام لهذا الجهد الهائل النادر من الشبان ـ يرحمه الله ـ لقد كان

صابرا متواضعا وطنيا مخلصا لم يبتغ الا وجه الحق . فمثل هذه الاعمال الشاقة لا تلفت الانظار ولا تملأ الجيوب !

شكرا عميقا وصلوات ورحمة على روح الأديب زهير الشايب . فسوف يذكر له التاريخ هذا الانجاز العظيم الذى هو اكبر دليل على صبره اللانهائى واحتماله الخرافى فى تقديم كتاب تنوء به الجبال . ولكنه لم ييأس . وقد لقى ما يلقاه الرواد فى كل علم من العلوم : لم نعرف قدره الا بعد ان اصبح هو الآخر تاريخا . ولو قرأ او سمع زهير الشايب بعض هذا الذى اقول فمن يدرى ربما ارتسمت الراحة على وجهه والهناءة التى لم يذقها كاتبا وروائيا ومترجما ، واديبا دائما !

* * *

كنت قد طلبت من الصديق زهير الشايب ان نذهب معا للاحتفال باعادة فتح قناة السويس . وكان اللقاء على ظهر احدى السفن .. وطال وقوفنا مع السفير الامريكى هرمان ايلتس الذى كان يتحدث عن القناة وعن الصعوبات التى وجدها الامريكان فى تطهيرها .. فرويت له ان الانجليز تضايقوا من الصحف المصرية لانها لا تتحدث الا عن الجهود الامريكية . مع ان الجهود البريطانية لا تقل ، بل احيانا تزيد . وقلت له اننى ذهبت للقاء كابتن احدى كاسحات الالغام البريطانية . واننى اعجبت بالانضباط والاناقة فى كاسحة الالغام .. وكيف ان القبطان كان وسيما رشيقا انيقا .. انيق الملبس والكلمات والحركات . حتى اننى اعتذرت عن لقائه بالقميص والبنطلون . فقال : انا لا استطيع ان اكون مثلك لاننى اقابلك اثناء ساعات العمل .

ولم يستطع القبطان البريطانى ان يكتم ضيقه من الصحف المصرية ولم يكتف بذلك بل سألنى مستنكرا : اريد ان افهم شيئا فى اخلاق المصريين .. لماذا اذا سار احد المصريين الى جانب قناة السويس وكان يشرب الكوكا او عصير الطماطم .. لماذا بعد ان يفرغ من الشراب ، يلقى بالزجاجة او بالعلبة الصفيح فى القناة ولا يلقيها فى الصحراء ! لماذا فى القناة : ان الصوت الذى تحدثه علبة صفيح فى الاجهزة الالكترونية كالصوت الذى يحدثه اللغم تماما .. فنحن هنا فى حالة اندهاش لا تنتهى .. فنحن نعمل طوال اليوم ننتشل علبا من الصفيح . وهذه العلب كانها اهانة لنا .. واظنها اهانة لكم !

فابتلعت هذه العبارة الاخيرة ولم اعلق بشىء . وسألنى زهير الشايب : ان

الرجل يستفزنا ومن الضروري ان ترد عليه .. ثم عاد القبطان البريطاني يقول : عندي اقتراح للرئيس السادات .. لماذا لا يقوم بتجفيف قناة السويس ليسهل عليكم تفريغ القناة من علب الطماطم والفول .. انتم لستم في حاجة الى كاسحات الغام !

ووقف العصير في فمي .. وصافحت الرجل في ضيق شديد .. ووقفت على سلم كاسحة الالغام والقيت بالعلبة الصفيح في القناة وضحك الرجل ولم اضحك !

ولم يشأ السفير الامريكي ان يشاركنا في الضيق أو الضحك وانما اطبق شفتيه ودبلوماسيته .. ثم تراجع ليقدم لنا السفير الفرنسي . وبسرعة قدمت زهير الشايب للسفير الفرنسي : سيادة السفير هذا الشاب ترجم كتاب وصف مصر .

واستوضحني السفير فقلت : انه وحده ترجم جانبا من كتاب « وصف مصر » وهو في حاجة الى رعاية وعناية من فرنسا لينهض بهذا العمل الجليل ..

وبدت البهجة والاحترام على وجه السفير الفرنسي . ولم يدر ماذا يقول واتجه الى زهير الشايب يسمع منه شيئا عن عمله الجليل . ولكن الخجل منعه ان يقول اى شيء . وكاد ينسحب كأنه يعتذر عن ذلك لولا ان امسكت به . ووعدت السفير ان نجيء لزيارته معا . فقال السفير : سوف اتصل بك لاحدد موعدا لغداء عمل أو عشاء .. لقد تشرفت ياسيدي بمعرفتك . واتطلع الى يوم قريب اسمع منك عن تجربتك الفريدة !

ولم يذهب للقاء السفير الفرنسي .. ولم أعد ارى زهير الشايب .. ثم اختفى في سلطنة عمان ، ليعود منها ثم يذهب الى حيث لا عودة . يرحمه الله ..

كنت في بون .. عندما تلقيت برقية طويلة جدا .. ربما في الف كلمة .. اطول برقية في حياتي .. والامضاء : السفير هاني ابو ريدة !!

البرقية من باريس وفي نهايتها اسم الفندق الذي ينزل به ورقم تليفونه ورقم الغرفة وارقام فنادق اخرى .. في لندن بعد ايام ونيويورك بعد أيام أخرى .. اعدت قراءة البرقية . حاولت ان افهم . والذي فهمته ادهشني اكثر . اذ كيف خطرت له هذه الفكرة . وما علاقة السعوديين بذلك . وما المعنى وما الفائدة المادية وما الحكمة ولماذا ؟ شيء عجيب جدا ان ترد هذه الفكرة على رأس احد في باريس وأن يختارني لاداء هذا المشروع الجليل العاجل ! ولماذا هو عاجل وكيف يكون عاجلا ! شيء غريب ..

البرقية تقول : اننى فكرت مع آخرين فى انك وحدك الذى تستطيع ان تقوم بهذا العمل وبسرعة . لقد شغلتنا فكرة ترجمة كتاب « وصف مصر » اعظم انجازات الحملة الفرنسية . ما رأيك ؟ ان الكتاب من مفاخر فرنسا .. ومن مفاخر كل من يحاول ترجمته ومن يطبعه ومن يوزعه ومن يشتريه .. توكل على الله وفكر فى الموضوع بسرعة .. ونحن جاهزون للنشر .. ليست عندنا مشكلة مالية من اى نوع !

اذن هناك جماعة .. او اناس .. او شركة تريد ترجمة هذا الكتاب بسرعة وترى فى ذلك شرفا ما بعده شرف . ولم افهم بالضبط من هؤلاء الذين يشرفهم أن يدفعوا مئات الالوف او الملايين ؟ !

ودار حوار طويل مع السفير هانى ابوريدة فى التليفون وقال لى : انه الشيخ عبدالعزيز سليمان ، اغنى اغنياء السعودية !

لم افهم . ما معنى ان يقوم احد اغنياء السعودية بنشر كتاب عن مصر .. وهو عمل ليس له عائد مادى .. وانما هو عمل عظيم جليل فادح التكاليف ولا يمكن انجازه الا فى وقت طويل .. ولكنها فكرة عظيمة . وهى غريبة بقدر ما هى مثيرة .

وقلت للسفير هانى ابوريدة : أريد ان افهم . انها فكرة عظيمة . ولا اعرف كيف اهتديت اليها .. ولكن يا ترى هل تدرك خطورة هذا العمل وما يحتاجه من اعداد وترتيب ؟ !

وقال ضاحكا : كل شىء اعددنا له خطة . لا مشاكل . بعد ايام سنلتقى فى القاهرة .

والتقينا . ووجدت إجابة على كل سؤال . وقد اتضح كل شىء . فالشيخ عبد العزيز سليمان هو صاحب فندق سميراميس وهو يريد ان يقدم نسخة من ترجمة وصف مصر للرئيس حسنى مبارك عند افتتاح الفندق ! فكرة جبارة !

وعلى بركة الله يجب ان ابدأ العمل فورا .

وبسرعة كونت لجنة من د . حسين مؤنس ود . عبدالعظيم رمضان ومحمد العزب موسى وعبدالقادر التلمسانى وكمال الملاخ ووعدنى توفيق الحكيم بأن يشارك فى بعض الجلسات .

أما عبد القادر التلمسانى وأخوه حسن التلمسانى فهما من دراويش الحضارة المصرية القديمة .. وقد قدما « وصف مصر » وكان حماس عبد القادر

التلمساني عظيما . ورأى فى هذا المشروع أملا خرافيا .

وبدأت أبحث عن القادرين على الترجمة إلى الفرنسية .. ووجدنا عددا قليلا من الرجال والنساء .. وبدأنا نبحث كم يتقاضى من يترجم من الفرنسية القديمة إلى العربية السهلة وكيف تتم الترجمة . وإذا كانت لا توجد فى مصر الا نسخة واحدة أو نسختان من كتاب « وصف مصر » فكيف نصور هذه الكتب ونبعث بها إلى الاساتذة المترجمين .. وكم يتكلف التصوير والنقل .. وما هو الوقت المحدد .. ومن الذى يختار الموضوعات التى نبدأ بترجمتها .. وأساس الاختيار .

وفى يوم جاءنى السفير هانى أبو ريدة يزف البشرى : ان الشيخ قد وصل . وذهبت اليه فى فندق شيراتون .. وتشاء الصدفة ان يظهر على القناة الأولى فيلم من انتاج عبد القادر التلمسانى عن « وصف مصر » ـ مجرد صدفة . وخيل للشيخ عبد العزيز سليمان اننى قد رتبت له هذه المفاجأة : وأكدت له : انها محاسن الصدف .

وقال الشيخ عبد العزيز سليمان كلاما محددا : ان المشروع يمكن الانفاق عليه من أموال شركات مصر .

وأكدت له : أن الانفاق يتولاه السفير هانى ابو ريدة .. أما أنا فسوف اتفرغ تماما للناحيه الفنية .. ورجوته أن يكون السفير أبو ريدة على صلة مستمرة . وطمأننى على ذلك ..

وفى باريس قابلت د . يحيى الجمل . وجلسنا فى مقهى فوكيه بشارع الشانزليزيه وعرضت عليه المشروع وسألته عن رأيه فكان حماسه عظيما . واستعداده لأن يشارك بالترجمة أو بالتقديم أو بالمشورة . واتجهنا إلى الناس حولنا وإلى الشارع وتكلمنا فى كل شىء .. ولكن المشروع شغلنى تماما . ولم استطع أن اتحول عنه . فعدت أسأل د . يحيى الجمل : هل ترى أن هذا مشروع يغرى واحدا من رجال الأعمال ؟

فكان رأيه . انه يغريه ادبيا .. يكفى أن يقول أو يقال عنه انه الرجل الذى ترجم كتاب « وصف مصر » وقدمه هدية إلى مصر ..!

: مقابل ماذا ؟

قال : هذا ما سوف نرى !

وفى جنازة صديقى وقريبى الوزير زكريا توفيق التقيت بالسفير هانى ابو

ريدة .. فحدثني عن المشاكل التى تواجه الشيخ عبد العزيز سليمان فى هدم فندق سميراميس القديم .. وفى حصوله على الاسمنت وحديد التسليح اللازم لذلك .. وانه لا يفهم لماذا يعوقون الهدم من أجل البناء .. ثم اشار بأن د . يحيى الجمل لديه معلومات عن كل شيء باعتباره محامى الشركة أو مستشارا لأحدى الشركات .

وودعت السفير هانى ابو ريدة الذى كان فى طريقه إلى السعودية للقاء الشيخ عبد العزيز سليمان ـ نسيت أن أقول أن السفير أبو ريدة هو المستشار المالى للشيخ عبد العزيز .. وبعد أن ودعنى قابلت د . يحيى الجمل مرة أخرى فوعدنى بأنه بعد عودته من الاردن سوف يكون لنا لقاء طويل وحديث عن مشاكل هدم وبناء فندق سميراميس .. ومن السعودية جاء صوت السفير ابو ريدة وكانت لنا جلسة طويلة اليوم مع الشيخ عبد العزيز .. واتفقنا على كل التفاصيل ..

وأنت ؟

قلت : لاازال فى مرحلة الدهشة .. ولا استطيع أن أذهب إلى أبعد من ذلك .. فأنا لا أعرف ما الذى أقوله لاعضاء اللجنة .. ولا أعرف مدى استعدادكم للانفاق .. ولا من الذى ينظم الشئون المالية .. ولا ما هى الجهة التى تتكفل بذلك .. ثم اننى لم اتلق غير هذه البرقية .. بلا خطاب تكليف ولا عقد .. ولذلك فأنا لا استطيع ان اعد أحدا بشيء .. فلابد أن تجيء وأن تلتقى بالاساتذة الأعضاء وتقول لهم أو تتعهد لهم كتابة .. وان وان ..

وسألنى هل ممكن مقابلة رئيس الوزراء ؟

قلت : ممكن . فهو صديقى .

قال : هل ممكن مقابلة الرئيس حسنى مبارك ؟

فقلت ممكن . ولكن لأى سبب ؟

قال : الشيخ عبد العزيز سليمان يريد مقابلته . هل تستطيع أن تدبر ذلك ؟

قلت : يجب أن أعرف بالضبط لماذا يريد مقابلته .. وبعد ذلك سوف أرى .. وأنت تعرف مسئوليات الرئيس .. والاعتبارات الكثيرة التى تحكم مثل هذه اللقاءات أن تمت ..

سألنى : هل تحدثت مع الشيخ عبد العزيز ؟

قلت : لا فليس عندى ما أقوله الآن .. وليس قبل أن يتحدد شيء نهائيا ... متى

تعود إلى مصر ؟

قال : بعد أيام ..

قلت : هل أطلب من الاساتذة أعضاء اللجنة أن ينتظروك فى موعد محدد ..

قال : لا .. البركة فيك ..

وطلبت من د . احمد قدرى رئيس هيئة الآثار أن يساعدنى فى اختيار من يراه قادرا على المساهمة فى هذا المشروع الجليل .. وان يكون عضوا فى اللجنة . فكانت سعادته عظيمة .. وطلبت من صديقى كمال الملاخ .. فاسعده ذلك .

وعدت أؤكد للاستاذ الكبير توفيق الحكيم . ان مشاركته ضرورية وان وجوده بيننا شرف عظيم .. وذكرت أن طه حسين يوم دعانا لنترجم مسرحيات لشيكسبير فاعطانى مسرحية « روميو وجوليت » .. واعطى ابنه د . مؤنس طه حسين مسرحية هاملت .. ودارت مناقشة طويلة حول شيكسبير وترجمة أعماله وتقديمها بعبارة عصرية . ان هذا العمل ادبى خطير .. وان دراسة وتحليل هذه المسرحيات وجعلها فى متناول كل المثقفين فى البلاد العربية سوف يدفع الشعر والمسرح العربى إلى الامام .. ولا اعرف كيف انتقلت المناقشة إلى كتاب « وصف مصر » لا اذكر الآن . ولكن أتذكر جيدا ما قاله طه حسين . لو أمد الله فى عمرى لسعيت إلى تلخيص هذا الكتاب وتشويق الناس اليه .. ثم دعوت إلى ترجمته .. ولم أتذكر هذا الحوار الذى دار بينى وبين عميد الأدب العربى قبل ذلك بعشرين عاما . ولم أكتب عنه . وقد عوضنا الله بتوفيق الحكيم ليكون حاضرا بيننا . ويكون حضوره وحماسه لهذا المشروع . سندا لنا على مواجهة مالا نهاية له من المصاعب !

واقترح توفيق الحكيم عدداً من أسماء رجال القانون المصريين ، وأساتذة الجامعات . وكان من رأى توفيق الحكيم أن نبدأ بنشر مقدمة فى مجلد واحد للتعريف بهذا الكتاب الضخم . وهذا أسرع شيء يمكن أن يقدمه صاحب المشروع . أما ترجمة كتاب « وصف مصر » فهو أصعب واعقد وكانت فكرة توفيق الحكيم شمعة أضاءت الكلام أمامنا .. فلم يكن أمامنا إلا ظلام وراء وأمام ظلام اذن اسهل وافضل لنا أن نقدم المشروع فى كتاب . وأن نختار ما نحب من اللوحات .. ويكون هذا الكتاب « عينة » أنيقة جميلة وفاتحة للشهية . وبعد ذلك نعكف على دراسة المشروع والاستعداد لتقديمه . ثم أضاف توفيق الحكيم ان يشترك معنا عدد من كبار رجال الآثار الفرنسيين والانجليز

والأمريكان والألمان .. فاضافة مثل هذه الأسماء الكبيرة يزيد الكتاب قيمة ويجعله عالميا .

وكذلك كان رأى د . احمد قدرى .. وسجلنا قائمة باسماء العلماء هنا وهناك .

وفجأة قرأت نعيا فى الصحف المصرية للسفير هانى ابو ريدة !

٧ ـ بحثا عن الترجمة الكاملة لكتاب « وصف مصر » ؟

كان السفير هانى أبو ريده واحدا من سكان الكواكب الاخرى ، هبط دون مقدمات وفى يده خطاب شخصى من أحد ملوك الجان . الخطاب يقول لى : انهض فورا . وضع يدك فى يدى لنترجم كتاب « وصف مصر » فى أسرع وقت لكى نقدمه هدية للرئيس حسنى مبارك !

نهضت بسرعة . المفاجأة أذهلتنى . وفى ذهولى أيقنت ان المشروع سهل . وانه يكفى أن امسك القلم واضعه على الورق ليتحول مجلدا بالفرنسية الى خمسين بالعربية . وتخيلت من الذى سيقدم الهدية . وما الذى يقوله العالم عنى وعنا .

وفجأة بعد أن نظرت الى نفسى فى المرآة فوجدتنى عاريا تماما . ولما « قرصت » نفسى اكتشفت اننى كنت احلم . وان السفير ابو ريده هو الآخر كان يحلم . لما صحوت فوجدت حامل الرسالة قد مات .. انه شاهد الاثبات الوحيد الذى فى يده الخطاب والرسالة . والذى يستطيع ان يقول ويقول بما يقطع اننى لم اكن حالما ولا مجنونا . انتهى !

اذن كانت فكرة المشروع « حيلة » لا بأس بها لكى يتمكن الشيخ عبدالعزيز سليمان من لقاء الرئيس حسنى مبارك ليشكو اليه المعوقات التى أصابت هدم وبناء فندق سميراميس !

الفكرة رائعة .

(١)

وفى يوم سألت صديقى احمد رائف صاحب دار الزهراء للاعلام العربى . فوافق فورا . ولكن احمد رائف رجل مهذب ورقيق الملمس ، ولكنه ينطوى على

كنوز من المرارة وغياهب من الظلام .. فقد تركت فيه السجون والعذاب والكفر بالانسان الكثير الذى يظهر عند الهزات العاطفية .. والعقلية مثل هذا المشروع .. وكل الذين دخلوا السجون لم يخرجوا .. وانما حملوا سجونهم على اكتافهم وتحت جلودهم وفى دمائهم .. قلت له : ما رأيك ؟

قال : الرأى رأيك .

قلت ندرس ونبحث .. وهو شرف عظيم للمترجم والناشر .. وجلست ابحث وجلسنا وكان لابد ان اعرف حجم العمل .. ولابد ان اقسمه . وان نضع خطة محكمة بأى فصول الكتاب نبدأ . وهل نترجم الكتاب كله .. هل الحكومة ؟ قابلت الصديق المرحوم عبد الحميد رضوان وزير الثقافة .. فقال : انه ومن الذى يساعدنا على نشر الكتاب جاهز .. وسوف يساعد ما استطاع ..

هل الحكومة الفرنسية ؟ قيل لنا انها تساعد مثل هذه المشروعات الثقافية .. وقد ساعدت كثيرين فى مصر وفى غيرها ..

اذن على بركة الله نبدأ .

ولكن بأى شيء نبدأ .. أولا بان نعرف من هم القادرون على الترجمة من الفرنسية ومن هم القادرون على الكتابة العربية التاريخية الاثرية الصحيحة .. ومن يراجع ذلك ..؟ وظهرت اسماء كثيرة فى كليات الاداب واسماء بعض الاشقاء من سوريا ولبنان ومن امريكا .. وكم ندفع لهم وبأية عملة ومتى ..؟ مقدما ؟ اثناء الترجمة ؟ بعدها ؟

وثانيا : كيف نتعاقد مع هؤلاء الاساتذة وما اسم هذا المشروع وماهو التقدير المبدئى لهذا العمل الجليل ؟ ومتى نعلن عن هذا المشروع ومتى نحتفل أن تظهر ثمراته فى المكتبات المصرية ..

وثالثا : ويجب ان يكون اولا : ان نعرف كم عدد النسخ الموجودة فى القاهرة او فى مصر او حتى فى العالم العربى ، او فى العالم من كتاب « وصف مصر ».. وقد عرفت أن لدى هيئة الآثار نسخة .. وعرفت مكانها .. وفى مكتبة الجامعة الامريكية نسخة .. وفى السفارة الفرنسية نسختان .. واحدة قد أوصى صاحبها الا تبرح مبنى السفارة .. ونسخة عند الهيئة العامة للكتاب .

والخطوة التالية هى ان نقوم بتصوير نسخة وتوزيع فصولها على الذين سوف يترجمون .. وبدأ البحث فى الكاميرات الخاصة بنقل هذه الصفحات ، وفوجئت بان بعض المؤسسات تخشى على الكتاب ان يتمزق .. فلها شروط .. من

اهم هذه الشروط هى انها هى التى تتولى التصوير مقابل مبلغ كبير من المال .. لانها هى التى سوف تختار المصور ونوع الكاميرا ونوع الاضاءة .. وان هذا المصور موجود فى باريس .. وانه مشغول جدا ولذلك يجب ان نتعاقد من الآن ليجىء الى القاهرة ضيفا على المشروع هو واثنان من مساعديه ..

وبدأت اسمع عن ترجمات عربية كاملة ! كاملة ؟! ترجمة كاملة لكتاب ولم نسمع بها فى مصر .. انهم يؤكدون ذلك .. وقيل ان الالمان يترجمون كتابا فرنسيا عن مصر ويظهر الكتاب ويقال انه نفد دون ان يدرى به احد ؟! هكذا قيل ! سألت سفارتنا فى المانيا ، لا علم عندها .. سألت عددا من المستشرقين .. لم يسمعوا بشىء من ذلك .. اذن الاحتمال بعيد جدا ..

قيل لنا انهم الفرنسيون طبعا هم الذين اعادوا طبع الكتاب فى صورة هدية وعلى ورق اقوى .. معقول .. وهم ايضا الذين ترجموه من سوريا ولبنان .. اتجهت الى صديقى د . فتحى محمد على وزير التعليم فى ذلك الوقت .. وطلبت اليه تزكية لدى مستشارنا الثقافى فى باريس .. ولدى وزارتى التعليم والثقافة الفرنسية .. وسافرت مع الصديق احمد رائف الى باريس .. ولم نتلق اجابة شافية .. ولا أكد احد لنا ان فرنسا ترجمت الكتاب .. وان قيل لنا ان فرنسا ترجمت الكتاب .. وان قيل لنا ان الحكومة الفرنسية قد أعادت طبعه بشكل محدود جدا .. وان فى استطاعتنا ان نحصل على نسخة .. وهذه النسخة نحن احرار فى تمزيقها وتصوير صفحاتها على النحو الذى نريد ..

ورأيت اختصارا للدوخة بين المؤسسات والهيئات ان اذهب مباشرة الى الصديق العتيد لطف الله سليمان .. وهو اسم لا يعنى شيئا عند عامة المثقفين الآن .. ولكنه كان يعنى عندنا الكثير فى الاربعينات والخمسينات .. فقد كانت له مكتبة وكنا نتردد عليها .. وكانت المكتبة منتدى ثقافيا لكل انواع المفكرين والادباء .. وكان لطف الله سليمان ذلك المفكر الماركسى هو الدينامو الذى يحركنا جذبا وطردا .. وهو انسان شديد القلق .. ومضطرب الحيوية ، فقد عمل فى معظم مكتبات مصر .. وكنا نلاحقه اينما ذهب .. وهو بعينيه الخضراوين او الزرقاوين .. او الحمراوين لست على يقين الآن .. وحاجباه الغليظان ومنظاره الاغلظ وصوته الذبيح ، التقط الفكرة بسرعة .. وبسرعة اقام لنا مؤسسة ضخمة هو رئيسها .. وتضم عددا من الموظفين والمستشارين واكد لنا ان المشروع ممكن .. واننا يجب ان ننتظر التعديل الوزارى الجديد فى فرنسا ،

فالوزير الجديد صديقه ، وفى وزارة الثقافة الفرنسية اعتمادات مالية ضخمة لمثل هذه المشروعات الثقافية .. وان المساعدة الفرنسية لنا سوف تكون باعطائنا الورق اللازم او الصور المناسبة وشراء عدد من النسخ .. بعد الترجمة .. وبناء عليه فهو المسئول فى فرنسا عن هذا المشروع .. وحده لا شريك له .. وهو وحده الذى يتكلم باسمنا .. ولكى يتكلم يجب ان نتعاقد معه .. ولكى نتعاقد لابد من خطاب ضمان لدى احد البنوك ، وبمقتضى هذا الخطاب يتقاضى اجرا شهريا بالدولار كذا وكذا .. وانه يرجونا بصفة خاصة ونظرا لظروفه .. ان ندفع مقدما ستة شهور .. واشار ناحيتى باننى اعرف الظروف ! وهززت رأسى بما معناه اننى اعرف .. ولم اكن أعرف .. ولكن من المؤكد ان حالته المالية سيئة .. وهذه حكاية قديمة ومستمرة .. هذا كل ما اعرفه .. وندمت على اننى اشتريت له صندوقا من الشيكولاته .. فقد حاولت ان اكون متحضرا اما سبب ندمى ، فهو انه سألنى : ماهذا ؟ قلت : كما ترى شىء يؤكل ..

فألقى بالشيكولاته فى سلة المهملات قائلا : ليس الآن كم ستدفع لى ؟ بالتحديد وبالدولار ؟!

قلت له : المهم انك الآن تعرف هذا الناشر .. ولكى تعرفه اكثر فانه من الاخوان المسلمين ، كان .. ولكن لايزال مسلما .. وانت من الاخوان الماركسيين .. ولكن هذا لا يقدم ولا يؤخر .. المهم نجاح المشروع .. فان كانت عندك تساؤلات فأمامك الرجل .. اسأل الآن لتعرف فورا ..

قال : كل الذى اريده قلته .. وبمنتهى الوضوح .. وانا فى انتظار اوراق اعتماد وخطاب ضمان .. وسوف اكون اسرع فى البحث والتحرى .. ولكن لن ابادر بشىء قبل ان اتأكد من الاستجابة لكل مطالبى !

ـ اتفقنا ..

(٢)

وفى لندن سمعنا الخرافات ..

واحدة تقول بل الانجليز لخصوا هذا الكتاب ونشروا التلخيص ، لانه من الصعب ان يقرأ احد هذا الكتاب .

وقيل لنا ان التلخيص ظهر فى مجلدين وكان ذلك من عشرين عاما ـ من عشرين عاما ـ ولم يسمع به احد من المؤرخين والأثريين فى مصر ..؟

وقيل لنا : بل هما فعلا مجلدان احدهما اختصار للنصوص والثانى يضم

اختيارا للوحات التى رسمها فنانو الحملة الفرنسية ..

وقيل ان النسخ محدودة .. اذن لابد ان نذهب الى المكتبة العامة .. وهناك سوف نجد كل نسخة من كل ورقة مطبوعة فى العالم .. ذهبت ولم أجد اثرا لذلك .. فالكتاب لم يولد !

ثم قيل لنا : لا .. لا .. بل الملخص .

مخطوط بقلم أحد أساتذة التاريخ ، وقد توفى دون أن ينشره .. ولكن الورثة على استعداد لبيعه بأى ثمن ؟

بأى ثمن ؟ يا سلام .. ولماذا بأى ثمن ؟ ما عيب هذه المخطوطة .. هل هى ناقصة ؟ هل هى ركيكة ؟ وكيف تكون ركيكة والمؤلف من اقطاب علم التاريخ الانجليزى ..

ثم قيل لنا : فعلا كان فى نية احد الاساتذة أن يلخص وصف مصر » وكتب مقالا طويلا عن هذا الكتاب وأهمية تلخيصه لعامة المثقفين ، تشجيعا لهم على قراءته أو تشجيعا على تلخيصه أو دعوته لترجمته !

آه .. فكرة يعنى .. حلم فى رأس هذا الرجل ، كالحلم الذى كان فى رءوسنا ؟

كان لابد أن نعود من حيث ابتدأنا ؟

هل نقدم على مشروع أو لا نقدم ؟ ترددنا .. تعثرنا .. زهقنا .. مللنا .. قرفنا .. ولكن الفكرة مثيرة تستاهل البحث والتعب .

وظهرت فكرة تدل على بداية اليأس أو على أننا افقنا من الحلم الذهبى الذى اغرقنا فيه المرحوم هانى أبو ريده .. وتساءلنا : الذى تساءل هو الاستاذ احمد رائف ولماذا لا نطبع لوحات كتاب « وصف مصر » ونبيعها على انها كروت تذكارية بالألوان .. مع كتابة سطور على ظهر الكارت .. ولماذا لا نجعل منها شرائح من البلاستيك ملونة يمكن رؤيتها بالفانوس السحرى أو تكبيرها .. ولماذا لا نضع شرائط فيديو للوحات وصف مصر ..

تماما كما فعل عبد القادر وحسن التلمسانى .. ؟ انها فكرة تجارية مدهشة ورابحة مائة فى المائة ـ أى لا داعى للكتاب وانما نكتفى باللوحات وصورها ؟ وهى فكرة مغرية للناس .. ولكنها لا تغرينى يعنى المشروع انتهى ! ويجب أن ينتهى !

سألت الصديق د . سمير سرحان رئيس هيئة الكتاب : ما رأيك ؟ قال : أنا مستعد أن أساعدكم بتصوير كل كتاب « وصف مصر » .. هدية من عندى

ومساهمة من الهيئة في هذا المشروع ..

سألت صديقي المرحوم محمد عبد الحميد رضوان وزير الثقافة فقال : وأنا استطيع أن أساعد أكثر من د . سرجان في الطباعة وفي الورق وفي الحصول على اعتماد مالي وشراء عدد من النسخ وسوف التقي بالسفير الفرنسي وبوزير الثقافة الفرنسية .. فأرجو أن تضع في يدي ورقة فيها فكرة المشروع بصورة محددة .. تأكد من ذلك .. وكنت على يقين من صدق عبد الحميد رضوان ..،

(٣)

وكنت قد أجلت بحث الترجمة التي نشرها المرحوم زهير الشايب من كتاب « وصف مصر » وكان في نيتنا ان نتفاوض مع السيدة عفت شريف حرم زهير الشايب .. والتقيت بها وقلت اننا سوف نترجم مالم يترجمه زهير الشايب وأننا نريد أن نتفق معها على نشر كل ما ترجمه ضمن الترجمة العامة لكتاب وصف مصر .. وقد وعدت بان تفكر في الأمر والتقيت بها أكثر من مرة .. وفي كل مرة تعد بانها سوف تعيد النظر في الأمر وفي حساباتها .. ولم يكن من الصعب ان نستنتج انها لا توافق ، ولكنها لا تريد أن تقول ذلك .. فقلت لعلها اتفقت مع ناشر آخر .. أو لعلها لا تريد أن تكون ضمن « آخرين » .. وانها تريد أن تستقل وحدها بالنشر .

ولعلها ولعلها .. وهذا حق لها وانها لابد اختارت الذي يريحها .. ولم تعدنا بأي شيء .. ونحن أيضا لم نستطيع أن نعدها بأي شيء . وانتهى الحوار بيننا عند هذا الرفض المهذب .. من جانبها ، وعند فهم ذلك واحترامه من جانبنا ..

وفهمت من الاستاذ احمد رائف ، انها تحرجت أن تصارحني بذلك وأنها اتفقت مع ناشر آخر وهذا الاتفاق نهائي .

ولم نفلح في أن نقنعها بأي اتفاق أو تعاقد خاص يضمن لها كل حقوقها في أي وقت .. كأن يكون لنا حق الترجمة مرة واحدة مقابل مبلغ معين .. وان ننفرد بعد ذلك بكامل حقوقها .. ولا أن نختار بعض الفصول من ترجمة الأستاذ زهير الشايب وأن ننشرها بصورة أنيقة كاعلان عن المشروع ودعوة لان تساهم فيه هيئات رسمية في مصر وفي فرنسا .. ولكن السيدة عفت شريف لم تشأ أن تقول لا أو تقول نعم .. انتهى .. واقنعت السيد عبد الحميد رضوان الا يحاول .

بصورة أخرى مع السيدة عفت شريف .. لاقناعها فقد اتخذت موقفا رافضا نهائيا .

وكان من رأيى الا نتخلى عن الفكرة وانما نبحث معا عن شكل آخر نحكى فيه ما حدث وعن المحاولات والمفاوضات والمشاكل والصعوبات ـ وفى نفس الوقت نؤلف كتابا بعنوان « وصف مصر » أو « وصفة » لوصف مصر .. وكيف يمكن أن نعود إلى التفكير فى هذا الموضوع بصورة أخرى .. وبمساندة من هيئة ثقافية عالمية اليونسكو مثلا .. فانقاذ وصف مصر مثل انقاذ معبد ابى سمبل .. فلا يزال كتاب « وصف مصر » نموذجا رفيعا للجهود العلمية والفنية الشابة لكتابة « بطاقة هوية » لمصر فى أوائل القرن الثامن عشر .. مع بداية النهضة ومع وصف لما تبقى من مصر الاسلامية والتركية والاغريقية والرومانية والقبطية والفرعونية ثم أن هذه الجهود الشابة الصابرة المثابرة المتعمقة الجادة نموذج رفيع المستوى لكل من ينقش فى الصخر . بحثا عن الحقيقة وتسجيله لها ..

فالفرنسيون بهذا الكتاب وباكتشاف حجر رشيد

اشاعوا النور والاحترام والعظمة فى كل تاريخ مصر .. ثم انهم رصفوا الطريق وفتحوا الأبواب للعالم كله ان يجيء سائحا ومتفرجا وباحثا فى كنوز مصر .

ثم مفاجأة أخرى مات عبد الحميد رضوان ..

الفـــهرس

الصفحة

كتب المؤلف

(أ) ترجمة ذاتية :

١ ـ في صالون العقاد كانت لنا أيام
٢ ـ عاشوا في حياتي
٣ ـ إلا قليلا
٤ ـ طلع البدر علينا
٥ ـ البقية في حياتي
٦ ـ نحن أولاد الغجر
٧ ـ من نفسي
٨ ـ حتى أنت يا أنا
٩ ـ أضواء وضوضاء
١٠ ـ كل شيء نسبي

(ب) دراسات سياسية :

١ ـ الحائط والدموع
٢ ـ وجع في قلب اسرائيل
٣ ـ الصابرا (الجيل الجديد في اسرائيل)
٤ ـ عبد الناصر ـ المفترى عليه والمفترى علينا
٥ ـ في السياسة (٣ أجزاء)
٦ ـ الدين والديناميت
٧ ـ لا حرب في أكتوبر ولا سلام
٨ ـ السيدة الأولى
٩ ـ التاريخ أنياب وأظافر
١٠ ـ الخالدون مائة ـ أعظمهم محمد (صلى الله عليه وسلم)
١١ ـ لعنة الفراعنة
١٢ ـ على رقاب العباد
١٣ ـ ديانات أخرى
١٤ ـ وكانت الصحة هي الثمن
١٥ ـ الغرباء
١٦ ـ الخبز والقبلات

(جـ) قصص :

١ ـ عزيزي فلان
٢ ـ هي وغيرها
٣ ـ بقايا كل شيء
٤ ـ يا من كنت حبيبي
٥ ـ قلوب صغيرة
٦ ـ شارع التنهدات
٧ ـ فوق الركبة
٨ ـ هذه الصغيرة (وقصص أخرى)
٩ ـ عريس فاطمة
١٠ ـ يوم بيوم
١١ ـ إنها الاشياء الصغيرة

(د) نقد أدبي :

١ ـ يسقط الحائط الرابع

٢ ـ وداعا أيها الملل
٣ ـ كرسى على الشمال
٤ ـ ساعات بلا عقارب
٥ ـ مع الآخرين
٦ ـ شىء من الفكر
٧ ـ لو كنت أيوب
٨ ـ يعيش .. يعيش ..
٩ ـ الوجودية
١٠ ـ عذاب كل يوم
١١ ـ طريق العذاب
١٢ ـ وحدى .. ومع الآخرين
١٣ ـ مالا تعلمون
١٤ ـ لحظات مسروقة
١٥ ـ كتاب عن كتب
١٦ ـ أنتم الناس أيها الشعراء
١٧ ـ أيها الموت .. لحظة من فضلك
١٨ ـ أوراق على شجر
١٩ ـ فى تلك السنة
٢٠ ـ دراسات فى الأدب الامريكى
٢١ ـ دراسات فى الأدب الالمانى
٢٢ ـ دراسات فى الأدب الايطالى
٢٣ ـ فلاسفة وجوديون
٢٤ ـ فلاسفة العدم

(هـ) رحلات :

١ ـ حول العالم فى ٢٠٠ يوم
٢ ـ بلاد الله خلق الله
٣ ـ غريب فى بلاد غريبة
٤ ـ اليمن ذلك المجهول
٥ ـ أنت فى اليابان وبلاد أخرى
٦ ـ اطيب تحياتى من موسكو
٧ ـ أعجب الرحلات فى التاريخ

(و) مسرحيات كوميدية :

١ ـ مدرسة الحب
٢ ـ حلمك يا شيخ علام
٣ ـ مين قتل مين
٤ ـ جمعية كل واشكر
٥ ـ الأحياء المجاورة
٦ ـ سلطان زمانه
٧ ـ حقنة بنج
٨ ـ العبقرى
٩ ـ الكلام لك يا جارة

(ز) مسرحيات مترجمة :

* للأديب السويسرى فريد ريش
ديرنمات :
١ ـ رومولوس العظيم
٢ ـ زيارة السيدة العجوز
٣ ـ زواج السيد مسيسى
٤ ـ الشهاب
٥ ـ هى وعشاقها
* للأديب السويسرى ماكس فريش :

١ ـ أمير الأراضي البور
٢ ـ مشعلو النيران
* للأديب الفرنسي جان جيرودو :
١ ـ من أجل سواد عينيها
* للأديب الامريكي آرثر ميللر :
١ ـ بعد السقوط
* للأديب الامريكي تنسي وليامز :
١ ـ فوق الكهف
* للأديب الامريكي يوجين أونيل :
١ ـ الامبراطور جونس
* للأديب الفرنسي يوجين ليونسكو:
١ ـ تعب كلها الحياة
* للأديب الفرنسي اداموف :
١ ـ الباب والشباك
* للأديب الاسباني أرابال
١ ـ ملح على جرح

(ح) دراسات نفسية :

١ ـ الحنان أقوى
٢ ـ من أول نظرة
٣ ـ طريق العذاب
٤ ـ الوان من الحب
٥ ـ شباب .. شباب
٦ ـ مذكرات شاب غاضب
٧ ـ مذكرات شابة غاضبة
٨ ـ جسمك لا يكذب
٩ ـ اثنين .. اثنين
١٠ ـ الذين هاجروا
١١ ـ غرباء في كل عصر
١٢ ـ أظافرها الطويلة
١٣ ـ هموم هذا الزمان
١٤ ـ الحب الذي بيننا
١٥ ـ عذاب كل يوم

(ط) دراسات علمية :

١ ـ الذين هبطوا من السماء
٢ ـ الذين عادوا إلى السماء
٣ ـ القوى الخفية
٤ ـ أرواح وأشباح
٥ ـ لعنة الفراعنة

مطابع الشروق

القاهرة: ١٦ شارع جواد حسني ـ هاتف: ٣٩٣٤٥٧٨ ـ ٣٩٣٤٨١٤

بيروت: ص.ب: ٨٠٦٤ ـ هاتف: ٣١٥٨٥٩ ـ ٨١٧٧٦٥ ـ ٨١٧٢١٣

سوف يذكر التاريخ للكاتب الكبير
أنيس منصور

أنه هو الذى لفت الأقلام إلى أن فى العشرين قرننا الماضية كانت هناك سنة عجيبة .. هذه السنة هى التى أنجبت عددا من العظماء الذين أضاءوا سبل الفكر ، وعمقوا الوجدان ، وزلزلوا الأرض ، وألهبوا السماء ..

هذه السنة هى ١٨٨٩

وفيها ولد كبار المفكرين والفلاسفة والشعراء والمؤرخين والفنانين .. وكان فيها هتلر وأقيم برج أيفل ..

هؤلاء العظماء تناولهم كاتبنا الكبير أنيس منصور بقلمه الساحر وقدرته الفريدة على معرفة الأسرار الخفية فى أعماق الإنسان .. ثم جعلها حكايات ونوادر ممتعة باقية ..

إن كاتبنا أنيس منصور ليس جديدا على أحد من قراء العربية .. فالقراء أسعدوه حين اختاروه على مدى أربعين عاما كاتبهم المفضل .. فكانت كتبه من كل لون ، أكثر الكتب العربية انتشارا ..

فأنت على موعد مع سنة ١٨٨٩ أغنى سنوات التاريخ وأعمقها وأجملها.. وأبشعها أيضا .

بين يديك هدية من سنة ١٨٨٩ جعلها كاتبنا الكبير عقدا من اللؤلؤ المضىء ، وسجادة عجمية متداخلة الخيوط الحريرية .. لاتدسها بقدميك ، وإنما علقها على جدران ذاكرتك وخيالك ..

أن المتعة والروعة والفن والفكر والحكمة كلها فى كتاب

فى تلك السنة !

هؤلاء العظماء ولدوا معا

نعم .. ولابد أن يولد فى خيالك ووجدانك وفكرك ألف ألف شىء جديد!